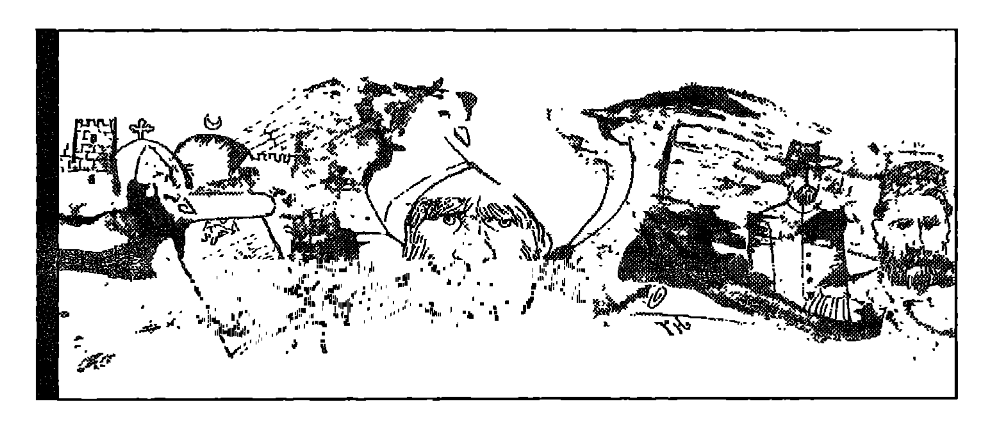
الفصل الاول

الأهرام جريدة لا تهرم!



- الأهرام صحيفة قومية منذ الزمن الأول؟
- الخصوصية المصرية تنعكس على الأهرام
- عبق التاريخ: محافظة لا جمود
- الإبحار وسط أمواج السياسة

[١]

عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين عندما وضع مقدمة لكتاب «جريدة الأهرام - تاريخ مصر فى خمس وسبعين سنة» آثر ان يوصف الأهرام بـ «ديوان الحياة المعاصرة» وهو التوصيف الذى رأينا بدورنا ان يكون عنوانا لهذا الكتاب ولهذا الايثار أسبابه..

فالتسمية تحمل فى جانب منها عبق التاريخ، ولما كان هذا الكتاب سوف يتعامل بالأساس، ليس فحسب مع تاريخ الأهرام، وانما مع تاريخ مصر والعالم من خلال الاهرام، يصبح لهذه التسمية مبررها وجاذبيتها.

وليس المقصود هنا التاريخ السياسى فهو مجرد جانب محدود من الحركة التى رصدها الاهرام، وانما المقصود جوانب عديدة من التاريخ يمكن استقراؤها قبل قراءتها، فاذا كانت الصفحة الاولى التى تحمل المانشيتات الكبيرة تقدم زادا لا ينفد للتاريخ السياسى فان صفحات أخرى من ذات العناوين الصغيرة أو حتى الخطوط السوداء تقدم بدورها معينا لا ينضب للتاريخ المصرى والعربى بل والعالمى!، فالاعلانات تاريخ، والبريد تاريخ، والوفيات تاريخ!

(الاعلانات) التى كانت تعنى فى أواخر القرن الماضى وبداية القرن الحالى بأمور مختلفة جد الاختلاف عما تعنى به الآن مما يشى بحجم المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية..

ودعونا نقرأ أول اعلان صدر فى الاهرام فى عدده الثانى المؤرخ فى ١٢ اغسطس عام ١٨٧٦، وقد جاء فيه: «يوجد فى أرض كوم النادورة (الناضورة) ملك الخواجات كندينكو اصطبل للأجرة يسع نحو عشرين عربية وأربعين رأس خيل وفيه طلومبة ماء فمن يرغب ان يستأجره فليخاطب بذلك الوكيل فى الأرض المذكورة والاجرة متهاودة».

ونرى أن الفارق هائل بين هذا الاعلان الذى يكشف عصرا بكل مفرداته وبين الاعلانات المماثلة التى صدرت بعد ذلك بقرن مثلا، مما سيكون محل قراءة نقدية فى فصول تالية.

(البريد) فهناك فارق كبير بين خطابات القراء التى كانت تشكو من الوجد أو تمتلىء بالتعبيرات البلاغية فى مديح «ولى النعم» وبين البريد الحديث الذى يحفل بعالم متحرك له مشاكله وقضاياه مما ينم عن حجم التحول الذى حدث فى البنية الاجتماعية فضلا عن تغير القيم وتنوع المشاكل.

(الوفيات) ويكفى ان نشير فى هذا الصدد الى دراسة تم اعدادها منذ بضع سنوات عن «النخبة الحاكمة فى مصر بعد عام ١٩٥٢» وقد اعتمدت الى حد كبير على صفحة الوفيات فى الاهرام التى اخضعها الباحث للدراسة فخرج بنتائج مذهلة عن شبكة

القرابات التى تربط بين أبناء هذه النخبة!

★★★

هذا عن عبق التاريخ.. التاريخ الحقيقى وليس التاريخ المسطح! وان كان العبق وحده لا يكفي!

نأتى بعد ذلك للتسمية التى اخذناها عن العميد، وهى تسمية تحمل كما تتحمل مدلولات عديدة بعضها ثقافى وبعضها اجتماعى وبعضها سياسي..

المدلول الثقافى ان التسمية لا بد وان تكون قد ارتبطت فى ذهن الدكتور طه حسين «بديوان الانشاء»، وهو ديوان عرفته شتى الدول الاسلامية والذى كان يقوم رجاله باعداد الرسائل الرسمية التى كان يتبادلها الخلفاء والسلاطين مع سائر الملوك والأمراء، وكان يشترط فى المشتغلين فى هذا الديوان ان يكونوا على قدر رفيع من ثقافة العصر، حتى أن عددا من أشهر الأدباء العرب جاءوا من بين هؤلاء المشتغلين.

المدلول الاجتماعى جاء من أن الديوان هو المكان الذى تنتشر فيه الارائك التى يتجالس عليها الناس ليتباحثوا أحيانا وليتسامروا أحيانا اخري، وبين الحديث الجاد والمسامرات تأتى افكار وتذهب اخرى ويكتسب الديوان مكانته الاجتماعية الخاصة.

اما المدلول السياسى فقد صدر من أن الديوان كان دائما المركز الذى تدار منه شئون الناس، حتى انه فى مصر عندما نشأ النظام الادارى الحديث فى عهد محمد على خلال عشرينات القرن الماضي، فقد نشأ تحت مسمى الديوان الذى تحول فيما بعد الى النظارة فالوزارة التى بقيت لفترة غير قصيرة فى حى الدواوين!

ومن على اريكة فى الديوان نقدم تصورا لهذا العمل..

★★★

«العراقة» تمثل الملمح الأول «لديوان الحياة المعاصرة» فالأهرام من الصحف الفريدة فى العالم الثالث التى قارب عمرها القرن والربع، ومن الصحف القليلة فى العالم كله التى عاشت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين وتدخل غير هيابة للقرن الحادى والعشرين!

ولسنا ندرى هل المصادفة وحدها هى التى املت على أصحابها لدى استخراجهم لرخصتها عام ١٨٧٥ اختيار هذا الاسم لأعرق الآثار العالمية أم أن بعضا مما صنع اهرام الجيزة صنع فى النهاية الاهرام الديوان!

عموما فقد خصص «الاهرام الديوان» فى أعداده الأولى مجموعة من المقالات تتبع فيها تاريخ «الأهرام الأثر» مؤكدا ان اختيار الاسم كان مقصودا.

وعموما فان نشأة الاهرامين فى مصر كان لا بد وأن يضفى طابعا خاصا عليهما.. طابع الاستقرار والرسوخ، وهو من سمات الحياة المصرية.

ونسجل فى هذا الصدد حقيقة مؤداها أن التقلبات السياسية فى مصر أقل منها كثيرا فى بلدان العالم الثالث، بل فى بعض البلدان التى كانت محسوبة على العالم المتقدم، الأهم من ذلك أن تلك التقلبات لم تكن لتحدث تغيرات انقلابية على المؤسسات المصرية.

وفى مجال الصحافة على وجه التحديد بينما يلاحظ المراقبون ان التقلبات السياسية كانت كفيلة باختفاء صحف وظهور صحف اخرى فان ذلك قد حدث فى مصر على أضيق نطاق، وكان ذاك الاختفاء او هذا الظهور يرتبط فى العادة بظروف خاصة بالصحف نفسها وليس نتيجة لقرارات سياسية.

يؤكد هذه الملاحظة ان الاهرام قد عايش بامتداد عمره خديويين وسلاطين وملوكا ورؤساء جمهوريات، كما عرف عصورا تراوحت بين التبعية للدولة العثمانية والوقوع تحت الاحتلال البريطانى وسنوات الاستقلال الوطني، فضلا عن الثورات الثلاث الكبرى فى التاريخ المصرى الحديث، ١٨٨٢ و ١٩١٩ و١٩٥٢، وهى مجموعة تقلبات كانت كفيلة بالقضاء عليه، خاصة وانه كان دائما فى قلبها، بيد أن ذلك لم يحدث!

واذا كانت طبيعة مصر.. بلاد المؤسسات التى صمدت للتاريخ بدءا من الازهر ومرورا بالدواوين ووصولا الى الاهرام وراء عراقة «ديوان الحياة المعاصرة» فان ما استنه الاهرام يقدم تفسيرات اخرى لهذه العراقة..

نعتقد أن رحابة الديوان كانت من أهم أسباب العمر الطويل.. اذ يشير تقليب صفحات الجريدة بامتداد هذا العمر أنه لم يحدث ان سياسيا ذا قيمة او مفكرا ذا شأن لم يجد مكانا فى الديوان.

ولقد كانت لفتة ذكية من «مركز الاهرام للترجمة والنشر» عندما اصدر عام ١٩٨٦ سجلا لمئة وعشرة من الكتاب الذين وجدوا مجلسا فى الديوان بامتداد المئة وعشرة عاما التى كانت قد انصرمت وقتذاك من عمر الاهرام، وجاء هذا السجل تحت عنوان «شهود العصر».

ويلاحظ المتأمل فى أسماء هؤلاء الكتاب هذه التنويعة المدهشة من رجال السياسة والأدباء والمفكرين والمؤرخين والشعراء والقصاصين والفنانين وكبار رجال الدين والصحافة.. باختصار لم يكن الديوان حكرا على أصحابه من الصحفيين فقد توافرت فيه دائما الآرائك لكل ذى رأى او صاحب موقف.

وليس من شك فى ان «رحابة الديوان» كانت وستبقى من اهم اسباب طول عمر الاهرام، فهى باختصار شديد تعنى أن هناك دماء جديدة تصب فى عروق الصحيفة العتيدة الامر الذى لا يجعلها معرضة للتيبس أو التصلب مما كان سببا فى نهاية صحف عديدة اخري، ويصبح طول العمر فى هذه الحالة رصيدا مضافا لحساب الجريدة وليس مسحوبا منه!

ورحابة الديوان تؤكد حقيقة اخرى بالنسبة للاهرام ألا وهى اكتسابها للطابع المؤسسى لا الطابع الشخصي، فالمؤسسات تدوم طويلا والاشخاص يذهبون مهما طال بهم العمر!

ونظن أن الأستاذ محمد حسنين هيكل قد ادرك هذه الحقيقة عندما تولى المسئولية فى الاهرام وكان من بين أهدافه اعادة تنظيمه «على قاعدة مؤسسية قابلة للبقاء والتطور والتجديد» على حد كلماته فى كتابه الذى سجل فيه تجربته فى العمل فى الصحافة.

★★★

التقاليد تمثل الملمح الثالث من ملامح الاهرام ، وديوان بلا تقاليد يتحول الى أى شىء إلا أن يكون ديوانا!

ويمكن القول أن أية مؤسسة تحمل على كتفيها تاريخها ، ويقينا فان النشأة المبكرة للاهرام قد أرست مجموعة من التقاليد كانت من أسباب الطابع الخاص جدا الذى حظيت به الصحيفة العريقة..

هذا الطابع دفع البعض الى توصيف الاهرام بالجريدة المحافظة وهو أمر صحيح.. وان كانت المحافظة هنا لا يقصد بها الجمود بقدر ما يقصد بها الاصالة.

وتشبه الاهرام فى هذا الجامعة ، فكلماطال عمر هذه المؤسسة أرست مزيدا من التقاليد تضفى عليها الاصالة وهو الأمر الذى مهما بذلت المؤسسات المحدثة من جهود لارسائه فانه يبقى متطلبا لعنصر الزمن الذى لا تستطيع ان تصنعه، لكن تستطيع أن تنتظره!

فكمبردج وأكسفورد فى انجلترا والسوربون فى فرنسا لا تستطيع ان تعدلها جامعات اخرى فى غرب اوروبا، والفيجارو والتايمز لا تستطيع ان تباريهما ايضا صحف أخرى فى نفس هذا العالم.

واذا كانت الاصالة تنصرف فى جانب منها الى الشكل فهى تنصرف فى جانب آخر الى الموضوع..

فى الشكل يبقى الشكل الوقور الذى تحافظ عليه الاهرام فلا ألوان صارخة ولا نكات خارجة، فضلا عن ان أية تغييرات فى الشكل تحدث تدرجا ودون إشعار للقارىء انه قد صحا ذات صباح فوجَد بين يديه صحيفة غير تلك التى اعتادها !

فى الموضوع يبقى التدقيق معيارا اساسيا من معايير الجريدة العتيدة، وينسحب التدقيق على الخبر بنفس الدرجة التى ينسحب بها على الصياغة وعلى المقال وحتى على العناوين ، فالاثارة لم تكن ابدا بضاعة للاهرام!

وهذا الطابع المحافظ والذى قد لا يلقى هوى فى نفوس نوعية خاصة من القراء ، إلا أنه فى النهاية يلقى الاحترام من جميع القراء، وذلك بحكم ما يضفيه من قدر عال من المصداقية التى تظل أحد أهم أسباب المكانة المتميزة لديوان العالم الحديث.

بمعنى آخر ان مجموعة التقاليد التى أفرزها الأهرام فى عمره المديد بدلا من ان تحوله الى صحيفة«عتيقة» صنعت منه «صحيفة عريقة»،والفرق كبيرا

★★★

الملمح الرابع من ملامح الديوان وكان محل اختلاف بين الباحثين ذلك الموقف الذى آثر الأهرام الالتزام به اغلب سنى عمره، وهو موقف قائم على عدم التورط فى الصراعات السياسية الداخلية خاصة اذا ما كانت صراعات حزبية ، وهو موقف دعا البعض الى النظر الى الجريدة باعتبارها صحيفة لا لون لها أو على الأقل بلا موقف!

وباستثناء فترة قصيرة اعتبر الاهرام نفسه خلالها الناطق بلسان الوفد المصرى ابان احتدام احداث ثورة ١٩١٩، وهو موقف قومى اكثر منه موقف حزبى ، فان الاهرام قد حرص على ان يفسح فى ديوانه مكانا لكافة الفرقاء ، يدلى كل منهم برأيه فيه ، حتى لو كان هؤلاء الفرقاء ينتمون الى حزب واحد.

سجل هذه الحقيقة الدكتور محمد حسين هيكل فى مذكراته عن شهر ديسمبر عام ١٩٢٧، وكان الدكتور هيكل وقتئذ رئيس تحرير اشهر صحيفة حزبية فى مصر .. صحيفة «السياسة» الناطقة بلسان الاحرار الدستوريين.

يروى الرجل أنه قد حدث آنئذ أن كان يتنازع الحزب اتجاهان، اتجاه يرى فض الائتلاف الذى كان قائما مع الوفد وقد انضم اليه رئيس تحرير السياسة ، واتجاه آخر يسعى الى الابقاء عليه وكان يمثله وكيل الحزب محمد محمود باشا..

وعندما أراد الاخير أن يعبر عن ذلك فى جريدة الحزب رداً على مقال كتبه رئيس تحريرها تحت عنوان «نريد ائتلافا خالصا ، وأساس الائتلاف الخالص الصراحة»، ورفض الدكتور هيكل نشر مقال محمود باشا، فما كان من محمود الا ان ذهب بمقاله الى الاهرام الذى نشره له.

وعزوف الاهرام عن التورط فى الانحيازات الحزبية، سواء كان الحزب الذى تنحاز له فى الحكومة أو فى المعارضة ، وإن حدّ من الطابع المثير الذى تحظى به الصحف الحزبية والذى قد يروق لنوعية معينة من القراء ، إلا أن الاثارة عمرها قصير فى العادة، ثم انها تترك بصمات سلبية فى اغلب الاحوال على الصحيفة التى تنحو هذا النهج، بحكم ما يؤدى اليه من تقليل درجة المصداقية ، وهو الامر الذى استمر القائمون على «ديوان الحياة المعاصرة» حريصين عليه، اكثر من حرصهم على زيادة مؤقتة فى التوزيع تأتى على حساب هذه المصداقية.

واذا كان التوصيف «بالقومية» و«الحزبية» هو توصيف جديد ظهر فقط فى اواخر سبعينيات القرن العشرين، وبعد ظهور الصحف الحزبية الجديدة التى نشأت مع آخر التجارب الحزبية المصرية، وبعد قرن كامل من ظهور الاهرام ، فانه يمكن القول أن الاهرام كان صحيفة قومية قبل ذلك بكثير.

فى التجربة الحزبية الأولى السابقة على عام ١٩١٤ لم يحسب الاهرام على الحزب الوطنى أو على خصومه ، ثم فى التجربة الثانية الممتدة بين عامى ١٩١٩ و١٩٥٢ وباستثناء فترة قصيرة خلال الثورة فقد حافظ الاهرام على نفس النهج، ولم يحسب للوفد أو لخصومه ، واستمر الجميع يلجأون اليه فى الوقت المناسب كما فعل محمد محمود ، الامر الذى يضفى على الصحيفة العريقة الصبغة القومية منذ هذا الوقت المبكر!

★★★

يبقى من التسمية التى اختارها الدكتور طه حسين للاهرام توصيفه بأنه ديوان «الحياة المعاصرة».

واذا كان العميد قد عنى من التسمية ان الاهرام قد عبر دائما عن عصره فإننا نضيف الى هذا القول أن الاهرام قد عاش اكثر من عصر، بدءا من عصر الخديو اسماعيل وحتى عصر حسنى مبارك!

وقد ارتبطت مؤسسات كثيرة بالعصر الذى نشأت فيه واختفت مع أفول شمسه ، الأمر الذى انطبق اكثر ما انطبق على الصحافة.

عصر اسماعيل اشتهرت فيه «التجارة»و«الوطن»، الثورة العرابية ارتبط باسمها «المفيد»، فترة الاحتلال عرفت «المقطم»و«المؤيد» و«اللواء» و«الجريدة»، فترة ما بعد ثورة ١٩١٩ وحتى ثورة ١٩٥٢ عرفت «السياسة» و«البلاغ» و«الجهاد» و«كوكب الشرق»و«المصرى»، وهو ما لم يحدث بالنسبة للاهرام الذى بقى قائما رغم تعاقب العصور، الأمر الذى يتطلب تفسيرا..

واذا كان البعض قد عزا هذا لأسباب سياسية فيما تمثل فى نجاح الاهرام فى الإبحار وسط أمواج السياسة العاتية فان هذا التفسير وحده لا يكفى!

فالانتقال من عصر إلى عصر كما يتطلب مهارة الابحار يتطلب أيضا إدراك معطيات العصر الجديد والتلاؤم معها، وهو ما نجح فيه الاهرام.

وبأى المقاييس ولمن يتابع مسيرة «ديوان الحياة المعاصرة» يجد ان الاهرام جريدة لا تهرم ولسبب بسيط وهو ان القائمين عليها كانوا يأخذون أولا بأول بأسباب الحداثة..

ومنذ العدد الاول ، بل العدد السابق عليه والذى أصدره أصحابه تحت عنوان «مثال الاهرام» والذى صدر يوم ١٥ يوليو عام ١٨٧٦ قبل صدور عدده الاول بثلاثة اسابيع، فان الاهرام قد حرص على التأكيد على أخذه باسباب الحداثة التى تلائم مصر : «كيف لا ولمصر حقوق البلاد المتمدنة الغنية بالعلم وبالمال»، وهو فى هذا لم يجد ضيرا فى التشبه بالعالم المتقدم فيما عبر عنه فى أواخر العام الاول الذى صدر فيه وهو يحدد النهج الذى قرر ان يسير عليه بقوله:

«فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالكرام فلاح».

والحداثة هنا لم تقتصر على شكل الصحيفة او على تحريرها وانما امتدت الى أن اصبحت جسرا من جسور التحديث فى مصر ، وبل وفى المنطقة العربية..

علاقتها بالعالم المتقدم تبدت فى عنايتها الخاصة باخبار اوروبا ، وهى عناية لم تقتصر على افساحها مكانا ملحوظا «للتلغرافات» التى كانت تصلها من رويتر وهافاس (وكالة الانباء الفرنسية)، وانما امتدت الى تقديم اهم ما يصدر فى المجلات والصحف الغربية فضلا عن تناول اهم ما كانت تخرجه المطابع فى تلك البلاد.

وبين العراقة والحداثة تمتلىء مجالس «ديوان الحياة المعاصرة» بالصور التى تروى تاريخ مصر والعالم بشكل شديد الامتاع وجزيل الفائدة ، الامر الذى يستحق المتابعة!

● مراجع الفصل الاول

الاهـــرام:

● المثال ١٥ يوليو عام ١٨٧٦

● العدد الثانى ١٢ اغسطس ١٨٧٦

● مركز الاهرام للترجمة والنشر.

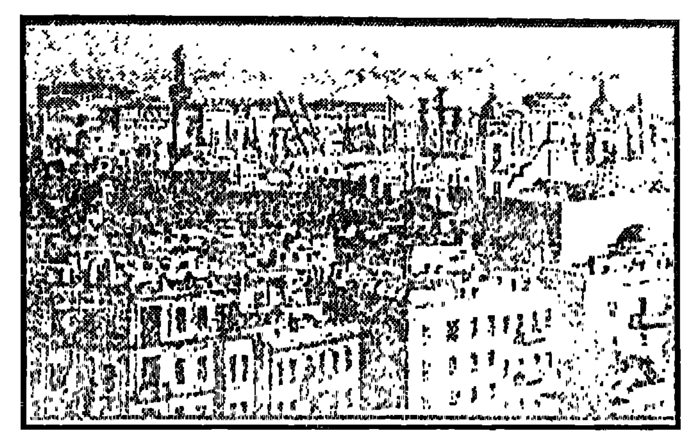
شهود العصر الاهرام ١١٠ مقالات و١١٠ اعوام، القاهرة ١٩٧٦

● محمد حسنين هيكل

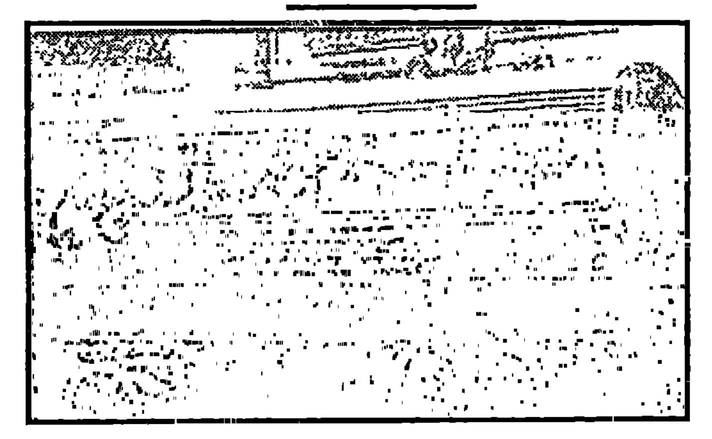
بين الصحافة والسياسة الطبعة السادسة بيروت ١٩٨٥

● د. محمد حسين هيكل

مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ ـ ١٩١٢ ـ ١٩٣٧، القاهرة ١٩٣٧



مدينة الاسكندرية



عربات سوارس



محمد محمود	طه حسين	هيكل باشا

الفصل الثانى

تاريخ الميلاد :
تحت الاحتلال



- ■ الصحافة تعيش بالأزمات وتقتات بالمتغيرات!
- ■ الاعيان والافندية قاعدة قراء الصحف فى مصر
- ■ الشوام انبثوا فى قرى ودساكر الريف المصرى
- ■ دور خريجي الحقوق ودار العلوم فى الصحافة المصرية

[٢]



من مواليد العام الثالث عشر من عهد الخديو اسماعيل، أى قبل نهاية هذا العهد بثلاث سنوات والذى انتهى بخلع الخديو الشهير في عام ١٨٧٩.

واذا كانت هذه النهاية المأساوية لحاكم من أبناء أسرة محمد على تنم عن شىء فانها تنم عن طبيعة الفوران السياسى والاجتماعى والفكرى الذى عرفه عصر اسماعيل، والذى قدم عصرا نموذجيا لظهور الصحافة التى تعيش بالأزمات وتقتات بالمتغيرات!

وبينما يعتبر محمد على - جد اسماعيل - مؤسس «الدولة» الحديثة فى مصر، فان اسماعيل هو صاحب الفضل فى الخطوة الثانية.. خطوة بناء «المجتمع» الحديث فى البلاد.

وبلغة أصحاب النظرية البنيوية فانه بينما تفرز عمليات التغيير الاجتماعى الاقتصادى (البنية التحتية)، نظام الدولة بكل مؤسساتها (البنية الفوقية)، فانه فى مصر قد حدث العكس، فقد قام محمد على بتشييد البنية الفوقية من خلال بناء الدولة المركزية، الأمر الذى جعل الدولة محور كل النشاطات بما فيها النشاط الثقافى، فيما تبدى من احتكارها للتعليم الحديث، وبما فيها النشاط الاعلامى حتى أن أول صحيفة ظهرت فى مصر وقتذاك كانت صحيفة حكومية هى «الوقائع المصرية» العتيدة التى كانت توزع على كل موظف فى الحكومة يتقاضى راتبا لايقل عن ألف قرش شهريا، بشرط أن يدفع الاشتراك!

ويأتى عصر اسماعيل لتتم خلاله ترجمة عملية التحديث التى جرت على مستوى «الدولة» الى عملية تحديث تجرى على مستوى «المجتمع»، وهى عملية لم تكن الدولة بأى حال بعيدة عنها ممثلة فى شخص الخديو نفسه، وإن كان ذلك لايعنى أنها من صناعته فهذه العملية لم يكن ليستطيع أن يوقفها حتى إذا شاء، الأمر الذى حاوله عباس الأول وفشل فيه تماما.. كل ما فى الأمر أنه عجل بها.

والتعجيل صنعته فى جانب فروق بين محمد على وحفيده، فالأول رغم عبقريته التى لا يختلف عليها إثنان، كان أميا حتى سن الأربعين مما أدى الى أن يقتصر جل اهتمامه بالغرب على الأخذ منه فى جوانب التنظيم العسكرى والتقدم العلمى، أما اسماعيل فقد تلقى هذا اللون من التعليم الراقى الذى يحظى به أمثاله من الأمراء، والذى أتاح له أن يقضى ثلاث سنوات منذ نعومة أظفاره فى بعثة فى فرنسا، الأمر الذى ترك بصمته على تفكيره وجعله شديد التأثر بالغرب، مما لايستغرب معه قولته التى نقلها عنه المؤرخون: «أريد أن أجعل بلادى قطعة من أوروبا».

التعجيل صنعه فى جانب آخر سعى أوروبا الى مصر، وهو سعى أضحى حميما بعد شق البرزخ وبناء القناة المشهورة.. قناة السويس، مما وضع مصر فى بؤرة الاهتمام الأوروبى، وفى حمأة العصر الذى عرف بالعصر الامبريالى.

وصنع التعجيل فى جانب ثالث البذور التى رماها محمد على فى التربة المصرية، وكان جيل أو يزيد قليلا كافيا لتطرح هذه البذور واقعا جديدا غير ذلك الذى خيم على مصر طيلة قرون الحكم العثمانى الثلاثة السابقة، بكل ما فى هذا الواقع من جوانب اجتماعية وثقافية وسياسية كانت لاتسمح فقط بظهور الصحافة الأهلية، التى كانت الاهرام أحد معالمها، بل تتطلبها!

★★★

على المستوى (الاجتماعى) فان التغييرات التى حدثت خلال عصر اسماعيل قد وفرت عنصرين أساسيين لوجود الصحافة. أولئك الذين يصدرونها وأولئك الذين يقرأونها!

أول هذه التغييرات بدت فى نشوء تلك الطبقة التى استمرت تلعب دورا اساسيا فى التاريخ المصرى ولنحو قرن، وحتى قيام ثورة ١٩٥٢ على وجه التحديد .. طبقة كبار الملاك بالتوصيف الاقتصادى، أو كما سميت بالأعيان تبعا للتوصيف الاجتماعى. وهم أنفسهم الباشوات والبكوات، أو غالبيتهم، اذا ما تم الأخذ بالألقاب السائدة!

ففى عصر اسماعيل استكملت هذه الطبقة مقوماتها بعد أن تحولت ملكية الانتفاع التى حصل عليها أبناؤها فى عصر محمد على إلى ملكية كاملة، أو على حد التعبير الاقتصادى ملكية عين، ومن هنا جاء توصيفهم بالأعيان!

ومع التسليم بأن أغلب أبناء هذه الطبقة في بداية تكونها انحدرت من أصول غير مصرية إلا أن المصريين ما لبثوا أن دخلوها وأخذت المساحة التى يحتلونها تتسع مع الأيام.. سواء أولئك الذين اقتنوا ملكياتهم من خلال الوظائف الرفيعة التى تولوها، ويقدم على مبارك ومحمد سلطان وأحمد عرابى نموذجا لهذه الشريحة ، أو أولئك الذين صنعوا ملكياتهم من خلال وجودهم فى الريف من شيوخ العائلات الكبيرة الذين بنوا ملكياتهم باستثمار «مسموح المصاطب» وهو ما كان يعادل ٥٪ من زمام كل قرية والتى حصلوا عليها نظير قيامهم بأعباء الادارة واستضافتهم لعمال الحكومة وعابرى السبيل!

ولما كان كبار ومتوسطو الملاك الذين اقتنوا ملكياتهم من وظائفهم من قراء «الوقائع المصرية» بالضرورة فانه قد تربت عند هؤلاء عادة قراءة الصحف ، أما الآخرون من أبناء نفس الطبقة المنحدرون من الريف فهم وان لم ينخرطوا فى هؤلاء فان أبناءهم الذين أرسلوهم للمدارس الحديثة أو حتى للتعليم خارج مصر كان لابد أن يأتوا معهم بهذه العادة.. عادة قراءة الصحف.

على نفس المستوى ظهر «الأفندية» وهى فئة اجتماعية بدأت محدودة فى عصر محمد على الا انها أخذت فى التكاثر على عصر اسماعيل ويقول مؤرخ التعليم لهذا العصر أن المجتمع المصرى «أخذ يتحول بالتدريج الى طبقتين متمايزتين طبقة الافندية

وطبقة الفلاحين، وقد عاون على تجسيم هذه الأدوار أن أفراد الطبقة المتعلمة لم يعودوا إلى بيئاتهم التى نشأوا بها ليرفعوا مستواها بل تحولوا إلى بيئات أخرى».

ومع مرور الوقت كانت تتسع قاعدة أبناء هذه الفئة ففضلا عن العاملين فى سلك العسكرية كان هناك الموظفون المدنيون والمعلمون وأصحاب المهن الحرة وما لبث أن انخرط بعض من هؤلاء في العمل بالصحافة وشكلوا شريحة هامة من شرائح هذه الفئة، وكان أحد هؤلاء أول من أصدر صحيفة أهلية فى مصر هى صحيفة وادى النيل التى أصدرها عبدالله أبو السعود افندى عام ١٨٦٧.

على المستوى الاجتماعى أخيرا فان عصر اسماعيل قد عرف هجرة عريضة من الشام الى مصر كان باعثها فى جانب منها حوادث الستين فى جبل لبنان وسعى أبناء الجبل لتلمس أسباب الأمان التى وجدوها فى أرض الكنانة، ثم أنها قد تشجعت فى جانب آخر بالحاجة لعناصر تجيد العربية جنبا الى جنب مع اللغات الأجنبية ، خاصة الانجليزية والفرنسية، بعد أن تزايدت العناصر الأجنبية فى الادارات الحكومية، فضلا عن كل ذلك فان دخول مصر السوق الرأسمالية العالمية أتاح فرصا عديدة للعمل لهؤلاء الذين كان لديهم من الخبرة المالية ما لم يكن يتوفر للمصريين آنذاك.

وقد تفرد الشوام واليونانيون بميزة لم تتوفر للآخرين من غير المصريين، وهى قدرتهم على الانبثاث فى كل أنحاء مصر حتى أصغر القرى والدساكر.

واذا كان مؤسسا الأهرام، سليم وبشارة تقلا ، قد جاءا من أبناء هذه الفئة الاجتماعية فان كافة وكلائها فى مصر قد جاءوا منها أيضا، الخواجا موسى بطاينى وكيل الأهرام فى الاسماعيلية، والخواجا حبيب بولاد فى المحلة الكبرى، الخواجا جبرائيل لباد فى المنصورة، الخواجا دهان دهان فى طنطا، الخواجا اسكندر غريب فى كفر الزيات، الخواجا جرجس روم فى سمنود. الخواجا مترى موسى فى رشيد ، الخواجا جبرائيل رطل فى زفتى وميت غمر، والخواجات ميخائيل وطنوس خورى فى بورسعيد!

★★★

يلى ذلك فى الاهمية المتغيرات (الثقافية) التى أفرزت الظاهرة والتى تعددت جوانبها بدءا بالتعليم الحديث، ومرورا بحركة الترجمة وانشاء مؤسسات ثقافية لم يكن لمصر عهد سابق بها، ووصولا إلى انتشارالطباعة، والتى تشكل فى مجموعها الركائز التى قامت عليها الصحافة فى مصر وفى مقدمتها «الأهرام».

ففضلا عن المدارس العليا القديمة التى كان قد أقامها محمد على وأعاد فتحها بعد أن كان عباس قد أغلقها، فقد تم فى عصر اسماعيل إنشاء مدرستى الحقوق ودار العلوم وكان لهاتين المدرستين دور هام فى خلق مناخ ثقافى يفرز الصحف ويروجها.

مدرسة الحقوق نشأت عام ١٨٦٨ تحت اسم مدرسة الادارة والألسن ، وقبل أن ينتهى القرن كان غالبية العاملين فى السياسة والصحافة من خريجى هذه المدرسة بحكم ما

يقومون بدراسته من مواد «البوليتيقا»!

مدرسة دار العلوم التى أسست عام ١٨٧٢ والتى تخلت عن تقليدية الازهر وفتحت المجال واسعا لتحديث اللغة والآداب العربية، ووفرت بذلك الكوادر من الكتاب والمصححين الذين تحتاجهم أية صحيفة.

بدت الركيزة الثانية فى حركة الترجمة، وهى الحركة التى نشأت مع عملية بناء الدولة الحديثة، وان كانت قد اقتصرت فى البداية على الجوانب التعليمية وبشكل فردى، إلا أنها منذ عام ١٨٣٤ بدأت تتخذ شكلا مؤسسيا بعد افتتاح مدرسة الألسن التى لم يقتصر دورها على اعمال الترجمة، وانما الاهم من ذلك تخريج المترجمين.

وقد تحدث أحد المعاصرين عن أثر المدرسة فقال ان خريجيها «بأنفسهم وبالكتب العلمية التى ترجموها ساعدوا على نشر أفكار الرقى والمدنية بين أهل البلاد، وانتفعت بهم الحكومة فى المناصب الادارية العالية، وفى وظائف الترجمة، ومنهم من انقطعوا للتعليم، وبفضل مجهودهم تعلم آلاف من اهل البلاد الفرنسية أو الانجليزية أو الايطالية».

ويقينا فان هؤلاء مع الشوام شكلوا القاعدة العريضة للعمل فى نقل الثقافة الحديثة ليس من خلال ترجمة الأعمال العلمية فحسب وانما من خلال الاشتغال بترجمة المواد الصحفية، الامر الذى يمكن رصده بسهولة من تقليب صفحات الاعداد الأولى من صحف العصر، خاصة الأهرام.

يثبت هذا التقليب أن جانبا كبيرا من تلك الاعداد قد قام على الاعمال المترجمة إما على شكل «الاخبار البرقية الواردة الى الاسكندرية» وإما على شكل ترجمات من الصحف الانجليزية والفرنسية والايطالية والالمانية والروسية تحت عنوان «حوادث مختلفة»، وإما على شكل ترجمات لأمهات الكتب التى كانت تنشر على حلقات.

وكما اتخذت الترجمة طابعا مؤسسيا فقد اتخذ النشاط الثقافى نفس الطابع وعرف عصر اسماعيل نشأة عدد من المؤسسات الثقافية حين أقام على مبارك أول دار كتب عامة فى مصر المعروفة بالكتبخانة الخديوية بالاضافة الى عديد من الجمعيات العلمية كان أهمها جمعية المعارف (١٨٦٨) والجمعية الجغرافية الخديوية (١٨٧٥) والجمعية الخيرية الاسلامية (١٨٧٨) فضلا عن ظاهرة الصالونات الثقافية التى تبناها عدد من رجال الاسرة الحاكمة أو من ابناء طبقة الأعيان الصاعدة، والتى صنعت فى مجموعها مناخا ثقافيا كان يمكن أن تظهر فى اطاره الصحف وتعيش!

تبقى قضية الطباعة والتى عرفتها مصر أول ما عرفتها على أيدى الحملة الفرنسية التى احضرت معها مطبعتين، إلا أنها قد اخذتهما معها لدى رحيلها من البلاد عام ١٨٠١.

وفى عملية بناء الدولة الحديثة التى قام بها محمد على ادرك الرجل ما للطباعة من

أهمية فى هذا البناء الامر الذى دفعه الى انشاء مطبعة بولاق المشهورة التى عرفت بالمطبعة الاميرية، واهم من ذلك الاهتمام الذى أولاه لتوفير الكوادر الفنية لهذه المطبعة حتى ان اول بعثة تعليمية الى الخارج كانت البعثة التى ارسلها الى ايطاليا خلال العقد الثانى من القرن لتعلم فنون الطباعة والتى كان على رأسها «نقولا مسابكى» أبو الطباعين فى مصر.

الا أن أهم المتغيرات التى حدثت فى عصر اسماعيل تلك النقلة التى عرفتها الطباعة من شأن تعنى به الحكومة وحدها الى عمل يقوم به الاهالى سواء بصفتهم الشخصية أو كمؤسسات ثقافية. فقد عرف هذا العصر المطبعة التى اقامتها جمعية المعارف والمطبعة الاهلية القبطية والمطبعة الوهبية والمطبعة الوطنية بالاسكندرية، فضلا عن مطابع الصحف، وفى هذا السياق لم يكن هناك ثمة مشكلة فى أن يقيم آل تقلا المطبعة. مطبعة الاهرام!

ولا بأس من الاشارة هنا الى مصنع الورق الذى اقامه حسين حسنى باشا ناظر مطبعة بولاق ملحقا بها، والذى انتج من الورق ما كاد يعطل ما يرد من أوروبا على حد تعبير الاستاذ عبدالرحمن الرافعى.



تبقى المتغيرات (السياسية) حين صنعت سياسات اسماعيل التحديثية عالما غير ذلك العالم الذى استمر سائدا طوال العهد العثمانى ولم يغيره حتى بناء الدولة الحديثة الذى قام به محمد على وان كان قد مهد له.

جانب من هذا العالم بدا فى تصاعد التدخل الأجنبى فى الشئون المصرية، وهو تصاعد تبدى أولا فى الهجمة البشرية الاوروبية على مصر والتى تواكبت مع زيادة الدور المصرى فى السوق الرأسمالية العالمية مما نتج عن تزايد الطلب على القطن المصرى خلال النصف الاول من الستينات نتيجة للحرب الاهلية الامريكية وتوقف الولايات المتحدة عن القيام بدورها فى هذه السوق.

وتبدى هذا التصاعد ثانيا فيما ترتب على سعى اسماعيل الحثيث فى توسيع قاعدة الاستقلال المصرى عن الدولة العثمانية، وهو فى هذا السعى قد استعان ببعض القوى الاوروبية مما أدى الى اتساع هامش تدخل هذه القوى فى الشئون المصرية.

وتبدى هذا التصاعد ثالثا فيما نتج عن بناء قناة السويس الامر الذى أدى الى احتدام الصراع الاوروبى حول مصر.

وتبدى هذا التصاعد رابعا فى نظام الامتيازات الذى كفل حماية الاوربيين الذين وفدوا الى مصر، وقبل ذلك حماية مصالحهم، وفى اوقات كثيرة مطامعهم! وهو النظام الذى تم تقنينه بعد انشاء المحاكم المختلطة عام ١٨٧٦ نفس عام صدور الاهرام!

اخيرا فان هذا التصاعد قد بلغ ذروته نتيجة لقروض اسماعيل من المؤسسات المالية

الاوروبية،وما ترتب على عجزه عن تسديد هذه القروض من فرض الوصاية على الادارة المصرية. الى تشكيل اول هيئة للوزارة فى مصر شارك فيها وزيران انجليزى وفرنسى.

ولم يكن بالامكان ان يحدث كل هذا دون رد فعل من جانب جموع المصريين، ومن ثم فان نفس هذا العقد المثير، عقد السبعينات من القرن التاسع عشر قد شهد مولد الحركة الوطنية المصرية بمفاهيمها الحديثة وبأدواتها المختلفة.

مفهوم رفض التدخل الاوربى عرفته الحركة الوطنية المصرية فى أواخر القرن الثامن عشر لدى قدوم الفرنسيين الى مصر ولكنه جاء تماما من منطلق دينى، وقد اختلف الامر هذه المرة حين بدأ يسود هذا المفهوم الرؤية الوطنية.

ثم ان هذا الرفض الذى عرفته آواخر القرن الثامن عشر تسلح بأدوات العصر. هبات الحارات، أو ثورات الاحياء لأنه لم يكن قد وجد حتى هذا الوقت ولو الحد الأدنى مما يسمى بالرأى العام، وهو ما قد اخذ فى النمو نتيجة للتطورات الاجتماعية والثقافية التى كانت قد شهدتها مصر إبان العقود السبعة السابقة على ظهور الاهرام، والذى عبر عنه ثم ساعد على تطوره ظهور الصحافة.

واذا كان هذا التدخل وراء إنشاء أول هيئة وزارة فى التاريخ المصرى الحديث فانه لم يكن بعيدا عن انشاء اول هيئة نيابية فى هذا التاريخ ممثلة فى مجلس شورى النواب الذى تأسس عام ١٨٦٦.

ورغم أن هذا المجلس عندما تم إنشاؤه بدا وكأنه مجرد تقليد ـ ليس له ما يبرره للأنظمة البرلمانية الأوروبية الا انه مع مرور الوقت تحول لأداة مهمة من ادوات الحركة الوطنية، الأمر الذى بدا فى دورته غير العادية التى عقدها فى طنطا فى اغسطس عام ١٨٧٦، نفس شهر صدور الاهرام، حيث رفض قرار الحكومة بالغاء قانون المقابلة وهو الإلغاء الذى كان يُغَلبْ مصالح الدائنين الاجانب على حساب الاعيان المصريين الذين كانوا يشكلون غالبية اعضاء المجلس.

عام ١٨٧٦ عرف ايضا تحول نشاط جمال الدين الافغانى الذى كان قد جاء الى مصر منذ مطلع السبعينات من النشاطات العلمية الادبية الى النشاط السياسى خاصة مع قيام الحرب الروسية ـ التركية فى نفس العام وما خلفته الهزيمة العثمانية فى تلك الحرب من ردود فعل قوية على الرأى العام المصري.

وقد بدا انعكاس تتابع الاحداث السياسية على هذا النحو غير المسبوق على الصحافة الاهلية فى مصر.

فالمعلوم ان الصحيفة الاهلية الاولى، وهى صحيفة وادى النيل، التى اصدرها عبدالله ابو السعود افندى برعاية اسماعيل نفسه عام ١٨٦٧، قد صدرت لمتابعة جلسات مجلس شورى النواب لما ارتآه الخديو من انه لا ينبغى ان تكون الصحافة -«الرسمية» هى المعبرة عن هذا المجلس «الشعبى».

والمعلوم أيضا بالنسبة لجريدة «مصر» التى صدرت عام ١٨٧٧ أن الافغانى نفسه هو الذى سعى للحصول على إمتياز صدورها باسم أديب اسحق لتكون ناطقة بلسان الحركة الوطنية الناهضة التى تجسدت فى مجموع التلاميذ الملتفين حول الرجل.. جمال الدين الأفغانى.

وفى تلك الظروف صدرت الاهرام، ورغم ان سليم تقلا عندما تقدم بـ «العرضحال» الذى طلب فيه ترخيص الصدور قال ان الغرض منها نشر «التلغرافات والمواد التجارية والعلمية والزراعية والمحلية. وكذا من المقاصد طبع بعض كتب كمقامات الحريرى وبعض ما يتعلق بالصرف والنحو واللغة والطب والرياضيات والاشيا التاريخية والحكم والنوادر والأشعار والقصص الادبية وما شاكل ذلك من الاشيا الجايز طبعها بدون أن أتعرض للدخول مطلقا فى الامور البوليتيقية»، فانه أمام مثل هذه المتغيرات المتلاحقة لم يكن بالامكان أن يوفى بهذا الوعد.. وعد عدم الدخول فى «الأمور البوليتيقية»، وهو الأمر الذى لم يتأخر كثيرا.

● مراجع الفصل الثانى

● د. احمد عزت عبدالكريم

تاريخ التعليم فى مصر فى عصر محمد على

تاريخ التعليم فى مصر فى عصر اسماعيل وتوفيق والسنوات المتصلة بها ، القاهرة ١٩٤٨

● د. ابراهيم عبده،

تاريخ الوقائع المصرية ١٨٢٨ ـ ١٩٤٢

جريدة الاهرام ـ تاريخ مصر فى خمس وسبعين سنة القاهرة ١٩٥١

● د. رءوف عباس حامد،

الملكيات الزراعية المصرية ودورها فى المجتمع المصرى ١٨٣٧ ـ ١٩١٤، القاهرة ١٩٨٣

● عبدالرحمن الرافعى،

عصر اسماعيل (جزء ثان) القاهرة ١٩٤٨

● د. عبدالله عزباوى،

الشوام فى مصر فى القرن الثامن و التاسع عشر القاهرة ١٩٨٦

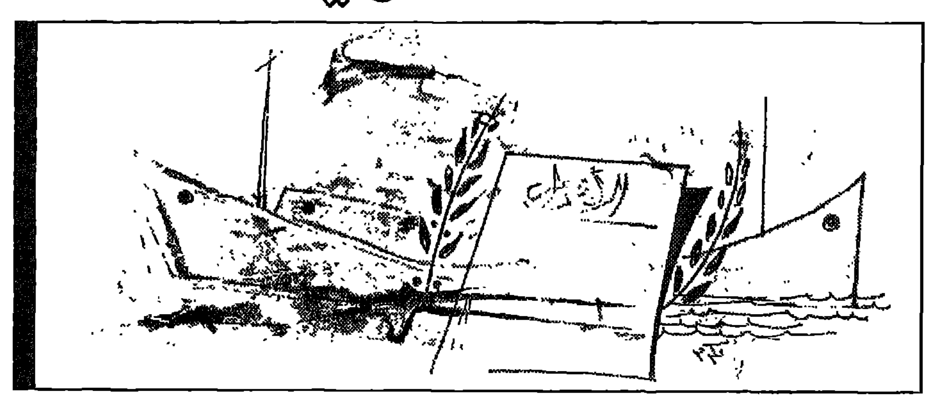
● د. يونان لبيب رزق

تاريخ الوزارات المصرية ١٩٧٨ ـ ١٩٥٣، القاهرة ١٩٧٥

قصة البرلمان المصرى، القاهر ة ١٩٩١

الفصل الثالث

قصة الميلاد في الاسكندرية



■ ■ الأهـــرام ولد فى شارع البورصة يوم السبت ٥ أغسطس ١٨٧٦م

وفى حى القناصل بالاسكندرية

■ ■ وجود مايقرب من خمسة آلاف شخص من أبناء الشام

فى الأسكندرية أعطى الأطمئنان لأصحاب الاهرام

■ ■ الاسكندرية عرفت الصحافة الأجنبية فى عصر سعيد باشا وظهرت

صحف «الاندبندان» و «الجازيت دى تريبينو» وانتشار المطابع

المتخصصة فى طبع الصحف

[٢]



في شارع البورصة المتفرع من ميدان القناصل الذى عرف فيما بعد باسم ميدان المنشية بالأسكندرية، وفى مبنى أمام بنك الرهونات ولد الأهرام يوم السبت ٥ أغسطس عام ١٨٧٦.

واذا كانت الاسكندرية المدينة الأكثر فرنجة بين المدن المصرية وقتذاك فإن «ميدان القناصل» كان مركز التجمع الأوربى فى المدينة، فبدءا من عصر محمد على وخلال عشرينات القرن الماضى بدأ الأجانب يقيمون حول هذا الميدان فنادقهم ومقاهيهم ومحلات طعامهم وشرابهم فضلا عن غالبية قنصلياتهم.

ومعلوم أن التمثيل الأجنبى فى مصر بدءا من ذلك العصر وحتى عصر اسماعيل قد أقيم فى الأساس فى الأسكندرية حتى أن وزارة الخارجية المصرية أول مانشأت تحت اسم «ديوان التجارة والأمور الأفرنكية» قد اتخذت من الاسكندرية مقرا لها.

رغم ذلك فقد استمر «ميدان القناصل» حتى عصر اسماعيل يقدم نموذجا بدائيا للميادين الأوروبية، فقد وصفه أحد الرحالة فى عصر سعيد بقوله «وحتى ميدان القناصل بنافوراته المائية وأنواره الغازية وأرصفته ومبانيه الأوروبية الطراز وواجهات متاجره الأوروبية المظهر كان مثيرا للانقباض بتقليده الرخيص لبعض ميادين باريس أو روما».

غير أن هذا الشكل قد تغير كثيرا خلال السبعينات.. عقد مولد الأهرام، فقد وصفه الرحالة الفرنسى «دى فوجانى» الذى زار الأسكندرية خلال هذا العقد وأصدر كتابا عنها جاء فيه عن الميدان قوله أنه قد «صار مركز التجارة الأوروبية بالأسكندرية، وهناك أقاموا تمثالا بديعا من البرونز لمحمد على باشا عام ١٨٧٣ صنعه المثال الفرنسى «جكمون» حيث نصب على قاعدة من الرخام الإيطالى فى وسط الميدان، وصار الميدان محاطا بالنصب التذكارية الجميلة والفنادق الفخمة والمتاجر الغنية التى ارتفع مستوى عرضها الفنى والنافورات وغير ذلك من الوسائل الترفيهية التى جلبها الأجانب معهم».

واذا كان عنصر المصادفة يلعب دورا فى تحديد محال الميلاد للأشخاص فان الأمر يختلف بالنسبة لمحال ميلاد المؤسسات، فلابد أن تتوافر ظروف موضوعية تحدد فى النهاية تلك المحال.

وبالنسبة «للأهرام» فقد تضافرت ظروف عديدة لتحديد المحل.. ميدان القناصل بالأسكندرية..

ربما يكون أول هذه الظروف وأهمها ماكان يتمتع به الميناء الشهير كمركز متقدم للاتصالات بمقاييس العصر، الأمر الذى عبرت عنه الصحيفة الوليدة فى رأس أعدادها الأولى.

جاء فى هذا الرأس أن «الأهرام» تقبل الاشتراكات فى «مصر وسائر الأرياف

الخديوية»، أى فى القاهرة وسائر الأقاليم المصرية، وفى «الأستانة العلية» وفى «سوريا وسائر الممالك المحروسة» أى سائر أنحاء الامبراطورية العثمانية، وفى «أوروبا والجزائر وتونس»، وفى «بمباى وكلكتا».

ومع ملاحظة أن الصحف كانت تعتمد وقتذاك على الاشتراكات فإن معنى ذلك أن الوصول الى تلك البقاع كان متيسرا، وعلى وجه الخصوص من الأسكندرية.

على مستوى «مصر والأرياف الخديوية» فمعلوم أن أول خط حديدى نشأ فى القطر المصرى هو الخط الذى بدأ بناؤه فى عصر عباس الأول والذى ربط بين الأسكندرية والقاهرة ثم ما لبث أن امتد إلى السويس ثم الى سائر أنحاء الدلتا والصعيد فى عصر اسماعيل حيث بلغت أطوال الخطوط الحديدية التى تم انشاؤها حتى منتصف السبعينات، وقت صدور الأهرام، ١٠٨٥ ميلا ربطت الأسكندرية بسائر انحاء مصر.

أما بالنسبة للإتصال مع خارج مصر فهناك التحول الكبير الذى بدأ منذ الستينات وأعاد للأسكندرية مكانها المتقدم فى الموانى المصرية المطلة على «بحر برة»، كما كان يسمى المصريون وقتذاك البحر المتوسط، على اعتبار أنه البحر الذى كان يربط مصر «ببلاد برة»، وهو الاسم الذى كان يطلقه آنئذ المصريون على بلاد أوروبا.

وفى عام ١٨٧٦، عام صدور «الأهرام»، بلغ عدد السفن التى دخلت ميناء الأسكندرية ٧٥٠٥ سفينة، مما يدل على مدى اتساع حركة النقل البحرى التى ربطت الميناء العتيد بسائر الموانى شرقا وغربا.

وقد ارتبطت الاسكندرية بـ «بلاد برة» من خلال البرق والبريد على نحو لم يتوافر لأى مدينة فى مصر بما فيها القاهرة نفسها..

ففى عهد سعيد، وفى عام ١٨٥٦ على وجه التحديد، رخص للمستر جيسبورن بانشاء خطوط تلغرافية تربط الخط التلغرافى البحرى الواصل بين الأسكندرية والدردنيل بالخط الواصل بين السويس وعدن.

وفى عام ١٨٧٠ أنشأت «شركة التلغرافات الشرقية» خطا تلغرافيا بحريا من الأسكندرية الى مالطة وصقلية واوروبا، ثم خطا آخر من الأسكندرية الى السويس فعدن والهند، ويتصل بخط الشرق الأقصى واستراليا.

أما «البريد» فقد كان للأسكندرية تاريخ طويل معه..

أول ادارة بريد خاصة فى مصر أنشأها ايطالى يدعى «كارلو ميراتى» فى الأسكندرية لتصدير واستقبال الخطابات المتبادلة مع البلدان الأجنبية، فكان يتسلم الرسائل من الجمهور ويحملها الى البواخر القادمة من حيث يتسلم الخطابات الواردة ويوزعها على أصحابها.

استمر هذا المكتب يعمل فى عصر عباس وسعيد وتسمى «بالبوستة الأوربية»

واتسع نطاق أعماله بعد مد الخطوط الحديدية من الاسكندرية الى سائر أنحاء القطر حتى عام ١٨٦٥، بعد تولى اسماعيل بعامين فحسب، حين اشترته الحكومة المصرية وصار مصلحة اميرية يلاحظ أنها قد بقيت تتخذ من الاسكندرية مقرا رئيسيا لها.

ويلاحظ فى هذا الصدد أنه قد قام الى جانب مصلحة البوستة الأميرية عديد من مكاتب البوستة الأوروبية، وفى الأسكندرية أيضا!، مكتب البوستة الفرنسية، ومكتب البوستة الانجليزية، واللذان مع اتخاذهما للأسكندرية مركزا لهما فقد كانت لهما مكاتب أخرى فى مدن مصرية، خاصة الموانى، ومكاتب البوستة النمساوية واليونانية والإيطالية والروسية، والتى اقتصر وجودها على الاسكندرية.

وفى تقديرنا أن اختيار الاسكندرية «كمحل ميلاد» للأهرام إنما ينم عن نية مبكرة من جانب أصحابه على ألا تكون جريدتهم ذات طابع محلي مثل سائر الصحف التى كانت تصدر فى العاصمة وقتذاك، والتى كانت تعنى بالأساس بالأوضاع المصرية، وتخاطب قبل أى قارئ آخر القارئ المصرى!

ويأتى هذا التقدير من أنه منذ العدد الأول من الأهرام وقد تكشفت نية القائمين عليه على ألا يقتصر التوزيع على الأراضى المصرية وإنما الاتجاه شرقا وغربا إلى أقصى المعمورة التى يمكن أن تصل اليها وقتذاك.

شرقا الى بمباى وكلكتا حيث تواجد مجموعات قوية من المثقفين الذين يقرأون العربية ويهتمون بكل ما يصدر مكتوبا بها، وغربا إلى أوروبا ثم الأهم من ذلك إلى المغرب العربى، الجزائر وتونس الذى استمر رغم كل المحاولات ييمم وجهه شطر الشرق.

★★★

كانت الاسكندرية خلال عقد السبعينات من القرن الماضى، عقد مولد الأهرام، مركز التجمع الرئيسى للأوروبيين فى مصر الذين زاد عددهم زيادة ملحوظة فى البلاد خلال عصر إسماعيل.

ويشير الاحصاء الدقيق الذى نشرته الوقائع المصرية عام ١٨٧٣، أى قبل مولد الأهرام بثلاثة أعوام، أن عدد الأوروبيين فى القطر المصرى بلغ ٧٩,١٩٦ كان منهم فى القاهرة ١٨,٧٢٠ بينما كان منهم فى الأسكندرية ٤٧,٢١٦ أى بنسبة تصل إلى نحو ٦٠٪.

وقد أفاض الكتاب فى وصف سكان الاسكندرية فى تلك الفترة حيث ذلك الخليط من السكان الذى تتنوع فيه الجنسيات والألسن وتختلط العادات والتقاليد الأوروبية والشرقية، حتى أن البعض قد قال وقتذاك «يبدو أن كل أمة تحت الشمس قد أرسلت من يمثلها الى الاسكندرية»!!

وقد انعكس هذا الطابع على اختيار الأسكندرية محلا لميلاد الأهرام فى ثلاثة أمور على الأقل:

الامر الاول: ان هذا المجتمع قد تمتع خلال تلك الفترة بما عرف بنظام الامتيازات، وهو نظام ذو تاريخ طويل يهمنا منه هنا مااتصل بالصحافة، فقد استخدم الصحفيون هذا النظام للتمتع بقدر من الحماية من محاولات البطش من جانب الحكومة المصرية، وعلى وجه الخصوص من جانب الخديو اسماعيل الذى لم يكن يطيق الهجوم عليه، خاصة بعد أن أدت تصرفاته المالية وديونه المتعاظمة الى توافر أسباب هذا الهجوم.

وقد أدى ذلك الى أنه لدى تأسيس النظام الوزارى فى مصر في اغسطس عام ١٨٧٨، اى بعد صدور الأهرام بعامين بالضبط، تقرر أن يكون من أهم اختصاصات وزارة الخارجية المصرية، وليس وزارة الداخلية، التعامل مع «المطابع والمطبوعات الأورباوية والمحلية». وايكال هذه المهمة للخارجية ناشىء عما تتطلبه من اتصال بقناصل الدول صاحبة الامتيازات.

الأمر الثاني: ان الاسكندرية قد عرفت الصحافة الأجنبية منذ عصر سعيد، وهى الصحافة التى تعاظم شأنها فى عصر خلفه «الخديو اسماعيل» وقد تعددت الصحف التى كان لها تاريخها مع اسماعيل،« ليجيبت، الاندبندان، والجازيت دى تريبينو» فضلا عن صحف عديدة أخرى.

وكان أهم ماترتب على ذلك أن توفر فى الاسكندرية المطابع المتمرسة على طبع الصحف اكثر من تلك الموجودة فى القاهرة، وليس من شك أن مثل هذا السبب الفنى كان يشكل عنصر اغراء، قويا لاختيار محل ميلاد الأهرام.

ويشى الأهرام منذ عدده الأول بحقيقة هامة فى هذا الشأن فقد جاء فى الصفحة الرابعة من هذا العدد مانصه:

«نعلن للجمهور بأن المطبعة التى تطبع الأهرام مستعدة لطبع ما يرد اليها من كتب علمية وادبية وقصص ونوادر وخلافها. وكذلك تطبع بالحرف العربى والافرنجى جميع أوراق الأفراح وضدها نظما أو نثرا من تأليف مدير الجريدة، ثم مجمل مايختص بأوراق التجارة مع اختلاف أنواعها..».

تقول هذه الحقيقة ان الاهرام قد امتلك مطبعة قادرة حتى قبل صدوره، وهو أمر لم يكن ليتوفر الا فى القاهرة والاسكندرية.

الأمر الثالث: ان نسبة كبيرة من الشوام الذين قصدوا الى مصر خلال الستينات قد استقرت فى الاسكندرية، ويشير احصاء عن سكان المدينة فى اوائل عصر اسماعيل إلى انه قد استقر فيها نحو ٤٨٠٠ من أبناء الشام الذين أتى منهم صاحبا الأهرام سليم وبشارة تقلا، ويلفت النظر فى هذا الصدد ان عديدا من هؤلاء كانوا يشتغلون بالطباعة أو الصحافة.

ومن احصاء تم وضعه عن الصحف التي اصدرها الشوام في الفترة بين عام ١٨٧٣ وحتى عام ١٨٨٠ بلغت ست صحف، أربع منها ، هي الكوكب الشرقي والأهرام والتجارة والمحروسة صدرت في الاسكندرية، بينما صدرت الأخريان ـ وهما مصر ومرآة الشرق ـ في القاهرة.

والمعلوم أن الصحيفة العربية التي سبقت الأهرام في الاسكندرية وهي صحيفة الكوكب الشرقي كان يصدرها سليم حموي، الأمر الذي يمكن القول معه انها كانت بمثابة الخطوة الأولى التي مهدت الطريق لاصدار الأهرام بعد ذلك بثلاث سنوات فحسب.

★★★

يبقى بعد ذلك النظر الى «البيئة» السكندرية التي عاونت على ان تكون محلا لميلاد الأهرام، فالصحف لاتصدر في اى مكان..

تتطلب هذه البيئة في جانب منها حدا أدنى من المجتمع الحضرى، كما تتطلب في نفس الوقت حدا أدنى من التجمعات الثقافية..

بالنسبة للمجتمع الحضرى شهدت الاسكندرية خلال السبعينات تسارع الخطى لصناعة هذا المجتمع..

وكانت بداية الخطى المتسارعة ماأقدم عليه اسماعيل من اقامة عدد من القصور كان على رأسها سراى الرمل، كما جدد سراى رأس التين وقام بانشاء حديقة النزهة على ترعة المحمودية، وبنى سراى الحقانية فضلا عن حي العمال الذى بنى بجوار عمود السوارى.

ويبدو التحول الي المجتمع الحضرى مما أصاب مجموع القرى مثل الحضرة والرملة والسيوف والمندرة وأبى قير من تحول والتى سمح بتعميرها على نطاق واسع بعد ان كان محظورا الاقامة فيها باعتبارها من المناطق العسكرية من قبل.

فى الوقت نفسه تم شق مجموعة من الطرق التى ربطت أطراف المدينة مثل شارع ابراهيم، الممتد من مدرسة السبع بنات الى ترعة المحمودية، وشارع الجمرك وشارع المحمودية وشوارع أخرى عديدة روعى تمهيدها بشكل جيد، وقد تم رصفها ببلاط جيء به خصيصا من «تريستا »وغرس على جانبيها الأشجار الوارفة.

بدأت الاسكندرية فى نفس الوقت تعرف المرافق العامة فقد تم فى أغسطس عام ١٨٦٣ التعاقد مع «لوبون» لانشاء شركة لانارة المدينة بغاز الاستصباح، كما منح المسيو «كورديبه» عام ١٨٦٥ امتيازا لمد الاسكندرية بالمياه النقية فأنشأ ماأسمى «بالشركة الأهلية لمياه الاسكندرية»، والتى كانت أساسا لانتشار شبكة المياه النقية فى المدينة.

على ان من أهم المشروعات التى ساعدت على اضفاء الطابع الحضرى على الاسكندرية كان انشاء الخط الحديدى الذى ربط المدينة بمنطقة الرمل، الأمر الذى بدأ قبل صدور الأهرام بستة عشر عاما، وفى أغسطس ١٨٦٠ على وجه التحديد حين منحت الحكومة التاجر البريطاني المستر فيرمان امتيازا لبناء الخط مالبث ان تحول الى شركة سكة حديد الاسكندرية والرمل وتم فى مطلع ١٨٦٣ افتتاح الخط الذى يبدأ من الاسكندرية حتى محطة «بولكلى» الحالية، وبقطار واحد مكون من عربة واحدة درجة أولى وعربتين درجة ثانية وعربة درجة ثالثة يجرها اربعة خيول! التى استبدل بها فى اغسطس من نفس العام قطار بخارى كان يقطع المسافة فى عشرين دقيقة.

باختصار فقد اخذت الاسكندرية، وقبيل صدور الأهرام بسنوات قليلة، تتخذ قسماتها الجديدة فى عالم مختلف، لم تعد المدينة العتيدة تعيش على دار الصناعة (الترسانة)، كما كان الحال فى عهد محمد على، ولم تعد مجرد ميناء يستقبل السفن، وانما أصبحت كيانا حضريا متكاملا يوفر البيئة المناسبة لميلاد مثل هذه الجريدة الطموحة.. جريدة الأهرام.

★★★

مع البيئة الحضرية هناك المناخ الثقافى الذى يتقبل صدور صحف من نوعية الأهرام ويكون معينا على بقائها ورواجها..

يصف أحد مؤرخى الصحافة فى مصر الأسباب التى أدت الى بدء الفرق المسرحية لعروضها فى مصر فى الاسكندرية عام ١٨٧٦، عام صدور الأهرام، يصفها بقوله انه بعد وصول سليم نقاش وأديب اسحق ويوسف الخياط الى مصر فضلوا ان يبدأوا عملهم فى انشاء الفرق المسرحية فى الاسكندرية على اساس «أن مجتمعنا سيكون أكثر تحررا من مجتمع القاهرة، وان نظرة الناس الى الممثل باعتباره مهرجا ستكون اقل فى الاسكندرية عنها فى القاهرة».

ونتوقف هنا عند قوله «المجتمع الأكثر تحررا» وهى حقيقة استمرت تفرض نفسها على المجتمع السكندرى لفترة غير قصيرة..

ويمكن ان يعزى هذا التحرر فى جانب منه الى أن الاسكندرية مع كونها من أقدم المدن المصرية تاريخيا فهى من أحدثها اجتماعيا، ذلك ان أغلب سكان الاسكندرية الحديثة قد وفدوا إليها سواء من سائر انحاء مصر او خارجها، ومثل هذه المجتمعات الوافدة تكون اقل ارتباطا بتقاليد المجتمعات القديمة التى جاءت منها عنها لو بقيت فيها، وهى بالتالى أكثر قبولا للجديد من المجتمعات المحافظة التى جاءت منها.

يعزى فى جانب آخر الى غلبة الأجانب فى المدينة فيما سبقت الاشارة اليه بكل مايترتب على الاحتكاك بهم من قبول لأفكار لايسهل قبولها فى المجتمعات الشرقية المحافظة.

يعزى كذلك الى طبيعة الاسكندرية كميناء مفتوح، والانفتاح هنا ليس مقصورا على المتاجر والبشر وانما أيضا يمتد إلى مختلف التيارات الفكرية التى تموج بها سواحل المتوسط.

فضلا عن ذلك فان التعليم الأجنبى فى الاسكندرية قد خلق قاعدة من المثقفين القادرين على استيعاب الأفكار والآراء التى تنادى بها الصحيفة الجديدة.

وكانت المدارس التى يقيمها الفرنسيون والبريطانيون هى المدارس الأكثر قبولا للطلاب المصريين عن المدارس التى اقامها اليونانيون والايطاليون والألمان والأرمن.

وفى عام صدور الأهرام كان فى الاسكندرية أكثر من ثلاثين مؤسسة تعليمية فرنسية، منها ماهو تابع للارساليات الدينية مثل مدارس الراهبات والفرير والجزويت، ومنها ماهوتابع للبعثة العلمانية الفرنسية مثل مدارس «الليسيه» ومنها ماهو مدارس خاصة اقامها اصحابها مثل مدرسة الاتحاد الاسرائيلى وجيرار.

وقد شكل خريجو تلك المدارس وطلابها قاعدة صلبة لبناء «الأهرام» خاصة مع ملاحظة أنه قد انحاز منذ البداية للثقافة الفرنسية وكل ماتمثله، وهو انحياز وصل الى حد الاحتماء بالنفوذ الفرنسى مما شكل صفحة مثيرة من صفحات تاريخ الأهرام!

مراجع الفصل الثالث:

- **الاهرام العدد الأول ٥ اغسطس ١٨٧٦**
- **د. ابراهيم عبده**

  جريدة الاهرام تاريخ مصر فى خمس وسبعين سنة القاهرة ١٩٥١
- **د. احمد عزت عبدالكريم:**

  تاريخ التعليم فى مصر فى عصر اسماعيل وتوفيق والسنوات المتصلة بها
- **د. سامى عزيز:**

  الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الانجليزى، القاهرة ١٩٦٨
- **عبدالرحمن الرافعى:**

  عصر اسماعيل (جزءان) القاهرة ١٩٤٨
- **د. فاطمة علم الدين عبدالواحد**

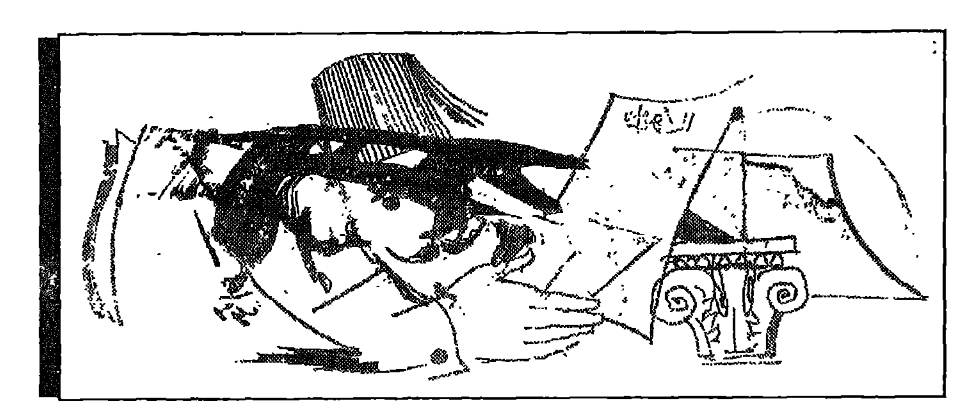
  تطور الحياة الاقتصادية والاجماعية والسياسية فى مدينة الاسكندرية فى عهد الاحتلال البريطانى، القاهرة ١٩٨٢.

  تطور النقل والمواصلات الداخلية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ - ١٩١٤، القاهرة ١٩٨٩
- **د. نبيل عبدالحميد سيد احمد:**

  الاجانب وأثرهم فى المجتمع المصرى. ١٨٨٢ - ١٩٢٢، القاهرة ١٩٧٦.

الفصل الرابع

بشارة تقلا!



■ عصر المؤسسات ما بين بلاط الحاكم و مجلس الوزراء

■ نأى عن الصراعات السياسية الداخلية لكنه واجه القضايا القومية

■ تقاليد الاهرام.. فرضت نوعا معينا من القراء تشبهوا بقراء صحيفة التايمز الانجليزية و الفيجارو الفرنسية

■ قاريء يعقد ربطة عنقه ويرتدى قبعته قبل أن يقرأ!

■ بشارة تقلا ـ صاحب الأهـرام ـ كان من القليلين الذين حصلوا على رتبة الباشوية وأول من حصل عليها من باب الصحافة

[٤]

كما أن الانسـان لا يولد وقـورا أو عـابثـا فـالصـحف كـذلك ، ذلك أن اعتبارات عديدة هى التى تحدد فى النهاية قسمات الصحيفة .

من هذه الاعتبارات (العصر) الذى ترعرعت فيه بكل مقولات ، وهى مقولاته قد تدعو فى مجملها الى ارتداء ثياب التقاليد ، كما أنها قد تقود الى خلعها ! ، وقد كان عقد السبعينات من القرن الماضى الذى صدرت فيه الأهرام عقدا حافلا بالأسباب التى تدعو الى الاكتساء بهذه الثياب أو خلعها ، وقد اختارت الأهرام أن تكتسى !

منها أيضا (البيئة) التى خرجت منها ، ولكل بيئة أحكامها التى تقود فى كثير من الأحيان الى صنع جانب كبير من القسمات ، قسمات الصحيفة وقد حدث أن خرج الأهرام من بيئة أهل الشام الذين استوطنوا مصر .

منها ثالثا (الأبوان) اللذان انحدرت الصحيفة من صلبهما (!) ، وكانا بالنسبة للأهرام الشقيقان سليم وبشارة تقلا ، ثم بعد ذلك مجموع ، الآباء الذين تعاقبوا عليها ، فالصحف ليست مثل البشر تكتفى بأبوين فحسب !

ولنبدأ بالعصر..

كان العصر الذى صدر فيه الأهرام عصر قيام العديد من المؤسسات فى مصر بكل تقاليدها التى تم ارساؤها ..

ويمكن أن نرصد على الأقل ثلاثا من تلك المؤسسات .. بلاط الحاكم والبرلمان المصرى ثم أخيرا مجلس الوزراء .

● البلاط الملكى The Royal Court

بدأ تأسيسه بكل مفرداته بعد ما شرع الخديو اسماعيل فى بناء قصره الشهيرة فى عابدين ثم الانتقال من القلعة التى استمرت منذ عهد صلاح الدين مقرا الحكام مصر الى القصر الجديد ، ولم يكن مجرد انتقال من بناية متجهمة تنتمى الى العصور الوسطى الى بناية ذات مستوى فنى رفيع تنتمى الى عصر النهضة .. كانت المسألة أكبر من ذلك بكثير .

كان الانتقال فى الحقيقة من بناية يتمترس الحاكم داخلها ويحيك فيها المؤامرات لضرب خصومه الذين كانوا ينازعونه السلطة ، خاصة من كبار المماليك ، الى بناية تعبر عن استقرار الحكم المركزى الذى صنعه محمد على ، بكل تقاليده الجديدة التى أرساها اسماعيل .

يمثل النظام الذى وضع للقصر جانبا من هذه التقاليد ، سواء ما جاء منه متصلا «باستقبالات ولى النعم» أو الاحتفالات التى تحدد لها مواقيتا بعينها ، وما ارتبط بذلك من تطبيق قواعد البروتوكول والاتيكيت وهى قواعد لم تكن متبعة يقينا داخل القلعة !

تمثل الادارة فى عابدين جانبا آخر للبلاط الجديد والذى سمى مع نشأته « بالمعية السنية » ، أى اولئك الذين بصحبة الخديوى أو بالأحرى فى بلاطه ، وقد بدأت هذه الادارة بالقلمين العربى والافرنجى ثم تعددت بعد ذلك أجهزتها ، خاصة ذلك الجهاز الذى تولى إدارة املاك حكام مصر والذى عرف بالخاصة الخديوية ثم الملكية بعد ذلك .

وتمثل الحاشية الجانب الأخير من تقاليد القصر التى نشأت فى عصر اسماعيل والتى تشكلت من مجموعة من الرجال القريبين من الخديو ، أو فيمن أسماهم أحد المعاصرين « الخدم والحشم والخصيان والنساء والجوارى » وكان لهم نظام مخصوص .

● كان البرلمان المصرى المؤسسة الثانية التى نشأت وأرست تقاليدها خلال نفس العصر، فان مانشأ عام ١٨٦٦ تحت اسم مجلس شورى النواب لم يلبث ان أصبح خلال السبعينات مؤسسة نيابية كاملة التقاليد .

وقد تضمنت اللائحة الأساسية للمجلس عديدا من القواعد التى تحولت مع الوقت الى تقاليد راسخة ..

خطبة العرش أو ماأسمى فى هذه اللائحة بمقالة الخديو والرد عليها من قبل المجلس كان يشكل أول هذه التقاليد .

لجان المجلس أو ماعرف آنئذ بالأقلام التى تفحص صحة نيابة الأعضاء وتعرض قراراتها على هيئة المجلس كانت ترسى التقليد الثانى .

الحصانة البرلمانية التى يتمتع بها الأعضاء فلا ترفع عليهم دعوى جنائية أثناء انعقاد المجلس إلا إذا ارتكب العضو جريمة القتل كانت ترسى التقليد الثالث .

وقد وصلت العناية بالتقاليد فى هذه المؤسسة الى حد تقرير نوع الملابس التى يرتديها العضو فى المجلس بأن تكون « بالحشمة اللائقة » وطريقة الجلوس بأن تكون «بهيئة الادب» !

● ويقدم « مجلس الوزراء المصرى » ثالث المؤسسات التى نشأت فى نفس العصر (١٨٧٨) .

قبل ذلك كانت الوزارات ، أو النظارات بتسمية العصر ، مجرد وحدات إدارية تقوم كل منها بتصريف الأمور فى جانب بعينه ، تحت الاشراف المباشر للحاكم .

أما بصدور الأمر العالى فى ٢٨ اغسطس عام ١٨٧٨ « المؤسس لهيئة النظارة الجديدة ووظائفها » فقد تشكلت المؤسسة الجديدة ، وقد أرسى الأمر المذكور بعضا من تقاليدها ، وتكفل الزمن بارساء المزيد من هذه التقاليد .

« أن يكون أعضاء مجلس النظار بعضهم لبعض كفيلا فان ذلك أمر لا بدمنه » والذى يعنى التضامن فى المسئولية الوزارية كان اول هذه التقاليد .

« مجلس النظار يتفاوض فى جميع الأمور المهمة المتعلقة بالقطر ، ويرجع رأى أغلبية أعضائه على رأى الأقل فيكون حينئذ صدور قراراته على حسب الأغلبية» أرسى تقليدا ديموقراطيا كان مفروضا أن يستمر بعد ذلك .

العلاقة بين رئيس النظار وسائر النظار وضع الأمر المذكور تقاليدها سواء فيما يتصل بتعيين كبار الموظفين أو فصلهم ، فضلا عن تحديد الاختصاصات فلا يتعدى ناظر على اختصاصات آخر أو موظفية الذين «لا يجب عليهم طاعة أمر غيره» !

باختصار فقد كان العصر الذى صدر فيه الاهرام عصر إرساء التقاليد فى مناح شتى، ولم يكن غريبا أن يتولى القائمون على اصدار الصحف الجديدة ارساء التقاليد النابعة من احتياجاتهم والخاصة بهم ، وكانت الأهرام فى طليعة تلك الصحف !



تأتى بعد ذلك الى البيئة ..

ولا نظن اننا نضيف جديدا عما هو معروف من أنه بعد حوادث الستينات (١٨٦٠) التى شهدها جبل لبنان فقد خرجت منه أرتال من البشر توجهوا الى حيث يتلمسون الأمان بدأت بشائرهم تصل الى مصر والتى كانت قبل ذلك بوقت طويل موئلا لعناصر شتى من سائر أنحاء الدولة العثمانية . بمن فيهم أهل الشام .

ومع الحركة الدستورية فى تلك الدولة فى منتصف السبعينات والتى نسبت الى مدحت باشا ، وما تبع ضرب هذه الحركة من سياسات قمعية ارتبطت باسم السلطان عبد الحميد الثانى تزايدت معدلات الخروج من بلاد الشام .

وقد حدث فى نفس ذلك العقد أن كانت مصر تشهد عصرا جديدا خاصة بعد فتح قناة السويس فى اواخر العقد السابق وتزايد أسباب الاتصال بالغرب وتولى باشا واسع الأفق ، ولم يكن سوى اسماعيل .

وقد تميز أهل الشام الذين جاءوا الى مصر عن غيرهم فى مناح عديدة ...

فهم لم يدرجوا فى نطاق الأجانب الذين قدموا من سواحل البحر المتوسط الأخرى ، مثل اليونانيين والايطاليين او الفرنسيين ، أو ممن أتوا من غرب أوربا مثل البريطانيين، فقد كانوا فى النهاية رعايا الدولة العلية . مثلهم مثل المصريين.

وهم لم يدرجوا ضمن العناصر التركية التى استمر الحكم فى مصر يستمد منها أدواته حتى أواخر القرن التاسع عشر ، ومن ثم لم يشكلوا مجتمعا متمايزا عن المصريين ، وقد ساعدهم على الاقتراب من الأخيرين وحدة اللسان .. اللسان العربى .

وهم لم يتقوقعوا داخل « جيتو » مثل حارة اليهود . الأمر الذى صنع دائما حاجزا مابين هؤلاء وبين جموع المصريين !

بيد أن هذا التميز وإن صنع قدرا من الاسهام فى الحياة المصرية، خاصة فى مناحيها الاقتصادية والثقافية، إلا أنه كان اسهاما محسوبا، ولعل هذا الحساب هو الذى صنع بعضا من تقاليد الصحافة الشامية، ومن بينها الأهرام.

العلاقة بالسياسة كانت أول هذه التقاليد، وهى علاقة بدت منذ اللحظة الأولى التى خطاها سليم تقلا لإصدار الجريدة.. طلب الترخيص باصدارها الذى رفعه الى «ناظر الخارجية»، جاء فيه بالحرف الواحد : «.. بدون ان اتعرض لدخول مطلقا فى الأمور البوليتيقية»!

صحيح ان الاهرام لم يوف بهذا التعهد على نحو الوعد الذى قطعه منشئة على نفسه، الا انه كان البداية لإرساء مجموعة من التقاليد التى استمرت تحكم مسيرة الأهرام السياسية..

● «عدم التورط فى الصراعات السياسية الداخلية» استمر القاعدة التى تحكم هذه المسيرة فالأهرام لم يحسب فى أى وقت على جماعة سياسية بعينها من الجماعات المصطرعة على الساحة فى مصر.

بالمقابل فان «الأهرام» قد قبل المواجهة فى القضايا القومية، وهو تدخل محسوب فى السياسة، فبينما تتسم مثل هذه القضايا بقدر من ثبات المواقع، فان الصراعات الحزبية يغلب طابع التقلب الذى أودى بصحف كثيرة لم يكن القائمون على الأهرام مستعدين ان تكون جريدتهم إحداها!

● «ضبط النغمة» شكل العنصر الثانى من التقاليد التى تم ارساؤها من جانب «الاهراميين»، فهم فى اى الظروف كانوا حريصين على ان يكون صوتهم السياسى «معتدلا» فلم يلجأوا فى أى الأوقات الى «الصياح» الذى استمرت تلجأ اليه بعض الصحف المصرية، خاصة الصحافة الحزبية، فقد كانوا يعلمون ان الصياح عمره قصير، كما انهم وبنفس الدرجة لم يلجأوا الى خفض الصوت الى حد الشحوب او التوارى، لأن هذا كان يعنى ببساطة لونا من الانتحار البطىء، وهو وان كان قد حدث فى بعض العهود لكنه لم يستمر طويلا بعد استشعار خطورته.

● «الحرفية» صنعت العنصر الثالث من تقاليد الأهرام الناشئة عن عدم التورط فى الصراعات السياسية، فان المعارك التى كانت تخوضها الصحف الاخرى ونأى الأهرام بنفسه عنها كان لها معجبوها من الساعين الى تتبعها، وكان على الصحيفة العتيدة ان تقدم البديل، ولم يكن سوى المزيد من الدقة ومنذ اللحظة الأولى لصدور الأهرام.

فى العدد «زيرو» أو ما اسمى بـ «مثال جريدة الأهرام» الصادر فى ١٥ يوليو عام ١٨٧٦ جاء بالحرف الواحد عن الجريدة المزمع اصدارها أنها «تستقصى عن الأخبار الصادقة الراهنة ولا تترك خبرا مفيدا سواء كان برقياً أو بغير وساطة، وقد أقمنا فى جميع الجهات وكلاء لهم إلمام ومعارف فى جميع الأمور والأحوال لتستند على أخبارهم

الوثيقة» .

وعاد العدد الأول الصادر فى ٥ أغسطس من نفس العام ليؤكد هذه النية فيما جاء من قول أن الجريدة «تجعل من يتصفح صفائحها واثقا بما يطالعه لأنها تعانى البحث لتقف على الفوائد الصحيحة».

وبمقارنة الأهرام بالصحف المعاصرة والتى قامت بالأساس على الطباعة اليدوية يلاحظ انه قلما كانت تتسلل الأخطاء المطبعية لصفحات الأهرام بينما كانت تحفل بها صفحات الجرائد الأخرى!

● تجنب «البوليتيقا» ادى أخيرا من بين ما أدى اليه إلى إعطاء عناية بالغة للأخبار الخارجية، فقد كانت أكثر أمنا من التورط فى أخبار الأوضاع الداخلية، الأمر الذى نلاحظه فى المساحة الكبيرة التى خصصها الأهرام منذ اعداده الأولى لبرقيات الوكالات الأجنبية ولترجمة المقالات عن الصحف والمجلات الأوربية، وقد استمر الأهرام من اكثر الصحف المصرية اهتماما بالخارج، حتى يومنا هذا !

وقد فرضت هذه التقاليد على الأهرام نوعية بذاتها من القراء مثل تلك النوعية التى عرفتها التايمز والفيجارو، والتى يقال عن قارئها انه يعقد ربطة عنقه ويرتدى قبعته قبل ان يشرع فى قراءة صحيفته(!) وهو أمر قد لا يريح الكثيرين!

★★★

يبقى الأبوان كرافد فى صناعة التقاليد، وأول ما يلفت النظر هنا ان الأهرام وفى كثير من الأوقات لم تكن أكثر الصحف انتشارا الا أنها كانت أطولها عمرا.

فتاريخ الصحافة المصرية يحفل بجرائد اكتسبت شهرة واسعة لكنها انتقلت الى رحمة الله فى نفس القبر الذى ضم رفات اصحابها بعد وفاتهم بشهور قليلة.

والفارق بين صحيفة تحتجب بوفاة مؤسسيها ، مهما تكون قد اكتسبت من شهرة وبين صحيفة اخرى تعيش بعد رحيل هؤلاء المؤسسين، هو الفارق بين الارتباط بالشخص والامتثال للتقاليد.

وبينما تقدم صحيفة المؤيد التى صدرت عام ١٨٨٩ وعاشت لنحو ربع قرن، وكانت من أوسع الصحف المصرية انتشارا والتى لم تعش بعد وفاة مؤسسها، الشيخ على يوسف، سوى شهور قليلة، نموذجا للنوع الأول ، فان الأهرام تقدم النموذج للنمط الثانى.

وقبل ان نعرض للدور الذى لعبه الاخوان فى ارساء تقاليد الأهرام ينبغى التذكير، بالوضعية الاجتماعية للعاملين بالصحافة وقت صدور الاهرام، ولفترة غير قصيرة بعد ذلك، وهى وضعية وصفتها احدى محاكم القاهرة فى حكم شهير عام ١٩٠٤ بانها «حرفة دنيئة!»

ينبغى التذكير ايضا بأن الاخوين سليم وبشارة، كانا إفرازة لتلك النهضة الأدبية التى قادها الشيخ ناصيف اليازجى وبطرس البستانى فى لبنان، فهما لم يقر به فقط لهذين الزعيمين من زعماء النهضة وانما أتيحت لهما الفرصة للتتلمذ على أيديهما.

وعيا بهاتين الحقيقتين فانه يلفت النظر حقيقة، ودون انحياز مسبق للأهرام أو لمؤسسيها، ان الاخوين، خاصة بشارة الذى امتد به العمر عن أخيه (سليم توفى عام ١٨٩٢ عن ٤٣ عاما وبشارة توفى عام ١٩٠١ عن ٤٨ عاما)، قد أحرزا نجاحا فى إضفاء قدر من الاحترام على المهنة، وهما فى هذا لم يبحثا عن الشعبية بقدر ما بحثا عن الاحترام.

وكان بشارة تقلا من قليلين ممن حصلوا على رتبة الباشوية فى عمره من باب واحد هو باب الصحافة، صحيح أن الزعيم الوطنى المعروف مصطفى كامل حصل على نفس الرتبة، غير أن هذا الحصول قد صدر عن كونه سياسيا قبل ان يكون صحفيا.

وتشير الترجمات التى وضعت للرجل خاصة تلك التى قدم لها خليل مطران فى أعقاب وفاته الى ان أبواب الحكام والعظماء سواء فى مصر او فى خارجها، كانت مفتوحة أمامه دائما، ولم يأت ذلك من فراغ بل صنعه تقاليد تم ارساؤها.

فقد ادار بشارة الأهرام على (نحو مؤسسى) وليس على نحو شخصى فيما سجله خليل مطران بقوله: «الشرقى لا يفطر على التدبير ولا يربى عليه فهو فاقده خلقا واكتسابا ولهذا لا يحسن القيام على المال ولا يجيد ادارة الأعمال إلا أفراد شذوا عن القاعدة كالمترجم فانه كانت لا تفوته شاردة ولا واردة من امره ولا أمر عمله».

ولعل ذلك كان من وراء ان الأهرام عند نشأته صدر كصحيفة اسبوعية ذى مطبعة هزيلة بطيئة، على حد تعبير خليل مطران، غير انه وقت وفاة بشارة (١٩٠١) كان قد تم استبدال تلك المطبعة «باثنتى عشرة مطبعة مختلفة الحجم متناسقة فى قاعة رحيبة بقصر شاهق يدار اكثرها بنفس الغاز المحترق وتعمل فيها أدق المطبوعات وأجملها ويكون الصناع فيها نحو الستين من ذوى العيال الذين يرتزقون»! وصدرت بدلا من الجريدة الاسبوعية جريدتان يوميتان، الأهرام والبيراميد، وكانت ثانيتهما تصدر بالفرنسية.

وألقى التكوين الشخصى لآل تقلا بظلاله على بناء الأهرام، وبالتالى وضع تقاليده، ولعل أهم ما فى هذا التكوين (رفض الانسياقات العاطفية أو الحدة) فى اتخاذ المواقف، وهو تكوين صادر فيما نرى، عن الانتماء للأقلية الشامية بكل التحوطات النفسية التى تمسك بتلابيبها!

تروى مجلة الضياء غداة وفاة بشارة قصة عنه فتقول ان بعض أخصائه كتب اليه كتابا شديد اللهجة يستعجله بشأن مطلب من المطالب فتأثر من ذلك ولما اجتمع به قال بالحرف الواحد: «لا يرتقى الانسان هكذا ولو كنت بحدتك وسرعتك لما قدرت أن

أعمل شيئا بل كنت اليوم حيث كنت أمس بلا زيادة ولا نقصان».

ويقدم احد محررى الاهرام شهادة فى هذا الصدد فيقول أنه «كان يأنف كل طعن فى الأفراد فكان اذا تولت الحدة أقلامنا للرد على معتد نختلس لذلك فرصة غيابه او غفلة منه فنكتب ما نكتب ونحن نتوقع منه توبيخنا» !

(التعفف) كان تقليدا آخر سعى آل تقلا الى ارسائه منذ ذلك الوقت المبكر من تاريخ الأهرام.

ومع انه يمكن استقراء هذه الحقيقة من تقليب صفحات الأهرام خلال ربع القرن الأول من حياته فان احد العاملين فيه يقدم شهادة اخرى فى هذا الشأن جاء فيها انه لدى توليه لعمله فى الصحيفة الشهيرة استدعاه بشارة تقلا وكانت أولى وصاياه له : «إذا رأيت أن كلمة تقولها يخسر معها شخص قرشا وتربح الأهرام آلافا فلا تقلها ولو خسرت الأهرام فوق الربح المنتظر اضعافا».

(تغليب العام) على الخاص، الأمر الذى وعاه بشارة جيدا فيما جاء فى وصيته وهو على فراش مرضه الأخير للمتحلقين من حوله من هيئة تحرير الأهرام، قال : «تحروا المباحث المفيدة للأمة ولا تخشوا فى الخدمة الصحيحة والحقيقة المفيدة احدا واجتنبوا المثالب واسكتوا عن المطاعن ولو كانت على »، مما استمر أحد التقاليد الراسخة للجريدة العريقة يصعب الخروج عنه حتى لو أراد له البعض ذلك!

(الاستمرارية) كانت تشكل تقليدا دائما وأخيرا من التقاليد التى ارساها آلا تقلا فى الأهرام، ونعود مرة ثانية الى شهادة خليل مطران التى قال فى جانب منها : «كنت استقرى كل حادثة من بدئها الى نهايتها كأننى اقرأ قصة لذيذة وعندى ان المترجم بما أوده من الأنباء المتسلسلة التى لم يقطع موردها عن القراء يوما واحدا فى ربع قرن لا يضارعه اخبارى فى الغرب فضلا عن الشرق».

وتأسيسا على هذه الشهادة فلا نجد ثمة غرابة فيما رواه القريبون من الرجل لحظة احتضاره من أن آخر كلماته كانت : «أديروا المطابع» !

● **مراجع الفصل الرابع**

اعداد الأهرام

رقم العدد	التاريخ
المثال	١٨٧٦/١/١٥
الأول	١٨٨١/١/٣

د. ابراهيم عبده:

جريدة الأهرام - تاريخ مصر فى خمس وسبعين سنة القاهرة ١٩٥١

جرجي زيدان:

تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر - القاهرة ١٩٢٢

خليل مطران:

بشارة تقلا ١٨٥٣ - ١٩٠١م، مطبعة الأهرام، القاهرة ١٩٠٢

د. سعيدة محمد حسنى:

المجالس النيابية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ - ١٩١٤، القاهرة ١٩٩٠

د. عبدالله عزباوى:

الشوام فى مصر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر - القاهرة ١٩٨٦

فؤاد كرم:

النظارات والوزارات المصرية ١٨٧٨ - ١٩٥٤، القاهرة ١٩٦٩

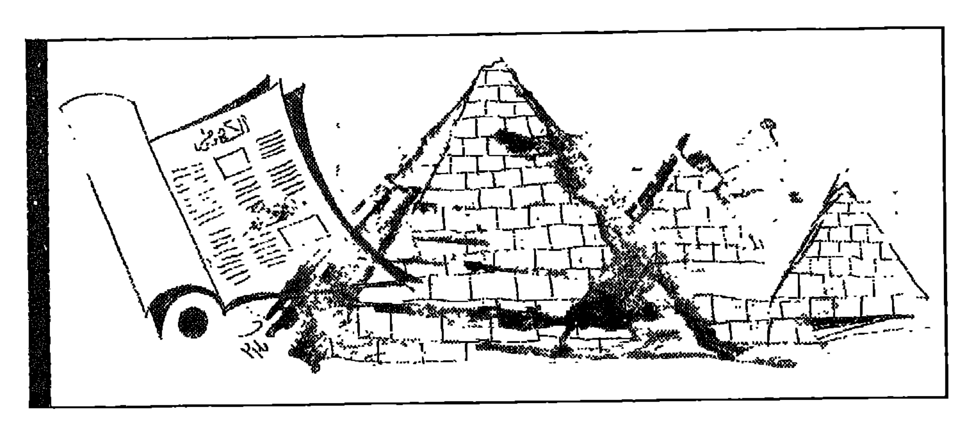
د. يونان لبيب رزق:

تاريخ الوزارات المصرية ١٨٧٨ - ١٩٥٣، القاهرة ١٩٧٥

قصة البرلمان المصرى، القاهرة ١٩٩١



الفصل الخامس



■ ■ أعظم أثر موجود فى القطر المصرى وفى سواه أيضا!

■ ■ التمثال العظيم المدعـو أبو الهول

■ ■ الأهرام تكفى لبناء سور حول فرنسا

■ ■ خزانة علوم المصريين

■ ■ انحيازات الأهرام الوطنية

أهرام الجيزة، الأعجوبة الأولى من أعاجيب العالم القديم السبع، لم يكن بعيدا فى أى وقت عن الأهرام الصحيفة.

كان «أهرام الجيزة» مستقرا دائما فى وجدان القائمين على صحيفة الأهرام، سواء فى موقعهم فى ميدان القناصل بالاسكندرية أو فى مقارهم بالقاهرة، فى شارع مظلوم أو فى شارع الجلاء، الأمر الذى استمر بامتداد الـ ١١٧ عاما التى انصرمت من عمر الأهرام، وهو استقرار لم يظهر فحسب من الشعار الذى اختارته الصحيفة.. اهرامين بينهما أبو الهول فى العدد الأول، والاهرامات الثلاثة فى العدد الأخير، وانما ظهر فيما هو أهم من ذلك.

ففى شهر فبراير ١٩٩٣، وبينما كان الرئيس مبارك يفتتح المبنى الثانى من مبانى الأهرام لم ينس الأستاذ ابراهيم نافع، رئيس التحرير ورئيس مجلس الادارة، فى خطبة الترحيب بالرئيس، أن يربط بين المبنيين اللذين تمت اقامتهما، وبين الاهرامات، وان إدارة الاهرام بصدد إقامة المبنى الثالث حتى تكتملإاهراماتها الثلاثة!

وقبل ١١٨ سنة، وفى شهر أغسطس عام ١٨٧٦، شغلت الأهرام جانبا من صفحات أعدادها الخمسة الأولى بتاريخ «اهرام الجيزة»، مما يشكل قصة طريفة من قصص الديوان.. ديوان الحياة المعاصرة!

بدأت هذه القصة فى العدد الأول من الأهرام الصادر فى ٥ اغسطس عام ١٨٧٦، وانتهت فى العدد الخامس الصادر فى ٢ سبتمبر من نفس السنة.. جاء فى العدد الاول:

«بما اننا اخترنا تسمية جريدتنا هذه باسم أعظم أثر موجود في القطر المصرى وفى سواه ايضا وهو الاهرام رأينا من باب الافادة ان ندرج فى كل عدد بالاستقراء تاريخ هذا الاثر نقلا عن اشهر المؤرخين المتأخرين - يقصد المعاصرين - الذين تكلموا فيه مدققين ليكون معلوما عند كثيرين الذين الى الوقت الحاضر نظروه وسمعوا عنه لكنهم لم يدركوا تاريخه».

تبع ذلك بالمقالات الخمس التى تشى بمجموعة حقائق، بعضها متعلق بالعصر، والبعض الآخر متصل بالانحياز للوطن الذى صدرت فيه الأهرام، والبعض الأخير مرتبط بالمنهج الذى ارتضاه الأهرام منذ أن صدر.

★★★

الذى نقصده (بالعصر) ما دخل على علم «المصريات»، أى علم البحث فى آثار مصر الفرعونية وتاريخها.. ما دخل على هذا العلم منذ أواخر القرن الثامن عشر وحتى صدور الأهرام والذى جعل اختيار الاسم طبيعيا وجعل الأخطاء التى وقعت فيها المقالات طبيعية أيضا (!)، فعلم المصريات لم يكن قد استكمل بعد كل معارفه!

معلوم أن البدايات الأولى للاهتمام بالمصريات فى التاريخ الحديث جاءت مع قدوم

الحملة الفرنسية الى مصر أواخر القرن الثامن عشر (١٧٩٨)، وهى البدايات التى استهلها نابليون بقولته الشهيرة لجيشه قبيل الموقعة المعروفة باسم موقعة الأهرام - أو امبابة - :«ان اربعين قرنا تطل عليكم من هذا المكان»، وأكدها علماء الحملة الذين انطلقوا فى سائر أنحاء مصر يبحثون وينقبون ليضمنوا ماوجدوه فى كتابهم الشهير «وصف مصر»، وتوجت هذه البدايات بالعثور على «حجر رشيد» وتمكن العالم الفرنسى شامبليون من فك رموزه والتعرف على «الهيروغليفية» التى كانت مفتاحا لصندوق الأسرار الذى ضم كل ذخائر الحضارة المصرية القديمة.

وقد ارتبطت زيادة الاهتمام بعلم المصريات بتطورين تاريخيين هما بروز الدولة الحديثة فى مصر وتشعب اهتمامات السلطة المركزية، ومزيد من الوفود الأوربى الى البلاد، وكان من بين شواغل الوافدين، فضلا عن الأسباب الاقتصادية، أسباب ثقافية فقد وجدوا أمامهم كنوزا أثرية لاتتوفر فى أى مكان من العالم، ولم يجدوا بأسا فى الجرى وراء تلك الكنوز ضمن الكنوز الأخرى التى جاءوا الى أرض الكنانة للحصول عليها.

وانطلاقا من هذا الاهتمام أنشأ محمد على أول دار للآثار «بجهة الأزبكية بمنزل الدفتردار»، وفى عهد سعيد انتقلت دار الآثار الى بولاق، وكانت طوال ذلك الوقت أقرب الى مخزن منه الى متحف، ولم يحدث تطويرها الا فى اوائل عهد اسماعيل عندما افتتحت بعد تنظيمها فى أكتوبر عام ١٨٦٣، وقد استمرت فى هذا الموقع حتى نقلت الى الجيزة عام ١٨٩٢، ثم الى موقعها الحالى بعد ذلك بأحد عشر عاما.

انطلاقا من هذا الاهتمام أيضا توافد علماء المصريات الى البلاد، ومن شتى أنحاء العالم الغربى، فرنسيين وبريطانيين وألمان وأمريكان، وإن كان الأوائل قد احتلوا مكانة خاصة فى هذا الميدان.

يذكر من هؤلاء المسيو ماريت الذى نال رتبة الباشوية لدوره فى مجال المصريات، فقد جاء الى البلاد عام ١٨٥٠ وقام بحفائر هامة وتولى ادارة المتحف حتى توفى فدفن فيه!

انطلاقا من هذا الاهتمام أخيرا تم انشاء أول مدرسة للدراسات الأثرية فى القاهرة عام ١٨٦٩، قبل صدور الأهرام بأقل من سبع سنوات، وهى المدرسة التى أسسها العالم الألمانى «هنرى بروكش» وقامت بتخريج الفوج الأول من الأثريين المصريين على رأسهم أحمد كمال الذى يتفق المعنيون بعلم المصريات على توصيفه «بأبى الأثريين المصريين»، ولم يقتصر اسهام الرجل على العمل الوظيفى فى المتحف أو ما كان يعرف باسم «الأنتيكخانة المصرية» والتى وصل فيها الى منصب أمين مساعد المتحف، أو الاشتراك فى عمليات التنقيب، وانما ترك لنا مجموعة من الأعمال أشهرها «كتاب العقد الثمين فى محاسن وأخبار وبدائع آثار الأقدمين من المصريين»!

وجاء الاهتمام بالاهرامات فى اطار تزايد الاهتمام بالمصريات، فظهر الساعون الى

!!:قسب حولها كان أشهرهم الايطالى كافيليا الذى قام بفحص الأجزاء الداخلية للهرم الأكبر عام ١٨١١، والانجليزيين هو ارد فير وبرنج اللذين قاما بفحص شامل للهرم بين عامى ١٨٣٧ و ١٨٣٩.

وقد أدى تزايد الاهتمام الأوربى بأعظم مبانى العالم القديم الى أن يقوم اسماعيل بمناسبة افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ بشق طريق بين القاهرة وبين الهرم، وقد سعى الخديو من وراء ذلك الى توفير وسيلة مواصلات مريحة لضيوفه من الأوربيين، وكان يعلم مدى حرصهم على زيارة أعجوبة العالم الأولى!

كل هذه المتغيرات والتى تتالت بسرعة ملحوظة خلال الربع الثالث من القرن التاسع عشر (١٨٥٠ ـ ١٨٧٥) لاشك انها وفرت مناخا ملائما ليشد الأهرام اهتمام جموع المصريين، خاصة المثقفين، ولم يكن ثمة غرابة مع هذا أن تتخذ احدى صحف العصر من هذا الأثر الضخم اسما لها!

★★★

اذا لم تكن هناك حقيقة يقينية فى العلوم، خاصة الانسانية منها، فان هذه اليقينية تشحب كثيرا في علم الآثار، اذ يصحب كل كشف اثرى ليس فقط اضافة معلومات جديدة، ولكن فى كثير من الاحوال اعادة النظر فى معلومات قديمة.

ومع شحوب اليقينية تتكاثر التفسيرات ويلجأ صاحب كل تفسير الى ترجيح مايراه بسوق الأدلة أو اللجوء الى الاحتمالات التى تتكاثر على نحو غير مألوف فى العلوم الأخرى.

وكان من الطبيعى أن ما ينطبق على علم الآثار عامة ينطبق على فرع المصريات، مع ملاحظة انه بينما بدأ هذا الاهتمام فى أوروبا منذ وقت مبكر، القرن الرابع عشر مع بدء الحركة الانسانية Humanism التى عنيت عناية خاصة بالتنقيب فى آثار اليونان والرومان، فانها تأخرت بالنسبة للآثار المصرية نحو خمسة قرون، الى القرن التاسع عشر كما سبق القول، بكل مايعنيه ذلك من أن علم المصريات عندما صدر الأهرام كان لازال يحبو، مما لا يستغرب معه ما حفلت به مقالات الأهرام الأولى عن الأهرام بمعلومات ثبت فيما بعد عدم صحتها!

يتحدث كاتب المقالات، وهو سليم تقلا، فى مستهلها عن اهرامات الجيزة الثلاثة، ثم ينتهى منها وقد رصد أربعة!

ويخصص القسم الأكبر من هذه المقالات عن الهرم الأكبر، وتختلف المعلومات التى ساقها بشأنه عن المعلومات التى أصبحت بديهية بعد ذلك..

يقول أن حجر الأساس وضعه «سوفارس» سلف الملك «شيوبس الأول» من الأسرة الرابعة، وقد استكمل بناؤه فى عهد الملك «شيوبس الثانى»، وقد استغرقت عملية البناء ثلاثين عاما!

والواضح أن صاحب الأهرام قد نقل معلوماته عن الترجمة الفرنسية لكتاب «هيرودوت»، الذى تحدث عن «كيوبس» وليس «شيوبس»، كما ترجمها سليم تقلا، وهو نفسه الملك خوفو بعد أن تم ضبط اسمه بعد كشف اسرار الهيروغليفية.

المعلومة غير اليقينية الثانية التى قدمتها هذه المقالات متصلة بتعدد بناة الهرم الأكبر ومدة بنائه، فقد أكدت الحفريات التى أعقبت ذلك أن بانيه واحد هو خوفو وأنه قد تم بناؤه فى عشرين عاما أو ما يقل، وهو مالم يكن قد تم التوصل اليه وقتئذ.

يذكر كاتب مقالات الأهرام أن مدة حكم خوفو تراوحت بين ستين وسبعين عاما على غير ما اثبتته الدراسات التى أعقبت ذلك انها لم تتجاوز ثلاثة وعشرين عام بنى خلالها الهرم الأكبر، وبينما يذكر كاتب المقال ان الهرم قد بنى فى الفترة بين عامى ٣٠٠٠ و ٢٠٠٠ قبل الميلاد، فان الدراسات التى أعقبت ذلك قد حددت أن الأسرة الرابعة التى خرج منها بناة اهرامات الجيزة قد حكمت مصر بين عامى ٢٦٨٠ و٢٥٦٠ قبل الميلاد، وتفاصيل كثيرة أخرى ليس هنا مجالها!

افتقرت مقالات سليم تقلا أيضا للحديث عن ماهية «أبو الهول» رغم ان شعار الأعداد الأولى من الأهرام قد تضمنت صورته.

كل ما جاء فى هذه المقالات عن أشهر تماثيل قدماء المصريين ان «الصنم العظيم المدعو أبو الهول يقع الى الجنوب من الهرم الأكبر على مسافة نحو ستماية قدم منه وهذا الصنم من غرائب أبنية المصريين» ذلك أن الحقيقة حول هذا التمثال الشهير والعلاقة بينه وبين الهرم الثانى، هرم خفرع، لم يكتشفها الأثريون الا من خلال الحفائر التى أجريت بين عامى ١٩٢٦ و١٩٣٦، أى بعد صدور الأهرام بخمسين عاما أو يزيد

★★★

إذا كان بعض من كتبوا عن التوجهات السياسية للأهرام فى فترة تاريخية لاحقة قد سجلوا أنه كان من أولى الصحف التى نادت بأن تكون «مصر للمصريين» فيما سوف نعرض اليه فى فصول قادمة، فان الأخذ بهذا التوجه قد أخذ فى النضوج منذ ذلك الوقت المبكر من تاريخ الجريدة العتيدة، وفى نفس الفصول الخمس التى نطالع ما بين سطورها هنا.

بدا هذا (الانحياز) فى البحث عن أصول الكلمة الأوروبية للأهرام. «البيراميد»، وكان امام سليم تقلا وهو يكتب سلسلة مقالاته تفسيران. التفسير الأول يرجع التسمية الى أصل عبرى بينما يرجعها التفسير الثانى الى أصل قبطى. اللغة المصرية القديمة.

ولأول وهلة وبدون تردد استبعد الرجل التفسير الأول وأخذ فى سوق الأدلة للتأكيد على صحة التفسير الثانى، وهو فى ذلك قد استند الى جذور لغوية واضح انه قد أجهد نفسه فى الاستقصاء عنها من مصادر عديدة.

ولعل الأهرام كان يرد بذلك على ما تضمنته الأدبيات الاسرائيلية من دور «يهودى» فى بناء الأهرام (!).

بالعكس فقد حرص كاتب المقالات على أن يؤكد ان العبرانيين قد تأثروا بالمصريين فى بناء مقابر ملوكهم على شكل الاهرامات، «وتشبهوا فى ذلك بعوايد المصريين» على حد تعبيره، وحدد فى هذا الصدد مقبرة الملك ابيشالوم، وان كان قد رأى أنها لم تطاول بالطبع الاهرامات المصرية.

لم ينس كاتب المقالات ايضا فى معرض تنويهه عن عظمة الأثر المصرى أن يذكر أن أحجاره لو تم تفكيكها تكفى لبناء سور ارتفاعه ١٠ اقدام وسمكه قدم واحد حول جميع فرنسا (!).

وقد نقل سليم تقلا هذه المعلومة عن بعض الكتابات الفرنسية التى اشارت الى أن نابليون عندما كان فى مصر حسب انه يوجد فى الهرم الأكبر، وماجاوره من اهرام، أحجار تكفى لاقامة سور حول فرنسا ارتفاعه ثلاثة أمتار وسمكه متر واحد، وان أحد الرياضيين من علماء الحملة الفرنسية قد أيد هذا التقرير. فضلا عن ذلك فان سليم تقلا قد انحاز لفكرة أن الأهرام قد بنيت لتكون «خزانة لعلوم المصريين» التى كان يحتفظ بها الكهنة، وأنهم أرادوا من بنائها الاحتفاظ بتلك العلوم لذريتهم، فيما جاء فى مقاله الرابع.

وزاد الرجل هذه الفكرة تفصيلا فى مقاله الخامس، فأشار إلى أن المصريين القدماء كانوا يؤمنون بأن العلوم التى كانت عندهم فى ذاك الوقت «لم تكن توجد عند سواهم قط ولا يمكن أن توجد أبدا ومخافة من حدوث طوفان على وجه الأرض مرة ثانية حصنوا هذه الأبنية وشيدوها على هذه الهيئة ليجعلوها خزانة علومهم فلا تفقد إذا حدث طوفان ثان وهذا هو السبب فى بنائها».

وليس من شك أن سليم تقلا قد أخذ الفكرة عن المؤرخ العربى عبد اللطيف البغدادى (المولود عام ١١٧٩م) والذى وضع كتابا عن مصر تحت عنوان «الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» جاء فصله الرابع تحت عنوان «فى اختصاص ما شوهد من آثارها القديمة» بالحرف الواحد:

«وعلى تلك الحجارات كتابات بالقلم القديم المجهول الذى لم أجد بديار مصر من يزعم انه سمع بمن يعرفه وهذه الكتابات كثيرة جدا حتى لو نقل ما على الهرمين فقط الى صحف لكانت زهاء عشرة آلاف صحيفة».

★★★

يبقى بعد ذلك (المنهج) الذى اعتمده الأهرام فى الكتابة عن موضوع لمعلوماته هذا الطابع الاحتمالى.

فرغم ما حفلت بها المقالات من معلومات غير يقينية، ورغم التوجهات المصرية

لكاتبه الشامى (!)، فانه قد اعتمد منهجا يليق بالتعامل مع تلك المعلومات التى لم تكن صحتها قد ثبتت بعد.

أولى مفردات هذا المنهج ما أشار اليه كاتب المقال من انه اعتمد فى المعلومات التى وردت فيه على «النقل عن المؤرخين المتأخرين الذين أضافوا الى بحثهم الخصوصى بحث من تقدمهم».

المفردة الثانية تفسر الأسباب التى دعت كاتب المقالات الى الاقتصار على اهرامات الجيزة الأربعة، وليس الثلاثة، رغم ما تمتلىء به مصر من اهرامات أخرى، وقال فى ذلك «اننا قد ضربنا صفحا عن تاريخ الأهرام الباقية اكتفاء بالأربعة المذكورة لأنها أشهر من غيرها».

غير أن أهم مفردات هذا المنهج ما اتصل بأسباب بناء الأهرام التى كانت حتى صدور تلك المقالات محل جدل شديد فيما يبدو، وقد ساق فى هذا الصدد مجموعة من الأسباب..

ونرى انه قد انحاز لبعض هذه الأسباب لاعتبارات موضوعية وانحاز لبعضها الآخر لاعتبارات مصرية، أما التى افتقرت لهذين الاعتبارين فقد استبعدها!

الاختيارات التى انحاز لها لأسباب موضوعية ان الاهرامات قد بنيت كمدافن للملوك «تدل على عظمتهم وقدرتهم وتخلد ذكرهم»، وقد ساق لتأكيد هذه الحقيقة عددا من الأدلة: رغبة المصريين فى الخلودمن عنايتهم بالتحنيط، كثرة الأهرامات الصغيرة التى وجدت فيها توابيت للعديد من ملوك وعظماء المصريين، وان العبرانيين عندما قلدوا المصريين فى مدافنهم فقد بنوها على شكل هرمى.

انحاز سليم تقلا أيضا الى احتمال ان تكون الأهوامات قد بنيت كمعابد للمصريين، ورغم ما أعوز هذا الاحتمال من دقة، الا ان الحفائر التالية قد أكدت هذا الطابع الدينى للأهرامات من خلال المعابد الجنائزية التى ألحقت بها.

الاختيارات التى انحاز الأهرام لها لأسباب مصرية كان أهمها ما سبقت الاشارة اليه من أن المصريين «أرادوا أن يكون لهم بناء عظيم يوافق عظمة علومهم فيكون خباء لها وكنزا محفوظا من صروف الزمن»!

بقية الاعتبارات رفضها الأهرام..

فقد رفض القول بأن الأهرام قد بنى ليكون خزينة للغلال إذا حدث قحط، كتب: «نحن لا نصدق بذلك لأن هذه الأبنية نفسها تبرهن على سمو أفكارهم وكان من الواجب أن يعملوا أبنية غير هذه لاتحتاج الى أتعاب ومصاريف وتكون أيضا بغير هذا النمط».

رفض أيضا القول بأنها بنيت لرصد الأفلاك «وهو ما يصعب القبول به لأن الرصد لا

يتطلب كل هذا البناء».

باختصار فانه رغم انحياز كاتب المقالات لبعض الاعتبارات فانه لم يسقط من مقالاته ما لم يوافق عليه، بالعكس فقد أتى به ثم عمل على تفنيده.

ونرى ان هذا المنهج الذى اعتمده «الأهرام» فى أولى دراساته انما حاول أن يلائم بين حقيقتين.. التناول بدرجة معقولة من العقلانية دون شطط يصل الى حد الجفاف الذى يلائم الدراسات العلمية لكنه يقينا لا يلائم قارىء الصحيفة السيارة، وعدم التغاضى عن مشاعر الانتماء التى تمسك بتلابيب هذا القارىء، خاصة إذا كان مصريا من أبناء ذلك الجيل الذين لابد وأن يكون قد أسعدهم غاية السعادة ما أخذ العالم يكتشفه من حضارة بلادهم التليدة، ونعتقد أن المنهج المذكور استمر أحد التقاليد المعمول بها فى الأهرام، ربما حتى يومنا هذا!

- مراجع الفصل الخامس
- اعداد الاهرام

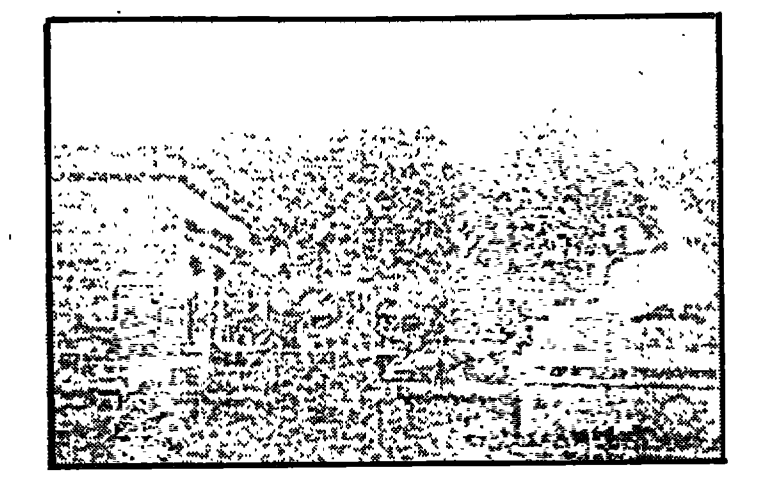
العدد	التاريخ
١	١٨٧٦/٨/٥
٢	١٨٧٦/٨/١٢
٣	١٨٧٦/٨/١٩
٤	١٨٧٦/٨/٢٦
٥	١٨٧٦/٩/٢

- احمد فخرى. الاهرامات الثلاثة، القاهرة ١٩٨٢
- عبدالرحمن الرافعى: عصر اسماعيل (جزء ثان) القاهرة ١٩٤٨

  عصر محمد على، القاهرة ١٩٤٧
- عبداللطيف البغدادى فى مصر القاهرة

شارع الهرم عند انشائه

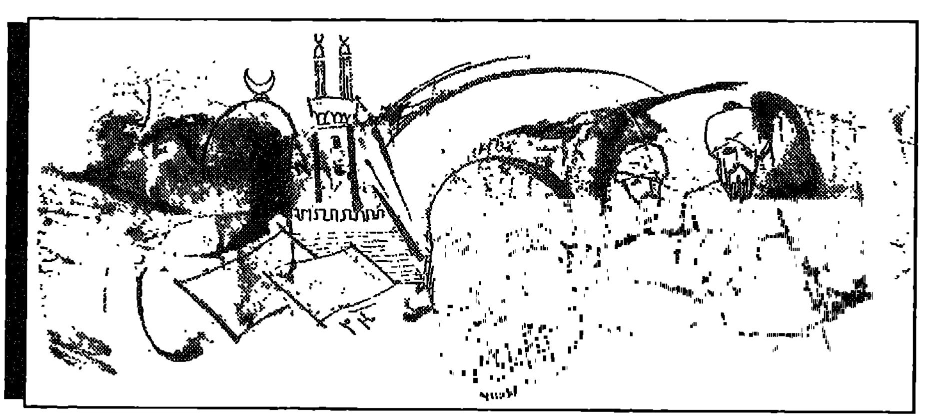
منطقة الاهرامات فى القرن الماضى



مبنى متحف بولاق، وهو اول متحف فى مصر وكان يضم جميع الآثار المكتشفة منذ عام ١٨٦٣ الى عام ١٨٩٧

الفصل السادس

«[illegible] الأزهر»
الذى أسس نهضة الوطن



- ■ تنوير البصيرة وتطهير السريرة وتحريك حمية الغيرة!
- ■ التمدن يعود الى مصر بعد رحلة الى الغرب
- ■ الدعوة الى نبذ جميع التعصبات الدينية والاختلافات المذهبية
- ■ الدماء المصرية تضخ فى عروق الاهرام
- ■ الدعوة الى ان يقف كل من بنى النوع على أفكار الآخر التى كابد عليها وثابر



العدد الأول من الأهرام توجه محرره بالدعوة إلى أصحاب «الأقلام البليغة أن يزينوا من وقت إلى آخر جريدتنا بما يسطرونه من بديع الكتابة والحكم والفوائد التى يلتذ باجتنائها كل ذى ذوق سليم»!

ولم يمض وقت طويل حتى بدأت صفحة الرأى تفرض نفسها على الجريدة الوليدة التى كان مكانها المختار فى إحدى الصفحتين الثالثة أوالرابعة أو كليهما، فى وقت لم يكن عدد صفحات الأهرام يتجاوز الأربع.

ومن بين الأعداد الأربعين الأولى إحتل «العالم العلامة والأديب الفهامة الشيخ محمد عبده أحد المجاورين بالأزهر»،كما وصفته الجريدة، مكان الصدارة فى الصحيفة، فقد كتب فى إثنى عشر عدداً من الأعداد الأربعين، ولم يكن هذا المجاور سوى الأستاذ الامام الذى لعب دورا مؤثرا فى التاريخ المصرى بعدئذ.

وبينما كانت كتابات «مجاور الأزهر» علامة بارزة بالنسبة للأهرام، خاصة صفحة الرأى فيه، فانها كانت الباب الذى دخل منه محمد عبده لعالم الصحافة الذى اكتسب فيه مكانة رفيعة، فقد إنتقل بعد سنوات قليلة الى مجلة «الوقائع المصرية» ليحررها ثم يرأس تحريرها فى مطلع الثمانينات، تبع ذلك وبعد نفيه فى أعقاب الثورة العرابية أن أصدر من باريس، هو وأستاذه السيد جمال الدين الأفغانى، مجلة «العروة الوثقى» التى اكتسبت صيتا عريضا.

باختصار فقد كان الأستاذ الامام أول من دخل الديوان وتربع فيه قبل أن يصبح أستاذا أو إماما، وان كان على وشك (!)

كان عمر محمد عبده حين بدأ فى الكتابة فى الأهرام لايتجاوز السابعة والعشرين (١٨٤٩ - ١٨٧٦)، وكان على وشك الحصول على العالمية التى نالها بالفعل فى العام التالى (١٨٧٧)، غير أن الأهم من ذلك أنه كان قد إنخرط قبل ذلك فى الحياة العامة من خلال انضمامه الى المجموعة التى تحلقت حول السيد جمال الدين الأفغانى بعد أقل من عام من وصول السيد الى مصر (١٨٧٢)، أى قبل أربع سنوات من كتابته فى الأهرام.

معنى ذلك أن محمد عبده قد جاور بالثلاثة (!)، الأزهر بوجوده، ومقر السيد جمال الدين بعقله، وديوان العالم الحديث، أى الأهرام، بقلمه. وبينما تكثر المعلومات عن مجاورته للجامعة الاسلامية العتيدة، أو للمفكر السياسى البارز، فان المعلوم عن مجاورته «لديوان الحياة المعاصرة» قليل رغم أهميته!

★★★

تصدر هذه الأهمية، فيما نراه، عن أن المقالات الأربع التى كتبها الشيخ محمدعبده فى الأهرام، بين العدد الخامس والعدد الأربعين كانت ذات دلالات بالغة الأهمية بالنسبة للطرفين، الأهرام والكاتب..

بالنسبة للأهرام لم يجد القائمون عليه ما يمنع من أن يحتل مجرد «مجاور بالأزهر» يراسل الصحيفة من القاهرة.. من أن يحتل كل هذه المكانة فى الجريدة الوليدة، وقد رأى هؤلاء منذ المقال الثانى للرجل أنه أكبر كثيرا من أن يوصف «بالمجاور» لما تعنيه من أنه لازال فى مرحلة «التلمذة»، وأخذت تصفه بعد ذلك «بأحد أهل العلم بالجامع الأزهر»، كما فتأت تسبغ عليه الألقاب المناسبة، العالم العلامة، الأديب الأريب، وما إلى ذلك.

لم ير هؤلاء ايضا بأسا من أن ينشروا مقالات محمد عبده مهما بلغ طولها حتى أن أحد هذه المقالات تم نشره على ستة أعداد، بين العدد الثانى والعشرين الصادر فى ٣٠ ديسمبر عام ١٨٧٦ والعدد السابع والعشرين الصادر فى ٣ فبراير من العام التالى، وهو مالم يحظ به أى كاتب من أولئك الذين شاركوا فى صفحة الرأى خلال تلك الفترة.

وإذا كان ذلك يدل على شئ فإنما يدل على التقدير البالغ من جانب الاخوان تقلا لما كان يكتبه الشيخ محمد عبده، وهم هنا كانوا يتعاملون مع الموضوع قبل أن يتعاملوا مع الشخص فلم يكن الشيخ قد اكتسب بعد كل تلك المكانة التى أصبحت له بعد ذلك.

فضلا عن ذلك فإنه كان يعبر عن رغبة واضحة من جانب الديوان بأن يكون القاعدون فيه أساسا من المصريين، حيث أن طبيعة الأمور كانت تؤدى الى غير ذلك.

فالمجتمع الذى خرج منه أصحاب الأهرام من الشوام، وفيما نتصور فإن أغلب المشتركين الأوائل فيه كانوا أيضا من الشوام، الأمر الذى يرجحه أن كل وكلائه فى سائر انحاء القطر المصرى كانوا منهم، فضلا عن ذلك فإنه كان لدى هؤلاء جمهرة من حملة الأقلام المقيمين بالاسكندرية والمستعدين دائما لتغذية صفحة الرأى، فيما بدا فعلا فى عدد من المقالات التى وردت فيها.. كل ذلك كان يؤدى بالطبيعة الى أن يحتكر الشوام الصفحة، وهو فيما يبدو مالم يرق لأصحاب الأهرام الذين أدركوا منذ ذلك الوقت المبكر أن صحيفتهم لن تعيش دون أن تضخ فى عروقها الدماء المصرية، ومن هنا جاء إعطاء كل هذه المساحة «لمجاور الأزهر» الذى أصبح بعد قليل «أحد أهل العلم»!

أما الأهمية بالنسبة للطرف الثانى، الشيخ محمد عبده، فتصدر من ان الأهرام قد أفسح له كل هذه المساحة التى أعطته الفرصة لأن يقدم لونا جديدا من الأفكار لم يكن معهودا من المصريين أن يعتنقوه ناهيك عن أن يعبروا عنه...

صحيح أن يعقوب صنوع وجريدته «أبونظارة»، وصحيح أن أديب اسحق وصحيفته «التجارة» قد خاضا فى أمور من تلك التى خاض فيها الشيخ من مجلسه فى الديوان، ولكنهما كانا فى نهاية الأمر من غير المصريين، فضلا عن أنهما وسواهما كانوا من غير المشايخ الذين كان يفترض فيهم دائما أنهم من أصحاب الاتجاه المحافظ.

ونرى أن مجمل الأفكار التى عبر عنها الشيخ محمدعبده فى مقالاته التى نشرت فى الأعداد الأولى هى التى لفتت الأنظار للرجل ووضعت الأساس لشهرته العريضة التى نالها بعد ذلك، الأمر الذى يتطلب إعادة قراءة هذه المقالات وبعد مايقرب من قرن وربع من الزمان!

★★★

ربما يكون المقال الأول من المقالات الأربعة التى كتبها محمد عبده أكثر المقالات شهرة، مع أنه أصغرها، فقد نشر على عدد واحد، وهو ما لم يحدث لأى مقال آخر..

مصدر هذه الشهرة أنه قد أتيح لهذا المقال فرصة إعادة النشر فى «مركز الأهرام للترجمة والنشر» عام ١٩٨٦، والذى وضع هذا المقال فى صدر المقالات التى تضمنها، والتى اعطاها عنوانا من عندياته: «الأهرام.. جريدة مؤسسة على أحكم قواعد الأحكام» لأنه كان فى أصله من غير عنوان!

غير أنه فى تقديرنا أن المقال الثالث الذى حظى بمساحة واسعة من الجريدة، ستة أعداد كما سبقت الإشارة، هو أهمها، وهو مقال غير معنون شأن مقالات الصحف فى ذلك العصر، وإن كان الأستاذ أحمد أمين فى كتابه المعروف «زعماء الاصلاح» قد أعطاه عنوانا من عندياته وكان «المدبر الانسانى والمدبر العقلى الروحانى».

ونرى أن هذا المقال يمثل العمودالفقرى ليس فحسب بالنسبة لسلسلة المقالات التى أسس من خلالها الشيخ محمد عبده صفحة الرأى فى الأهرام وإنما فى وضع القسمات الأساسية لطريقة تفكير المصلح الكبير والتى لم يحد عنها كثيرا مابقى من حياة، وكانت قصيرة إلا أنها كانت عريضة (توفى محمد عبده عام ١٩٠٥ ولم يكن قد أكمل السادسة والخمسين)

أخطر القضاياالتى طرحها «مجاور الأزهر» النجيب كانت قضية العلوم النقلية والعلوم العقلية التى كانت محرما حتى ذلك الوقت دراستها فى الجامعة الاسلامية العتيدة، ويروى الشاب صاحب المقالات قصة فى هذا الشأن واضح أنها قصته شخصيا، قال:

«من عجب ما رأيناه فى هذه الأيام أن بعض طلبة العلم الكرام قد تحركت الى المعالى همته فأخذ فى دراسة بعض الكتب المنطقية والكلامية التى كان قد صنفها بعض أفاضل الملة الاسلامية لما انه قد علم كما هو الواقع أن العلوم المنطقية قد وضعت لتقويم البراهين وتمييز الأفكار غثها من السمين..

فلما سمع بذلك بعض أصفيائه وأقربائه الذين يؤثرون خيره ولايرتضون ضرره اهتز لذلك وأخذه من الحزن على ذلك الطالب ماشاء أن يأخذه ثم أنه أوسع لذلك الطالب النصيحة ويالها من فضيحة قائلا كيف تدرس الضلالات حتى تقع فى الشبهات ألا فارتدع وبجهالتك إقتنع وكن كما كان الأب والجد وجّد فيما كانوا عليه فمن جد

وجد»!

ويسترسل الشيخ محمد عبده فى القصة، وبنفس الاسلوب الساخر، فيروى كيف أن أباه قد هرع اليه لما علم من قريبه بما أقدم عليه وأنه أخذ «يندد ولده بالويل والثبور ان كان لتلك الأقاويل صحة فأجابه الطالب ان ذلك من كذب الناقلين وبغى الحاسدين وانني من يوم سعيت فى منعى وقطع نفعى لم تقر عينى بنظرة فى رياض تلك العلوم ولم أشف قلبى بأخذ منطوق منها ولا مفهوم»!

وبعد هذه القصة الطويلة المليئة بأسباب السخرية المريرة يتساءل الشيخ الصغير انه اذا كان هذا هو الحال بالنسبة لعلوم ظلت تدرس فى المعاهد الاسلامية لأكثر من ألف سنة فما هو الوضع عند الاقدام على تدريس علوم «جديدة مفيدة هى من لوازم حياتنا فى هذه الأزمان وكافة (بمعنى تكف) عنا أيدى العدوان والهوان»!

ويسفر الشيخ محمد عبده فى موقع آخر من المقال عن كونه من أول دعاة الحركة العقلانية Rationalism فى مصر التى كانت قد استوت تماما فى أوروبا خلال القرن السابق، القرن الثامن عشر.

وللحركة العقلانية مجموعة من السمات المعروفة: عدم الاستسلام لأفكار الأقدمين دون وضعها موضع النقد وما يتبع ذلك من غلبة الفكر السببى على الفكر القائم على القبول بأفكار السلف مهما كان كنهها، تحكيم العقل، باعتباره أعظم هبة للانسان، دون الجرى وراء الغيب، وأخيرا علوم الطبيعة قبل «علوم ما وراء الطبيعة - الميتا فيزيقا» وهو ما عبر عنه محمد عبده بالضبط فى هذا المقال الطويل.

وإذا كان صاحب المقال قد رفض فى الجانب الذى أشرنا اليه الأخذ بالعلوم النقلية على حساب العلوم العقلية وسخر من تقييد ما يتلقاه طالب العلم فيما ورثه عن آبائه وأجداده، فأنه كان بذلك داعية للجانب الأول من جوانب الحركة العقلانية.

الجانب الثانى الخاص بالترويج لعلوم الطبيعة على حساب علوم ما وراء الطبيعة خصص له «مجاور الأزهر» قسما مستقلا.

ويثير الاهتمام فى هذا القسم انه قد اختار نفس نقطة البداية للاهتمام بتلك العلوم التى استهل بها الأوربيون حركتهم العقلانية، التطلع الى السماء ورصد النجوم وحركتها واستخراج أسرار الطبيعة ونظامها البديع الذى كان زادا لا ينقطع لعلماء الرياضيات والفيزياء، باختصار كان الفلك هو الباب الذى دخلت منه أوربا الى عالم الطبيعة وهو ما نبه اليه شيخنا بقوله «ان المقصد الأعلى للعقل هو استشكاف أسرار الوجود وذلك مقام لا يعلو كعبه»!

ويدلف من هذا الى الحديث عن أن «العقل» لو لم يستعمل حس البصر «هل كان يتمكن من استقبال وقد الضيا واستطلاع سكان الفضا حتى يحدد دائرة ارانوس ويهاجم العقرب بالقوس ويجمع بين الأسد والثور على الجوار بلا تعد ولا جور..»!

يتحدث بعد ذلك عن الفوائد الكبيرة من معرفة «تراكيب الحيوانات علي اختلافها وتناسب أعضائها وائتلافها» وينتهى من كل ذلك الى التنبيه على أهمية التواصل العلمى مع العالم المتقدم فيطالب بأن « يقف كل من بنى النوع على أفكار الآخر التى قد كابد عليها وثابر فتكون ميدانا تجول فيه فكرته ومحجة تمتطيها حجته فتكثر بذلك العلوم ويتسع مجال الفهوم»!

ويبدو ان الاقتراب من هذه القضية.. قضية الأخذ من العلوم الحديثة من الغرب كان يتطلب من محمد عبده اقناعا لمجتمع جبل على كراهية هذا الغرب، الأمر الذى أفرد له شيخنا الشاب مقالا بأكمله!

★★★

الأطروحة التى قدمها محمد عبده فى هذا المقال الصادر فى الأهرام يوم ٢ سبتمبر عام ١٨٧٦ تقوم على ثلاث ركائز..

الركيزة الأولى تقوم على أساس ان «التمدن البشرى» أول ما بزغ فقد ظهر فى مصر، وقال فى هذا الشأن: «ان مملكة مصر كانت فى سالف الزمان مملكة من أشهر الممالك وكعبة يؤمها كل سالك وناسك. اذ كانت قد اختصت بتربية العلوم وبث المعارف المتعلقة بالخصوص والعموم وانفردت بالبراعة فى الصنائع والابتكار فى انواع البدائع. فكان أبناء العالم اذ ذاك يتندون نداها ويستجدون جداها ويستمطرون من الغيث قطرا فكان التمدن فيها نهرا حين كان عند غيرها طفلا»!

وليس من شك ان هذه الركيزة قد وجدت أساسا قويا مما حدث خلال السنوات السابقة من تقدم ملحوظ فى علم المصريات كشف عن لون من المدنية أصبح مصدرا لفخر المصريين المحدثين، ومنهم محمد عبده بالطبع!

الركيزة الثانية تدور حول فكرة انتقال هذا «التمدن» الى الغرب حيث «عم انتشاره وبدت آثاره وتلألأت أنواره وقضى مدة السياحة وباء بغاية الراحة».

ونصل الى الركيزة الثالثة التى ارتأى معها ان التمدن البشرى الذى صنعته مصر عاد اليها بعد أن قضى مدة غربته، أو فيما قال:

« استدار الزمان كهيئته ورجع الأمر الى بدايته وأقل التمدن الى مسقط رأسه ومقر تربيته . فورد ديار مصر ورود الأهلى وتمكن بها تمكن الأصلى فاستقبلته الديار بغاية المسرة»!

باختصار لقد طرح محمد عبده فيما كتبه هنا مقولة مؤداها: «هذه بضاعتنا ردت الينا» وقد اعتقد انه بذلك يهيىء المصريين الى القبول بتلك العلوم الحديثة.

★★★

يثير التأمل فى مجموع تلك المقالات ان هذا الطالب الأزهرى الذى أسس صفحة

الرأى في الأهرام قبل ١١٧ سنة قد توصل الى حقيقة لازال كثيرون عاجزين عن التوصل اليها.. حقيقة التمييز بين الحضارة الغربية باعتبارها حضارة انسانية وانطلاقا من كونها «بضاعتنا ردت الينا» وبين الاستعمار الغربى الذى أفرد الشيخ جانبا من مقاله للتنبيه الى خطورته والدعوة الى مقاومته.

قال فى هذا الصدد أنه: «لما جمعت الشوكة أسبابها وتوجهت نحو المغرب وتركت الشرقيين بحمى يثرب قويت من الغربيين المهاجنة وبطلت من الشرقيين آثار المقاومة فبات عدو بلا معادى ومبارز تصده الدواعى والغوادى»!

وقد ارتأى أن ما أوصل الشرقيين الى هذا الحد «تفرق الآراء واختلاف الأهواء» الأمر الذى دعاه الى المطالبة بنبذ «جميع التعصبات الدينية والاختلافات المذهبية لحماية أوطانهم ووقايتها من وطأة اعدائهم الذين لا يرومون من الاستيلاء علينا معاشر الشرقيين الا توسعة ممالكهم والتمكن من استعبادنا بالدخول تحت حوذتهم».

ولعلنا نلاحظ من هذا المقال الصادر فى الأهرام يوم ٣ فبراير عام ١٨٧٧ ان الطالب النابه كان كأنما يتنبأ بما سوف يصيب مصر بعد أقل من ست سنوات، الاحتلال البريطانى فى سبتمبر ١٨٨٢، فضلا عن انه سبق الجميع فى التنبيه على قيمة «الوحدة الوطنية» على أمن مصر. وهو ما لا يدركه البعض، ربما حتى يومنا هذا!

أخيرا فقد كان محمد عبده واعيا للهدف من مقالاته، وهو هدف استمر يتوخى الوصول اليه فى كتاباته بعد ذلك، فى الوقائع المصرية وفى العروة الوثقى.

يقول الرجل فى أحد هذه المقالات ان هدفه منها هو بث الأفكار بين الناس لتكون سببا «لتنوير البصيرة وتطهير السريرة وتحرك فيهم حمية الغيرة»!

وبلغة العصر فقد كان وراء الرجل فكرة بناء الرأى العام المصرى وتنويره، وقد رأى ان سبيله لذلك هو الصحافة، واختار من بين الجرائد الوليدة «الأهرام» وكانت لديه أسبابه فى هذا الاختيار.. الذى عبر عنه فى مقاله الأول المنشور فى العدد الخامس من الصحيفة وجاء فيه أن جريدة الأهرام «مؤسسة على أحكام قواعد الأحكام الكافلة بارشاد المسترشدين بما فيها من المبانى الرقيقة والمعانى الدقيقة والأفكار العالية المؤيدة بالبراهين الشافية القائمة بنشر العلوم بين العموم».

وليس أفضل من تلك العبارة توضيحا لما ابتغاه الرجل من الاهرام وتأكيدا علي الرسالة التى قررت الجريدة أن تحملها منذ أعدادها فى «صفحة الرأى».. رسالة «تنوير البصيرة وتطهير السريرة»!

- مراجع الفصل السادس .

اعداد الاهرام:

العدد	التاريخ
٥	١٨٧٦/٩/٢
٨	١٨٧٦/٩/٢٢
١٠	١٨٧٦/١٠/٧
٢٢	١٨٧٦/١٢/٣٠
٢٣	١٨٧٧ /١ /٦
٢٤	١٨٧٧/١/١٣
٢٥	١٨٧٧/١/٢٠
٢٦	١٨٧٧/١/٢٧
٢٧	١٨٧٧/٢/٣
٢٨	١٨٧٧/٤/٢١
٢٩	١٨٧٧٤/٢٨
٤٠	١٨٧٧/٥/٥

- عثمان امين: محمد عبده القاهرة ١٩٤٤
- د. سامى عزيز: الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الانجليزى، القاهرة ١٩٦٨

وردت الينا هذه الرسالة من قلم العالم العلامة
الاديب الشيخ محمد عبد الواحد المجاورين
بالازهر وموضوعها

في ان فن القلم والكتابة من اللوازم الضرورية التي
ليس للعالم عنها مندوحة في تعيشهم الحقيقي

ان مما اسطت به ايدي الضرورات واقتضته مقدمات الحاجات انشاء لسان القلم نائبا عن المتكلم فيما يتكلم وذلك انه لما اقتضى النظام الالهي ان يخلق الانسان محتاجا في ان يقوم مدة مقامه مع حد ما من الراحة الى ان يتخذ ما خلق الله له في الارض ما لم يكن حاصلا

وان يكون [illegible] ما لم [illegible] [illegible] صلبه [illegible] القوة [illegible] والطاقة [illegible] [illegible] ما يحتاجون الى اتخاذه من المطعم والمشرب والملبس [illegible] فقادتهم الفكرة الى اتخاذ الصنائع [illegible] الى [illegible] استدعاء المقامات ومقتضياتها ومعارضهم ذلك [illegible] الاجتماع [illegible] لنا الان [illegible] [illegible] ان يقوم كل شخص بعمل من الاعمال والارادة [illegible] الآت القدرة فليس في قدرة كل احد ان يكون محترفا مبتكرا لما يحتاج اليه ارباب الاعمال في اعمالهم من اللوازم الضرورية او الاديات الشهيانية او لا [illegible] ويكون صلاح ذات بينهم في المعاملات وفصل الامر بينهم حتى الخصومات على ما يقتضيه انتظام الاجتماع الانساني [illegible] لنا الان [illegible] ايضا بل ذلك انما يقوم به ارباب الفكرة الوقادة والالسنة النقادة ومن البين ان مجرد صفا الجوهر لا يكفي في ترتب الاثر عليه بل لا بد في ذلك من انماؤه وتربيته واعداده لذلك الامر العظيم وتخليته عن جميع الاشغال سواه فان القوة الواحدة لا تكفي في الارادة لامور متعددة فاحتيج اذن الى اتخاذ ارباب التعاليم ليقوموا لهم بالعلم والارشاد الى طريق العمل ويقوم ارباب الاعمال باخراج ذلك من القوة الى الفعل فقام كل واحد واختص كل من صاحبه وكان نسبة ارباب التعاليم الى اولياء الاعمال نسبة الاب الشفيق والحاني الرفيق ليس لهم فكر الا في ترقيتهم ولا نظر الا فيما يكون سببا لاستعارهم [illegible] لراحتهم واذ رأوا ذلك منهم تحققوا ما قرر [illegible] [illegible] خالوا [illegible] بينكم بكل [illegible] فاشتغلت [illegible] الافكار وازدحمت [illegible] واتسعت دائرة المعرفة وكثرت ابيات [illegible] مكثفة [illegible] عليهم حفظ ما [illegible] وعظم عليهم ان يودوا [illegible] كثرة المقدمات وتشتت الجزئيات وصعوبة ما [illegible] [illegible] لا يمكنهم حفظ

الكثير فضلا عن الواحد فاحتاجوا ايضا الى اتخاذ ما يحفظ افكارهم حيث يرجعون اليه عند النسيان ويذكرهم لدى النسيان مضطروا يتخذون صورا من الاحجار [illegible] الاحجار تحكي بالمناسبة ما يريدون ويدلهم على ما يقولون [illegible] اشارة للعارفين ومحاجا على اعين الجاهلين وكان ذلك كذلك [illegible] من الزمان ثم لما [illegible] [illegible] العرفان وانتشرت [illegible] [illegible] الارض بالعلوم وسيرت [illegible] [illegible] بالصور [illegible] الامر على [illegible] [illegible] الى حفظ ذلك بالارقام البلدية [illegible] عن الحروف [illegible] في الرسم [illegible] العبرانية بدون ادنى [illegible] كما لا يحصل الا [illegible] من الالفاظ [illegible] القلم لسانا آخر لا يحكم الا ان ما نطق به اللسان الحقيقي عرض سيال وما نطق به القلم جوهر لا يزال [illegible] [illegible] ان يرجع اليه [illegible] من اهل لسانه ان يعول عليه [illegible] عليهم بذلك حفظ [illegible] افكارهم وفرغوا من شغل عظيم ووضع عنهم وزر [illegible] عن كثير من العالم وكان من ذلك ان حفظ نزول النازل من جيل الى جيل على نحو ما نال من اجمال وتفصيل فكان بذلك افكار الازمنة المتتالية مجتمعة في نقطة واحدة وكذلك افكار اهل زمان واحد على

ما [illegible] [illegible] بدون اشتباه [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في الا [illegible] الاستعمار [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] بالناظر الناقد بمنزلة رئيس تلك [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

(البقية الآتي)

(تابع رسالة العالم العلامة الاديب الشيخ محمد عبده)

في الحكم الذي عليه المعول ولولاه لم تحد حدود ولم توثق عهود ولم [illegible] الحق حقه بل تسع المجال للمعطل وتمهد السبيل للشر ومن رجوع الانسان في

[illegible] الثقيل [illegible] مع [illegible] من
[illegible] الى [illegible]
[illegible] المرسل [illegible]
[illegible] هل [illegible] المرسل وما [illegible]
[illegible] الغريب
[illegible] او [illegible]
[illegible] ومع ذلك كان حاذف المرام
[illegible] كلام المرسل [illegible]
[illegible] هذه [illegible] الرجل [illegible]
الى استعمال رقم القلم وتركوا الامر الى [illegible] ويتكلم بكل بيان [illegible]
من [illegible] من [illegible] ومن [illegible]
[illegible] من [illegible] القول كما سمع وحكى الصحيح كما صح واتى
على المراد من [illegible] او [illegible] بل ربما كان ارعى للنائي من القائل
واحفظ للامانة من المالك الحامل فهو حينئذ حقيقة اللسان وغيره
مجاز عنه في البيان وكم من معاشر تنفر النفوس من عناه ان [illegible] اعتب
في [illegible] ان رقم اتى بالرقيق وبادى بالكيس [illegible]
الشفيق بالمشاق ورفع الصفا ووسع الوفاق فهو ان تكلم كلم وان رقم
[illegible] لا يستطيع [illegible] لا يعد المشاهد
[illegible] مرام [illegible] القلم انطق بالحكم [illegible]
وان [illegible] وان لم ينطق بلسانه قد نطق ببراعته وبيانه فلم
[illegible] البيان وان [illegible] عصمة اللسان وكم من خطيب مجيب
[illegible] ان تكلم اتى باطلق واعلى وان كتب اعجب ورغب
وارهب وقرب وابعد وجمع وافرد [illegible] الانفس وعقد روابط
الالفة [illegible] ومن اجل اثار القلم اذ يعد
من اعظم [illegible] ومن اللوازم [illegible] الجرائد والجرنالات التي هي اصل
[illegible] لرقي المال واحكام امور الدول اما الاول فلانها تواطب
المال على حث اتصالها الموجبة لتآلفها وتوضح لهم اسباب الترقي وما
[illegible] يكون الوقت [illegible] بينهم اخبار غيرهم من سلامهم وحربهم وما هو
كانت عليه ملة ودولة اخرى وان اي الامور لهم بالتمسك احرى
[illegible] ان ارتكب وتعلم لهم امر الجهل ان [illegible]
[illegible] العادات التي [illegible] والتكاسل عن الصناعة

[illegible] التردي [illegible] الاكثر [illegible] التمسك بالخرافات
و[illegible] الاعتقادات وجمع كلمة الناس وشق عصى الوفاق وغير ذلك
من قبائح الافعال ورذائل الاخلاق وتقدم لديهم مصالح الفضائل
كتنشيط [illegible] الافكار والتنبيه على ما في العالم من دقائق الاسرار
والحث على الاشتغال بالصنائع والاهتمام في ترقي البدائع وطلب
المعيشة الراضية مع اليد العليا والهمة العالية والنظر في اراء الاوائل
[illegible] التمسك بما قطع به البرهان في باب العقائد كيلا يفوت
كثير من الكمالات ويفقد عظيم من اللذات وتبث فيهم افكارا
تكون سببا لنور البصيرة وتطهير السريرة وتحرك فيهم حمية الغيرة
[illegible] بذلك من [illegible] ويستنبطون من [illegible] ويلتفتون الى
مصالحهم [illegible] عن [illegible] يطلبون الخير ويتجنبون الضير ويرتفع
من بينهم الجور ويوضع العدل وتطلع فيهم شمس المعارف [illegible]

[illegible] لا [illegible] ويستدلون
[illegible] او [illegible]
واما الثاني [illegible] الآن بل في
[illegible] واما [illegible] اصحابها [illegible]
[illegible] وما في [illegible] من الاختلال
وما [illegible] الاصلاح وحفظ الارواح
[illegible] السلاطين من عدل [illegible]
[illegible] الى ما [illegible] عليه وما
[illegible] امرهم ان [illegible] وتغير [illegible]
ذلك ينتبه الغافلون ويحترس المستبصرون ويقوم الضعف [illegible]
ويطلبون التحاق [illegible] والتلافي ويرجع [illegible]
[illegible] ويرتدع الظالمون و[illegible] وذلك
كما مع [illegible] الاقطار وتباعد الامصار القول الواحد يبلغ الجميع
في قليل زمان وكأنما القائل والسامع في مكان فيعضد البعض بالبعض
في الخروج من الذلة [illegible] صاحب [illegible]
[illegible] على [illegible] العالم [illegible]
[illegible] وجهة [illegible] واحرى [illegible]
من الواجب على كل ذي دراية ان يكون له [illegible]
ليكون على [illegible] من شر
متحركا نحو المعالي طالبا ما [illegible] على [illegible]
الحقائق ورقائق الدقائق ويخرج الى [illegible] المعرفة [illegible] من عل
الجهالة [illegible] ان هذا الا [illegible] العلم [illegible] ميدان تربية
الامم ولا [illegible] من بلاد [illegible] من بلاد [illegible]
وفارس اذ [illegible] بالموعظة الحسنة
ويحذرهم [illegible] العالم [illegible]
وليس الحكمة ان [illegible]
ادنى [illegible] وحكم الذي
الحاكات حتى [illegible] الاعتبارات [illegible] وموارد [illegible]
[illegible] ما لم يعلم

ان الاطبر [illegible] الآثار [illegible] اسباب المعاها [illegible] الخاص
[illegible] وانلزاما في الغايات الوضعية [illegible] الانسان [illegible]
تشتمل على مدبرين عظيمين احدهما المدبر الحيواني مع ما [illegible]
من جميع الاحساسات الظاهرة والباطنة والآخر هو المدبر الثاني
الروحاني الكلي ولكل واحد منهما اذا الوسط وحدة [illegible] عن
صاحبه غاية يطلبها وحدود في سيره لا يجاوزها فالمدبر الحيواني ليس
له من غاية سوى حفظ تركيب الحيوان الى حد معلوم والى [illegible]
مخصوص فهو مرتبط باللوازم الكاملة لهذا الغرض من جلب ما [illegible]
[illegible] ودفع ما فيه مضرة او ما عنه [illegible] على قدر الامكان حتى [illegible]
هذا المزاج [illegible] ذلك [illegible] وحال سائر الحيوانات
[illegible] يرشدك الى ذلك التامل في [illegible] البدنية وآثارها [illegible]
[illegible] واما من الحيوانات لم يكن [illegible] ارادته الا سوى ما [illegible] او
دفع ما يعترى عليه ما يوجبه [illegible] لم تكن [illegible] الا لطلب [illegible]
او للهرب من قاصد بالم او للاستئناس [illegible] او لدفع [illegible]
[illegible] من نوع [illegible] لا شعور له بهذا الاثر [illegible]
[illegible] ما كان يبالا بالتاخير ولا سكت الا للاستراحة من [illegible]
[illegible] حيث اعيا الطلب ولا غرك [illegible] ما ذكرنا [illegible] اي
حال [illegible] نظره [illegible] امره في [illegible] تا في [illegible]
سوى [illegible] الطبيعة [illegible] تركيب العالم العنصري [illegible]
[illegible] واستكمال الآثار البسيطة [illegible]
[illegible] من الحيوانات وليس [illegible] من جهة من [illegible]

واما المدبر الثاني فهو من جهة هو ليس له من غاية سوى [illegible]
[illegible] وان تعد المرمى على وجه لا [illegible] ولا [illegible]
[illegible] والتحلي بالملكات الفاضلة والتنزه عن الصفات [illegible]
وذلك بان ياخذ بالقسط ويقف على الحد الاوسط فيما [illegible] من
من تصرفاته مع اخباره او في حد ذاته [illegible]

وان شم الخارج وجمع [illegible] وقرونا من الرطوبة ومع [illegible]
والسنان وكل ذلك على مقدار [illegible] من [illegible]
في ابتداء الوجود فيه انواع من التمدد [illegible] على [illegible]
[illegible] لو [illegible] ويكشف عن وجوه الاسرار [illegible]
[illegible] مدة الا [illegible] واعطي [illegible] شيئا [illegible]
[illegible] ولذلك [illegible] الا [illegible] على [illegible]
[illegible] الى [illegible] ومل هذا الطوال حتى [illegible]
[illegible] ولكن من [illegible] واحد [illegible]
[illegible] شهدا واحوت في وجود الكائنات [illegible]
واين على الله [illegible] ان يجمع العالم في واحد

[illegible] الى من الكائنات
[illegible] من الكائنات [illegible] المطالب [illegible] الاضطراب ولا
[illegible] من الفضائل الا [illegible] ولا [illegible] من المكارم الا اخس
[illegible] ولا [illegible] من [illegible] الا [illegible] ولا [illegible] الا [illegible]
[illegible] ولا [illegible] الا [illegible] الا [illegible]
[illegible] من [illegible] ولا [illegible] من [illegible]
فلا [illegible] ولا [illegible] اذا دعت اليه داعية
[illegible] على [illegible] وانسع الحرق [illegible]
[illegible] من [illegible] ويعرض [illegible] الخارج [illegible]
و [illegible] الاضلال [illegible] لم ما [illegible] في [illegible]
[illegible] الآثار التي [illegible] الانسان [illegible]
[illegible] المدبر الثاني هو الانسان بالحقيقة

[illegible] من [illegible] على حد [illegible] الوجود [illegible]
[illegible] ان يكون [illegible] واحدة [illegible]
[illegible] على [illegible] الاعتدال [illegible]
[illegible] الى [illegible] وذلك [illegible]
الفصل الرابع

تابع رسالة جناب العالم العلامة الشيخ محمد عبده
احد اهل العلم بالجامع الازهر

فاذا تقرر بيننا ان المقصد الاعلى للعقل انما هو استكشاف اسرار الوجود وابراز ما استتر في عالم الشهود وذلك مقام لا يعلو كعبه ولا يأتي على مداه ونعيه عند استعداده ذاته وصرف الوجهة عن الالتفات الى الطريقة المثلى في ذلك والمسلك الوحيد من بين المسالك هو استعمال هذه الآلات الجسدانية ليتوصل منها الى ما يتطلبه من الدقائق الخفية فانها تقدم اليه من صور الكائنات ما لم يكن يحضره ولم يكن يبلغه خبره فانا لو فرضنا ان العقل قد فطر على احسن الفطر ونال غاية من صفا الجوهر ولكنا لم يستعمل حس البصر فهل كان يتمكن من استقبال رتل الضيا او استطلاع سكان السما حتى يحدد دائرة الناموس ويهاجم العقرب بالقوس ويجمع بين الاسد والثور على الجوار بلا تعدٍ ولا جور ويعين ما لبدرنا من المنازل واين حوت لياليه وحمله وشهر نازل ويعين سير الكواكب ويكشف ما نال المشترى من العجائب ويميز من ذي الحلقتين ويحقق ما بين السماكين ويقف على ما للشمس الدير في هذا العالم الكبير وكيف ان كل هذه النجوم لم اليها تدور ومن مركزها الحقيقي يستمد النور لي المسير ويقدر ما بينها من الابعاد وما يشمله كل كوكب من الامتداد ومن اين كانت تأتيه هذه الصور حتى تعدته بما لديها من الصور وهل كان يقف على حقيقة الالوان وما لضيا من الاختراق والسريان وكيفية وصوله من النيرات الى الارض وانتشاره في الطول والعرض وهل كان يدرك سير الامواه وحوادث الهواء من برق يخطف الابصار ومدرات البان دل نبات الصحارى حتى يقف بذلك على اسرار كبيرة ويجتني فوائد غزيرة وهل كان يجذره تراكيب الحيوانات على اختلافها وتناسب اعضائها وائتلافها وارتباط الاعصاب والعضلات وجلب طلبات الشرايين مادة الغذا الى جميع الجهات وغير ذلك مما تحار فيه الافكار وتفنى فيه الابصار حتى يقف على شيء من سر الخليقة ويسأل من الواضع حقه وهل كان يستطيع احكام الامد الخيل حتى يستبين الاصل في عالم التركيب من الدليل الا ان تسائل البصر لدى العقل لا تنكر وفوائده الجليلة مما اليه لا تحصر ولو انا لم نعرف وجهة الالتفات الى ما يأتي بالسمع من الاصوات لكان اول ما يفتقده من المسائل المعضلة التي ليس لها من معادل وهي تقطيع الصوت بالحروف على وجه معروف لتكون علائم حاكية عما تكنه الصدور وما هو ورا حجب الضمائر مستور فيقف كل من بني النوع على افكار الآخر التي تتكافد عليها وتثار فتكون ميدانا تجول فيه فكرته ونتيجة تعطيها حجة فتكثر بذلك العلوم ويتسع مجال الفهوم فان الامر على ما يماثله في مقالة ظلية ابدينا ما سا لنا وهو ان مثل افكار كثيرة تقدمت او تأخرت مثل لجة قد انعقدت للارتاء في حقيقة امر خفيت والمستبصر الناقد كرئيس لتلك الجمعية يرتع بين الاقوال ويحقق بعين بصيرته ما اليه امر كل آل فتدفع عنه وساوسه وتجلى اليه عرائسه ويشرق له في نفسه شمس

من البرهان ويأخذ بالالباب من ايانه تعرض الييان فكان لا مكنة ان يسير في ضوء مصباحه وان يضرب بسلاحه الطالب صلاحه فوضع القواعد واتم القواعد وروى بالتدى من عين الجاحد (اه) وفوائد السمع سوى هذه كثيرة وكذلك حاسة الشم قد قدمت اليه انواع المشمومات وحاسة الذوق انواع المطعومات وحاسة اللمس ارشدته الى معنى الصلابة واللين فارشده كل ذلك للبحث في اسرار هذه الاختلافات واسبابها وعللها الفاعلة ولا غاياتها وذلك باب من العلم عظيم وخطبه جسيم ولو ان المدرك لمعاني ديا وقف على نقطة واحدة واتخذ له مبوا على حدة هل كان يفوته كثير من المعلومات ويعوزه الاطلاع على جم من الكائنات بلى فلا بد من الانتقال من اين الى اين والايغال في البون والبين والاستبصار فيما يراه كيلا يعود يجنى حين تعم عليه لبل كال الارب غيرك كثير من الالات البدنية نحو المطالب والا فايم يدرك الاشدا ولا يعمل الا ورا شعر

. . . .

[illegible] العال حذاء وهي صادفة [illegible] تحدث ان العمر في [illegible] [illegible] ويشرف المارق ماوخ من [illegible] بروج الشمس [illegible] دارة [illegible] [illegible] من هذا ان ليس للعقل من شيء من هذه الالات [illegible] ولا [illegible] دون [illegible] هو الاستمرار [illegible] [illegible] الادراكية [illegible] بان يكون كذلك في [illegible] الاجسام او [illegible] او تقرير معالم او دفع عار او [illegible] او وضع [illegible] او انقاذ من وبل حوالة او اماتة [illegible] من [illegible] بحب ان تكون [illegible] ولا [illegible] [illegible] وكذلك الحيواني في الانسان [illegible] في [illegible] ما من الزمان فان الانسان [illegible] عن [illegible] [illegible] كلها هل قرما تنكب عن مقامه واسرع في [illegible] [illegible] الايدي الاثر [illegible] او [illegible] [illegible] حدة الناب وقوة المخلب ما [illegible] من [illegible] من [illegible] ولم [illegible] من القوة الطبيعية ما [illegible] البداية في بادي البشرة حالي القدم مجردا عن الات [illegible] والمدافع [illegible] لضع البلايا وهذا [illegible] المايا [illegible] الحر [illegible] الاضطرار لتناول [illegible] الاشجار [illegible] وليس في حس الحيواني ما [illegible] الاتي نادي [illegible] على [illegible] حاله وتقدم اليه ما ناله فلم يجد العقل بدا من ان يفيد هذا الغرض على كواهل الصانع يستدم [illegible] بانواع البدائع [illegible] الاسباب يستدرها البان الارزاق فسكبت اليها [illegible] من [illegible] الاماق وعضا بايدي الالات فاستخلص منها ما [illegible] من [illegible] فالسالات اصبحت حاملة [illegible] و [illegible] من [illegible] والمعادن والاشجار والاحجار استغلت [illegible] لم [illegible] [illegible] ما [illegible] لك واتخذ ما تريد لما تريد من حلب [illegible] [illegible] [illegible] المعنى [illegible] [illegible] الالات لجميع الا [illegible]

الامال فلنس للناس العزة بعد ما كادت [illegible] في الوجود [illegible]
[illegible] و[illegible] على عرش الراحة والتي من [illegible] [illegible]
ذلك [illegible] العقل الرشيد و[illegible] الوجد [illegible] [illegible] [illegible]
في [illegible] الى ما يقتضيه العقل من حكمة [illegible] [illegible] من [illegible]
والعقل منظرا في جل حاجته الى الامر ومن ثم [illegible] [illegible]

فمن جهة يرى ان العقل قد افرغ جهده ونال غاية [illegible] في
استيفاء لوازم البدن واتمام اللذائذ ما [illegible] وما [illegible]
ذلك المصاعب ويحتمل انواع المتاعب ويرتب مقدمات [illegible]
للوصول الى ما [illegible] وجل [illegible] ان [illegible] [illegible]
وليس سوى هذه اللذائذ من [illegible] و[illegible] الى ان الانسان [illegible]
لان يأكل و[illegible] و[illegible] وهذا [illegible] ومن جهة يرى ان
كثيرا ممن لا يحصى عددهم ولا [illegible] افرادهم [illegible] كووس [illegible]
و[illegible] عن عائلة الموائد [illegible] من المضاجع وان [illegible]
وعن المضاجع يكتحلون السهاد ويتوسدون [illegible] الاعاد [illegible]
ثياب الحول ويتعرضون [illegible] السيف المسلول يجوبون [illegible]
[illegible] الاسفار [illegible] ما لا يوجد وياكلون [illegible]
وذلك كله ليكتشف الواحد منهم ارتفاع جبل من الجبال او [illegible]

الثابع للتابع

تابع رسالة جناب العالم العلامة الشيخ محمد عبده

احد اهل العلم بالجامع الازهر

ان سلسلة جبال قد اختلفت في امتدادها كم من الاميال او ايعلم ان
مقاطعة على كم تحتوي من افراد الانسان او انهم [illegible] اي دين
من الاديان فهولاء قد هجروا اوطانهم واتعبوا ابدانهم [illegible]
خطير في ذاته يسير وان كان ما يترتب عليه من الاثار في جهة العالم
كبير و[illegible] ان كثيرا من الناس قد امتلك خزائن من الاموال
و[illegible] بقلاع من فرسان الرجال بحيث يكون له [illegible] من [illegible]
الثابة البدنية واتما جميع اللذائذ الحيوانية ومع ذلك [illegible]
الفكر و[illegible] [illegible] [illegible] يشتغل [illegible] الاولاد
فيخفض [illegible] ذيل [illegible] وربما [illegible] الزمن الطويل عن
غذائه الذي به دوام قوته واستحكام [illegible] [illegible] على [illegible]
اوراق الدفاتر [illegible] على افكار الاوائل والاواخر [illegible] الميزان
بين الاراء كانما يحاكم بين الا[illegible] ودارا حتى اذا [illegible] يرى
[illegible] حيرانا والا سكرانا قد اكتفى بسلاف المعاني من سلاف الشراب
واستغنى بمحادثة العقول عن مسامرة الاحباب و[illegible] الكلام
عن [illegible] [illegible] المدام واذ قذفت به امواج [illegible] الى ساحل
المعرفة [illegible] ظلمات الاوهام [illegible] الحق [illegible] الى
[illegible] حزنه [illegible] [illegible]
في ذلك [illegible] [illegible] [illegible] ان [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

قالت الخادمة [illegible] اذا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] عليان القدر وكانت الساعة [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] القدر [illegible] الساعة في القدر [illegible] [illegible] [illegible]

التابع للتابع

رابع رسالة [illegible] العالم [illegible]

احد اهل العلم بالعلوم [illegible]

اما مقدار الزمن من حركة [illegible] [illegible] من [illegible]
[illegible] العادة وهي نظن ان [illegible] [illegible]
[illegible] دت الساعة في [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] الارية الاولى [illegible] [illegible]
احوال ذلك اليوم [illegible] [illegible] [illegible]
الكتب مسطورة و بالجملة فان [illegible] [illegible]
مهمات الامور [illegible] الانسان عن نفسه [illegible] امر [illegible]
قد قرر في نفوس العموم حتى لا [illegible] ان يفكر [illegible] [illegible]
نفسه ويرى ويسمع ان من الناس من قوم [illegible] [illegible]
او [illegible] حتى في مسئلة من المسائل [illegible] [illegible]
متقول العاملين [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] لسانه في اتخاذ الاحتراف [illegible] شعر

ومن ذا الذي من غنا بجرحا [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] في ذلك كوس الامن و[illegible] الراحة [illegible]
من الوطن وهو مع ذلك لا [illegible] ولا [illegible] في طلب [illegible]
[illegible] وليس [illegible] في ذلك [illegible] والسهل [illegible]
[illegible] الى مكان ولكن ان يقبل المتعذرون [illegible]
[illegible] في [illegible] ارضه ومن اولئك رجال لا تحصى عددهم [illegible]
[illegible] الى الان [illegible] ويعلم ان كثيرا من الناس [illegible]
[illegible] دون [illegible] او رقابة [illegible] ولا يجعل [illegible]
[illegible] جبال النار [illegible] ما نراه من [illegible]
[illegible] احدهم [illegible] ويبذل [illegible] في ان [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] وقد [illegible]
[illegible] الواحدة لا [illegible] ولا [illegible]
من ان [illegible] المطوية مع [illegible] [illegible]

الامة [illegible] الدينة ما [illegible] [illegible]
سهامه ويكشف [illegible] ان اودع [illegible] [illegible]
من الاول للاخر فهناك [illegible] [illegible]
حيرة شرف الانسانية على راسه حتى يتخلص [illegible] او يلحق [illegible]
[illegible] وهو في ذلك يتلذذ [illegible] اللسان كانها [illegible]
ومن هؤلاء كثيرون وانهم [illegible] في هذه [illegible] [illegible]
ليس المقصد الاعلى والغاية القصوى من هذه النشأة الانسانية [illegible]
التحلي بهذه الفضائل [illegible] وانما تلك اللذائذ الروحانية ولا [illegible]
يذهب الى ان الانسان يأكل لان يعيش ويعيش لان [illegible] [illegible] لان
يعقل ويعقل لان يكمل وهذا هو [illegible] الادق والقول الاحق

فان قال قائل ان جميع ما ذكرته ثابت لا ينكر ولكن ان جميع
ما يرتكبه اولئك الذين [illegible] من ترك اللذائذ [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] من الخصائص [illegible] ليس لاستكمال اللذة [illegible] لذاتها [illegible]
لتكمل لهم الاولى بجميع جهاتها فان ارباب العلوم [illegible] الى [illegible]
الرفاهية والراحة ولا يستوفي جميع ما يقوم به الذين [illegible] جميع
الامات الا بالعلوم والمعارف وكثرة التجارب [illegible] في [illegible]
[illegible] سبيل [illegible] امرها وان الذين قد [illegible] راحتهم [illegible]
المكارم و[illegible] فضائلهم لم يكن داعيهم الى ذلك سوى حب [illegible]
[illegible] غيرهم و[illegible] ما [illegible] من الذل والمهانة وان
ارباب الهمم العالية لم [illegible] ولم يحفظوا [illegible] الاخرة
من ان [illegible] عند التامل في [illegible] بعد [illegible]
[illegible] [illegible] من لذائذهم الجسمانية [illegible] [illegible]
وبالجملة ما [illegible] [illegible] او دفع [illegible] [illegible]
[illegible] في احوال الذين [illegible] ارواحهم في طلب الكمالات

التابع للتابع

تابع رسالة صاحب [illegible]

احد اهل العلم بالجامع الازهر

العقلية مع ابنائهم اما بموت هذه اللذائذ الحسية او فقدهم عرق [illegible] بالكلية الذين لم يكن [illegible] سوى [illegible] المكارم والفضائل [illegible] ما دون ذلك من الوسائل فاذا لم تكن ثمة سوى تلك [illegible] لانه [illegible] دونها ولم يتجاوزوها الى اسدادها بل في احوال عدم ذلك قل ان تجد انسانا لا [illegible] لذة [illegible] روحية واني لي [illegible] لك اصنافهم الانسانية التي لا تحط درجة افرادها عن ذلك على اختلافها بطول الفتال [illegible] الحال . ثم انا لا ننكر ان كثيرا من الافراد تجد المقاصد مادي ولم [illegible] من الانسانية سوى المشابهة في الارجل والايادي [illegible] في قلوبهم [illegible] الشهوات [illegible] جميع الآثار الانسانية بالمقدمات وتكالبوا على الموارد [illegible] تكالب الذباب على [illegible] وان منهم [illegible] ذكر مثل [illegible] ارباب الا [illegible] كيلا [illegible] الامن ولا يحترس [illegible] على مقاصدهم [illegible] لم [illegible] شيئا مما [illegible] تلك الهمم الارضية الا [illegible] وارتضوا من [illegible] في ارض حيوانية [illegible] [illegible] الانسانية [illegible] كل راكب [illegible] وهذا مع ما قلة [illegible] في المقصد [illegible] في المصدر والمورد لا [illegible] لحركاتهم سوى مآرب حيوانية [illegible] [illegible] من [illegible] ارقى من ثعلب [illegible] من [illegible] على [illegible] الدجاج والارانب ومع كل ذلك لا [illegible] انهم يجردون من اللذائذ الروحانية [illegible] على ذلك [illegible] [illegible] ولا [illegible] ان يجدوا [illegible] [illegible] اغراضهم [illegible] [illegible] تلك اللذات [illegible] [illegible] اللذة [illegible] الاحساس في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] العالم [illegible] [illegible] الى [illegible]

[illegible] ولي [illegible] من [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ان [illegible] تلك الآثار [illegible] الذي قد [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ولست [illegible] الى [illegible] اذا [illegible] [illegible] وهل [illegible] الى صلاح حال [illegible] ان [illegible] [illegible] تلك [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] فهل كان ذلك [illegible] الا [illegible] على لذائذ متعددة على غير [illegible] في لذة [illegible] والجنات [illegible] الانسان الى [illegible] تاره [illegible] الانسان الى [illegible] الى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الى ذروة الانسانية [illegible] قوى في [illegible] الانسانية [illegible] باهب [illegible] في [illegible] ولا [illegible] القدر [illegible] التي [illegible] في ارقى [illegible] الآثار [illegible] ودمع [illegible] ولا [illegible] اذا [illegible] وذلك لا الى [illegible] ولا في [illegible] الاقرب الى [illegible] من [illegible] ومن ثم نرى ان [illegible] تارة [illegible] لما ارتفت [illegible] الى [illegible] [illegible] لات [illegible] الرياسة [illegible] السائدة [illegible] احكامها [illegible] في [illegible] في [illegible] [illegible] الانسانية في [illegible] الكرة الارضية واستعمال [illegible] الوحش [illegible] الارض من [illegible] [illegible] [illegible] في ذلك من [illegible]

تابعا من كاتبه [illegible]

التابع التابع

تابع رسالة حضرة العالم العلامة الشيخ [illegible]
احد اهل العلم بالجامع الازهر

الا ان منهم من يأخذ هذه الفضائل اسمًا ويتخذها رسمًا لتكون
آلة لاستمالة وسلمًا لبعض الاغراض (خصوصا) الملك الكبير ذا الاثرة [illegible] الواسعة
والانظار الثاقبة الذي ندمج اهل مملكته تمام الحرية حتى انه لا يمنع
لم ان تدرس العلوم الفلسفية في مدارسهم الرسمية بل لا [illegible] بل ان
اراد احدهم ان ينصر الكثلكة [illegible] واول اهل [illegible] من [illegible] شعبيات
الحنو والشفقة ما تقطر منه قلوب اهل الرأفة والرقة [illegible] اهل
دين الكاثوليك الذين [illegible] كل [illegible] كبرائهم الى [illegible] الاجحاف
ولا يفرق وما يترك وسيلة الى الاسترقاق الا اتاها ولا [illegible] الى
استعباد غيره الانس تعصبا كيف لا وقد تقلدت الدولة [illegible] التي
هي مقدمة ركب الالوهية مقام [illegible] المقدسة [illegible]
وكثيرة على نفسه من الاقيام بحقوق الانسانية والنهاض على [illegible] الحق
على الوجه الاحق الاليق فان قد [illegible] في [illegible] اهل [illegible]
المتاحين الى رعاية دولتهم لجردهم من ذل [illegible]
الضعف والذلة [illegible] من رفقة الحرية التي قد [illegible]
حفظ [illegible] على اصلاح احوالهم [illegible]
على دولتهم تدل الحقوق على العاشق [illegible]
[illegible] الحبيب من [illegible] ذلك الى
[illegible] وقد [illegible] على اعلى اهل [illegible]
التي قد [illegible] وقد صادقة على ذلك [illegible]
الناسخة [illegible] واحد منهم من [illegible]
الملك الذي في [illegible] الارتباط [illegible] في ذلك [illegible]
والحقوق المدنية [illegible]
[illegible] الانقلاع عن [illegible]
في ميدان المحاكمة حتى انهم [illegible] ذلك [illegible] على
اوطانهم ولم [illegible] من ذلك [illegible] الايام ان
[illegible] ومع ذلك [illegible]
عرق الخيانة ولا [illegible] في ذلك [illegible]
الكمل لا يليق بهم مع هذه الدعوى التي [illegible]
المساواة ان يجعلوا تلك الرأفة والرقة خاصة [illegible]
[illegible] من الواجب ان [illegible] من
وراء حجاب الى [illegible] والكل
الاسود فاني لو تكلمت في هذا بطول او [illegible] الى الان
لم يبلغوا حد الكمال حتى يتعلمون اعمال الرجال ولا [illegible]
المثال والانسان الكامل سوى ما هم فيه وتلك التي [illegible]
مبادئه ولكن العجب لحال [illegible] فان [illegible]
في ذلك [illegible] التواريخ القديمة والحديثة [illegible]
كانت تفعله القياصرة والاكاسرة [illegible] كل من

[illegible] والعربيين مع [illegible] في الاخر
[illegible] الاكثرات الالة [illegible]
وتوجهت نحو المغرب وتركت الشرقيين [illegible] من
[illegible] الشرقيين [illegible] بلا
معادي [illegible] الدواعي والدواعي [illegible] الامر [illegible]
[illegible] الشرقيين الى هذا [illegible] سوى تفرق
الآراء واختلاف الاهواء حتى ان [illegible] الناس [illegible]
[illegible] الا من
[illegible] في حضرة [illegible]
[illegible] الانسانية [illegible] وذلك [illegible]
[illegible]
[illegible]
من [illegible] الشرقيين [illegible]

[illegible] الامر [illegible]
[illegible] مالك [illegible]
[illegible] عدوكم [illegible]
[illegible] الشرقيين [illegible]
[illegible] الامر [illegible]
[illegible] الى الامر
[illegible]
[illegible]
ولم [illegible] عدوكم من [illegible]
[illegible] من كل [illegible]
واذكروا اذ [illegible] الرجال [illegible]
الاحيال فان انتم [illegible]
[illegible] الارواح [illegible]
[illegible] الرجال [illegible]
[illegible]
[illegible] الاحق لكم وليس الا ان [illegible]
[illegible] واطروا الى احوال [illegible] فان قال
قائل

ان الديانات التي [illegible] المداوات
فكل واحد [illegible] في مذهبه [illegible] في
[illegible] تلك [illegible] الاتفاق
[illegible] من [illegible] في ذلك مثل الاخوين
تولدا من بطن واحدة [illegible] الحارثات
[illegible] والحيوانات [illegible] الجبرة والحمية
ويكاد ان [illegible] كل ذلك [illegible] على

احدهما بقوم الاخر ... ولا تحجم عن رد ... تلك المداولات
الجارية لا تصح لدى العاقل ان تصدر ... الكلام وعلى فرض ان لو
حدث تلك المزاحمات ... امرًا ... الى العذر بالسح حال
من ... انهم من
... وحامد
... في ... على
ان يقدر ... الى ... واكرم ...
... الى

ان يكن ناس ... الدول ... و...
لا ... ان ... كان اهل ...
ولكن ان ... الدول ... دار ...
... ان ذلك من ... فاختار
... وتناول ... من ... واتخذوا
الكم من ... ومن ... والحمية الوطنية
انتبوا واتعظوا ... انتهى

... العلم ...
...
احد اهل العلم بالازهر

كلما تناسينا عهد جاهلية العرب وما كان من ... الجهاد
في تلك الحقب ... ما مرنا في ... اخرى ... الى
الامام بعد ان كان ... النهوض ... الاعمال في ...
... الاختلال ... افكارنا ... الى ...
... الامام ... في اول ... من ذلك الزمن الاول ...
... ذلك ... ونحن ... تقدم ...
... ان ... في هذه الايام ان ... العلم ...
... قد بذلوا جهدهم في التحصيل ... ازرار ...
... وانفذوا ... قد ... الى ...
... الى ... في دراسة ... الكتب ...
والكلامية التي كان قد ... الاسلامية ... قد
علم كما هو الواقع ان العلوم ... الاراء ...
الافكار ... من ... وتبين ان ... المقدمات لانتاج
المطلوب بعد البيان ان اي مقدمة يصح ان توخذ في البيان وانها يجب
ان ... ويطرح ... بان ... بجميع العلوم ولا ...
... طلبه الا ... العلوم الكلامية انما هي احكام ... القواعد
... بالادلة ... حتى ... تلك العلوم ان ...
... تلك ... من تلك البراهين ... بذلك الطالبين ...
... الى ... لا يكون ... ولا ...
... في ادراكه ... بذلك بعض ... واقربائه
الذين يوثرون خيره ولا يرتقون ضرره ... لذلك واضطرب ...

... من ... على ذلك الطالب ... الى ...
...
...
... ولكن لما كان الاب ... وجد ...
... ذلك الطالب ... سواء ... على ...
جهله ومع ذلك لم تدعه ... الطالبين على عادتهم ...
... الكلام ... الملام ... الى الان في ...
... بين ... حتى ان ...
... من اهل ... في ...
بذلك الطالب الى والده ... القول ... ان
الرجل ... ان ولدك ... بالعلوم ... الهموم
والغموم ... ولا شراب ... في ...
... في ... هذا ... ولم ...

... في ...
... اعتقاده ...
... في ...
... الى ... في ... من
...

تابع رسالة جناب العلامة الاديب والفاضل الاريب الشيخ محمد عبده احد اهل العلم بالازهر

الآل ومن آمن وهو لا احد يجد ولده بالشوق والوجل ان كان لذلك الا [illegible] صحة ناجابه القائلـ ان ذلك من كذب الناس رتبي الغاسدين واي من يوم سمعت في سمعي ونقطع سمعي لم تقرعني خطرة في رياض تلك العلوم ولم اشتغل باحد منطوق منها ولا مفهوم فلم يصدق حتى [illegible] ربه العالمين ان الدال كذاب وانه في امر [illegible] وهو الصادق في حلفه وكذب لا [illegible] المكاره بين يديه ومن خلفه الا ابني ابوه يكذب [illegible] الحمد لله واني اليه واصبح من بعده متوجها الى بلده فانظر الى هذا الرجل مع كثرة اشتغاله واحتياجه لساعة يصرفها الى احواله كيف [illegible] وصرف الدرهم وانقص انتقاص السهم واندم اندام [illegible] الحادث الذي وشاعة عظيمة [illegible] قد [illegible] من ارضه وباس شديد طلب التخلص من جلوله [illegible] فان سالت ما هذا الامر الفظيع والحادث الشنيع قال انه الذي يعلم النطاق بالكلام والتخلص من قيد جهل قد اخذ بالنواصي والاقدام وانظر الى هذه الكتابة والعبرة التي قد دعتهم الى المقاصد والمصادر والحوة التي قد حركتهم على التكاثر التخلص من هذا الحادث الملم وانقشاع هذا الآل المدلهم بسابة الحرارة الناشئة من صدق طوية وخلوص [illegible] هذه الدول و[illegible] عواقبها وما اليه امرها يؤول لئن دام هذا ولم يحدث له [illegible] ولم يبرح ولود

واي [illegible] من هؤلاء الاحوال في الوطن وارباب البصائر والعقل [illegible] السهم الحرارة الى [illegible] حتى آل امرهم الى [illegible] [illegible] ادالم بصرف الفكر في [illegible] وسد [illegible] وكبه الوجود على [illegible] في اي شيء [illegible] رشادها وغاب [illegible] سوى الدليل [illegible] هذا امر على [illegible] عن الافصاح [illegible] مع ان هذه [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] في [illegible] [illegible] قد [illegible]
المعارف وتوسع [illegible] بالتجارة [illegible]
[illegible] من [illegible] والاحتجاب [illegible]
[illegible] الاكتساب [illegible]
[illegible] المعارف [illegible]

[illegible]

الأهرام ٥/٥/١٨٧٧

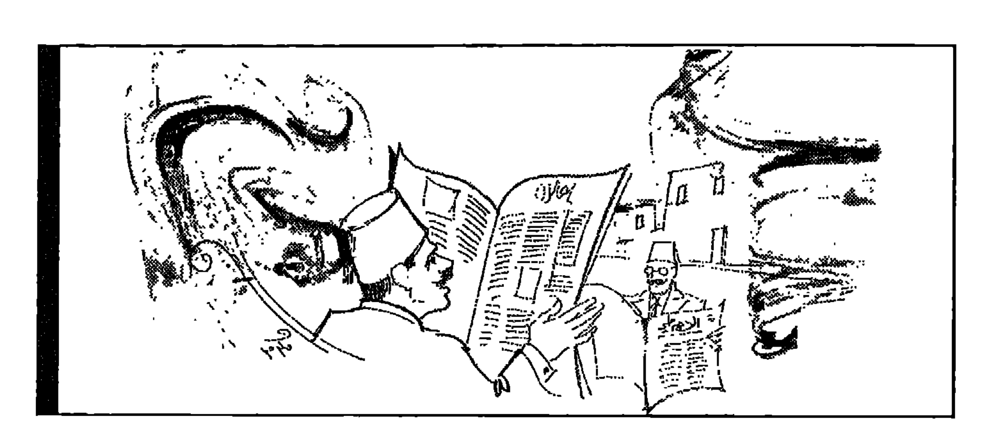
تابع رسالة جناب العلامة الأديب والفاضل
الأريب الشيخ محمد عبده أحد أهل
العلم بالأزهر

لو كان عند امة امرى لكانت [illegible] الى [illegible] على عهد
لا [illegible] واصبحت [illegible] لا [illegible] وما المرء على التربية
والجريدة ما لم نسمع ان ملكا من ملوك اوربا [illegible] قد حادت
[illegible] في الصحف الذين هم كانوا قد [illegible] في انظارهم
قد [illegible] في ذلك [illegible] ما [illegible] جناب [illegible]
[illegible] الى كل ما يمكن ان [illegible] في [illegible] اذا
نصح في هذا [illegible] السعي [illegible] لي الآن
ان [illegible] الخبر [illegible] وليس [illegible] المقالة [illegible]
هذا الملك في [illegible] وشاعه من [illegible]
لا [illegible] ولا [illegible] في ذلك [illegible]
قد [illegible] ان [illegible] الله تعالى [illegible]
يقول ان هذه الحادثة لا [illegible] الامل ولا [illegible]
من [illegible] ومن [illegible] لا يحكم على الكمالات [illegible]
وفي كل مكان [illegible]
وذلك لا [illegible] حكم [illegible]
ولا [illegible] وامة رفعت ولكن ذلك [illegible]
[illegible] من الطائفة [illegible]
[illegible] الى الآن لم [illegible] الى [illegible]
العلوم [illegible] علوم او [illegible]
[illegible] قد [illegible] وطويت [illegible]
الى [illegible] في [illegible] قد [illegible]
قد [illegible] كل [illegible] المارة [illegible]
[illegible] كان من [illegible] ذلك الاسداد [illegible]
ان [illegible] دينا [illegible] والمال [illegible]
وضلال الطريق مع ان [illegible] الامر [illegible]
[illegible] من [illegible] والذي [illegible]
الى [illegible] حتى [illegible]

ان [illegible] قد [illegible] اذا [illegible]
[illegible] وانت [illegible] واوصت [illegible] هذا
العلم [illegible] في العلوم والتربية [illegible] العلوم
[illegible] الى رشادهم [illegible]
[illegible] اول واجب علينا [illegible] كل حد
واجتهاد في [illegible] العلوم في اوطاننا [illegible] من الاسى [illegible]
دولة ولا دولة الا [illegible] ولا [illegible]
لا [illegible] وصناعة وانما [illegible] ولا [illegible]
الا [illegible] العلوم [illegible] ذلك امر
قد [illegible] على [illegible] فضلا عن [illegible]
[illegible] الاحتجاب [illegible] وما
يشبه ذلك مما كان يمكن [illegible]
الى المراكب [illegible] ومدافع [illegible]
ذلك من الالات التي [illegible]
[illegible] الانسان لا [illegible] مما له
الالات [illegible] النوع [illegible] حتى الآن قد [illegible]
وكلهم قادرون على [illegible] بكل حد واخلاص [illegible]
من حافظ [illegible] ودوام [illegible] البلدان [illegible]
هذه [illegible] ان لم [illegible] وهل يمكن [illegible]
والحرف او [illegible] الحرف كلا [illegible] لا بد من ان [illegible]
وتطلب [illegible] من [illegible] فلا بد من [illegible] الاكتساب
على [illegible] الى [illegible] في [illegible]
وليس من [illegible] الى ذلك الا [illegible] الطائفة [illegible]
[illegible] على اي [illegible]
فكان من [illegible] التي [illegible]
[illegible] من [illegible] على [illegible]
[illegible] في كل ذلك [illegible]
[illegible]
[illegible]

الفصل السابع

إعلانات أول زمن



■ ■ أول إعلان عن «حكيم أسنان»

■ ■ أفوكاتو يقبل المحاماه عن دعاوى الفقراء مجانا!

■ ■ ماء «باردين» المعدنى الذى يشفى كل الأمراض!!

■ ■ مدرسة لتعليم البنات شغل الركامو والبرانيط

■ ■ اعلان عن أول مشخصاتى فى تاريخ مصر

رغم محدودية المساحة التى احتلتها «الاعلانات» فى أهرام السنوات الأولى من صدوره.. سبعينات القرن الماضى، أو على الأقل الأهرام فى مرحلة صدوره الاسبوعى(١٨٧٦ - ١٨٨٠).. رغم هذه المحدودية فانها تكشف الكثير عن العالم الذى كان يصدر فيه، ولم يكن عالما فسيحا!

فالأهرام الاسبوعى تأثر كثيرا، فى المساحة الاعلانية علي وجه الخصوص، بنشأته السكندرية، بكل معطيات بيئة ميناء مصر الأول، وكانت بيئة تموج بأسباب التغيير، وبعناصر الصراع التى تصنع هذا التغيير، والتى انعكست بشكل واضح على طبيعة اعلانات أول زمن!

بيئة الاسكندرية تميزت بقدر كبير من التنوع .. مصريون سواء من أبناء المدينة أو من أولئك الذين وفدوا اليها من شتى أنحاء البلاد خاصة بعد حفر ترعة المحمودية وانتقال تجارة غرب الدلتا من رشيد إلى الاسكندرية.. وأوربيون، من شعوب البحر المتوسط أولا: يونانيون وايطاليون وفرنسيون ومالطيون وقبارصة، ثم من سائر أنحاء اوربا خاصة من الانجليز والنمسويين والروس.. ثم أخيرا من سائر الأقطار العثمانية، خاصة من الأرمن والشوام .

ووسط هؤلاء احتل الأخيرون - الشوام - مكانة خاصة..

فهم لم يكونوا ضمن المصريين الذين بقوا يعيشون حياة اجتماعية قريبة من تلك التى عاشها أسلافهم، فى طوائف حرفية لم تكن قد انقرضت بعد رغم انتشار العلاقات الرأسمالية، خاصة بعد سقوط نظام الاحتكار فى عهد عباس، فضلا عن نمط حياة اجتماعية لم يكن قد وقع بعد تحت المؤثرات الأوربية.

وهم لم يكونوا أيضا ضمن الأوربيين الذين استمرت تفصل بينهم وبين المصريين أسباب عديدة، بدءا من الحاجز اللغوى وانتهاء بالعادات والتقاليد التى لم يكن ليستسيغها المصريون بسهولة.

وهم لم يكونوا كذلك ضمن العناصر العثمانية ممن استمر اختلاف اللغة يصنع حاجزا بينهم، ونعنى هنا بالذات الأرمن، كانوا ضمن هذه العناصر حقيقة، ولكنهم كانوا شيئا متميزا..

فهم من خلال احتكاكهم الواسع بالمجتمع الأوربى، وهم من خلال عثمانيتهم وعروبتهم، كان فى امكانهم أن يلعبوا دور الجسر السياسى والثقافى والاقتصادى بين أوربا ومصر، وهو ما نمت عنه اعلانات الاهرام خلال سنيه الأولى .

احتل «اصحاب المهن الحرة» مكانة خاصة فى «اعلانات أول زمن » وكان وراء ذلك أسباب عديدة ربما يكون أهمها ان المصريين الذين نالوا قدرا من التعليم يؤهلهم

بالاشتغال فى هذه المهن قد عزفوا عن ذلك وآثروا «الميرى» وتركوا الميدان فسيحا لغيرهم.. للأوربيين والشوام الذين احتدم الصراع بينهم، وكان «الاعلان» ميدانا لهذا الصراع، كما كان فى نفس الوقت وسيلة لتعريف الجمهور بطبيعة أعمال هؤلاء..

بتسمية العصر يقدم الحكماء أى الأطباء، والأفوكاتية أى المحامين، نموذجا على ما كانت تموج به الحياة فى مصر، وفى الاسكندرية على وجه الخصوص.

ونبدأ بالأطباء ونقدم نموذجا على الصراع ذلك الاعلان الذى جاء فى الأهرام الصادر فى ٢٤ فبراير عام ١٨٧٧.. قال بالنص..

اعلان

«أعلن اننى بعد أن صرفت مدة طويلة بمطالعة حكمة الأسنان فى مدرسة برلين المشهورة ونلت الشهادة الديبلوماتية المعلنة باتقانى ذلك حق الاتقان مع كل ما يتعلق به من الاصول والفروع تهيأت للعمل بما تعلمت وبحوله تعالى نجحت أتم النجاح والآن قد حضرت إلى مصر قاطنا لأشتغل بالمعالجة فى ما يكون من متعلقات هذه الأمراض كيف كانت مؤملا بمعونته تعالى أن أنال ثقة الجمهور وبناء على ذلك استقبل ـ كل من يريد تشريفى إلى منزلى الكائن فى (أوتيل) أوريك أمام بيت فوتيادس بقرب الضبطية القديمة واستعد أيضا لإجابة من يطلبنى إلى منزله وكل ذلك بالأجرة المتعادلة وفوق هذا لا أتأخر عن إجابة من يطلبنى إلى الخارج سواء كان للأرياف أو للاسكندرية بأجرةمتوازية توافق الطرفين وقد خصصت وقتا يوميا من الساعة ٨ إلى ٩ افرنجية قبل الظهر لمعالجة الفقراء مجانا

ابراهيم صوصة ـ حكيم اسنان

والواضح من الاسم أن الرجل من الشوام وأنه لم يكن من سكان مصر فقد حضر اليها «قاطنا» على حد تعبير الاعلان .

الأهم من الاعلان تعليق الاهرام عليه، والذى جاء فيه :

«يسرنا جدا أن نرى أحد أبنائنا العربيين صرف عدة من السنين فى مدرسة شهيرة نظير مدرسة برلين ونال الشهادة المعتبرة فى ما يطالعه ولكن يسوؤنا جدا أن لا نرى لبضاعته رواجا بدعوى انها عربية مع إنه ممن نبغوا بهذا الفن وله فيه آثار تذكر فالمأمول من أهالى مصر الكرام أن يثقوا به فيروا من أفعاله ما يطيب»!

ويشى هذا التعقيب بحقيقة أن الأطباء، كانوا، خاصة فى الاسكندرية، من الأوربيين، وأن الذين نافسوا هؤلاء، خاصة فى مجال فتح العيادات، كانوا من الشوام

ولم يكن الاوائل فى حاجة للاعلان عن أنفسهم، سواء بسبب ان الأوربيين، الذين يرتفع عندهم الوعى الصحى، يقصدونهم دون سواهم، أو أن غير الأوربيين، خاصة من المصريين الذين تخلوا عن طب العطار وقصدوا الأطباء، ولو فى حالات الضرورة القصوى، انما كانوا يذهبون إلى الأطباء الأوربيين بحكم ما يحظى به هؤلاء من ثقة.

وفى المقابل فقد كان الأطباء الشوام فى حاجة إلى ذلك،وهم فى هذا السبيل لجأوا إلى صفحات الاهرام، حيث تكررت اعلاناتهم، هذا من جانب ، وحيث سعوا إلى اغراء المرضى على الاقبال عليهم بالتنويه باستعدادهم بمعالجة الفقراء مجانا من جانب آخر.

حدث هذا بالنسبة لاعلان صوصة كما حدث بالنسبة لاعلان آخرين كان أهمهم سليم داود قنواتى، الشامى أيضا ، والذى كرر نشر اعلانه أكثر من مرة والذى جاء فيه:

«اننى بحوله تعالى قد نلت الشهادة الطبية الديبلوماتية من مدرسة الطب بالقصر العينى، وحضرت إلى هنا.. وقد خصصت وقتا يوميا من الساعة ٣ افرنجية بعد الظهر لغاية الساعة ٥ لمعالجة الفقراء عن الأمراض الباطنية أو الخارجية مجانا »!

جاءت اعلانات المحامين (الأفوكاتية) بعد اعلانات الأطباء، وكان هناك من الأسباب ما يدعو إلى نشأة هذه المهنة فى الاسكندرية، وفى عام صدور الأهرام بالذات.

ففى ذلك العام، وفى أول يناير ١٨٧٦ على وجه التحديد، افتتح رياض باشا ناظر الحقانية(العدل) أول محكمة مختلطة تنشأ بمصر فى «سراى الحقانية» بالاسكندرية، وهى المحكمة التى بدأت تعقد جلساتها بدءا من الشهر التالى.

ويرتبط ظهور مهنة الأفوكاتية بانشاء هذه المحاكم، فبعد أن كان من يقوم مقام المتخاصمين أمام المحاكم من قبل يوصفون«بالوكلاء» الذين لم يكن يشترط فيهم شروط خاصة فان لائحة المحاكم الجديدة اشترطت شروطا محددة على المترافعين أمامها أهمها «أن يكون حائزا الشهادة الدالة على كونه أفوكاتيا » !

وكان من الطبيعى نتيجة لارتباط نشأة المهنة الجديدة بالمحاكم المختلطة أن يكون أول من يمتهنونها من الأجانب مما يشى به أول اعلان صدر فى الأهرام، وهو الاعلان الذى صدر فى أول أعداد الصحيفة وجاء فيه:

« انه قد فتح محل جديد فى ثغر الاسكندرية باسم دوفنسيكة بيمونتيل الأبوكاتو وهو مستعد لأن يحامى عن كل الدعاوى التى يوكل بها سواء كانت فى المجالس العربية أو الافرنجية فمن يرغب توكيله فى دعواه فليشرف محله الكائن أمام البوستة الإيتاليانية نمرة ٢٢ فى وكالة أحمد باشا .أما الدعاوى التى للفقراء فيقبل المحاماة عنها مجانا »!

ويلاحظ، بالنسبة للأفوكاتية أيضا، أنهم فى سعيهم لاجتذاب الزبائن لهذه المهنة الجديدة، فانهم لا يرون ما يمنع من الاستعداد بقبول بعض القضايا دون مقابل .

ارتبط بهذه المهنة مهنة أخرى هى مهنة المترجمين الذين يقومون بترجمة«الأوراق الشرعية»، وهى مهنة احتلت الاعلانات عنها مكانا كبيرا فى الاهرام حتى أن اعلانا منها ظل يصدر فى الأهرام خلال العام الأول بشكل منتظم..

الاعلان عن مكتب «للترجمة من اللغات الفرنساوية والايتاليانية والانكليزية إلى العربية ومن هذه إلى الفرنساوية».

ويبدى صاحبا المكتب استعدادهما «لخدمة الأشخاص الذين لهم أو عليهم دعاوى وليس عندهم وقت كاف لمعاطاتها سواء كانوا فى هذه المدينة أو فى الأرياف والخارج وجمعية بالأجرة الخفيفة»!

وتدل اسماء هذين، ابراهيم عرب وحنين خورى، انهما من الشوام ايضا.

الترويج للسلع الأوروبية كان المجال الآخر من مجالات «اعلانات أول زمن» فى الأهرام، وبالطبع لم يكن مقصودا الترويج لتلك السلع بين الأوروبيين القاطنين فى الاسكندرية فان هؤلاء لم يكونوا يقرأون الصحف العربية، كان المقصود بالأساس المصريين أو العرب خاصة أبناء الشام..

بعض هذه السلع كان غذائيا، والتى احيطت بهالة من الدعاية كانت رغم مبالغاتها مقبولة بمنطق العصر، ونختار من تلك الاعلانات اعلانين..

الاعلان الأول عن مياه غازية عادية ولكنه يقول: «ليموناد كازوز طبيعى من سان ألبان - ان هذا النوع من المشروبات أمس الآن موضوعا لتوصية الأطباء ضد أمراض البلاد الحارة ويحفظ فى زجاجات وكثيرون ممن جربوه عرفوا منافعه ويباع فى الاسكندرية عند الخواجات..».

الاعلان الثاني عن مياه معدنية عادية أيضا ولكنه يقول: «ان مرض الأنيميا أى فقر الدم والكلوروز أي المرض الأخضر والكاسترالجيا أى أمراض المعدة. وكل الأمراض الناشئة عن ضغط الدم تزال بالماء المسمى باردين وهو ممدوح من الحكماء لاسيما موافقته للبلاد الحارة ويباع بالاسكندرية فى شارع شريف عند الخواجات..»

ويمكن رصد اكثر من ملاحظة على هذه النوعية من اعلانات أول زمن..

أولا: أن الهدف من ورائها كان تغيير نمط استهلاكى، من مشروبات اعتاد المصريون عليها، مثل الخروب والعرقسوس والكركديه وغيرها، إلى المشروبات الجديدة التى تجىء فى زجاجاتها المقفلة من أوروبا!

ثانيا: انه لما كان النوع المألوف من المشروبات يرتبط فى ذهن الناس بشفاء بعض الأمراض أو التخفيف منها حتى أن بائعيها كانوا يختمون نداءاتهم عنها بالكلمة المشهورة «شفاء يا..» فان المعلنين الجدد لم يروا مانعا من المزايدة على المشروبات القديمة حتى أن الاعلان عن مياه «باردين» المعدنية أوحى وكأنها تشفى كل الأمراض!

ثالثا: أن الوكلاء الذين أخذوا فى الترويج لهذه السلع الجديدة كانوا فى الأساس أجانب، خاصة من اليونانيين، الذين تفوقوا على غيرهم بتواجد قوى وقديم فى سائر انحاء مصر، وبشهرة فى تسويق المنتجات الغذائية الأوروبية!.

غير أنه يلفت النظر فى اعلانات أول زمن تلك المساحة التى احتلها نوع من الاعلانات يمكن توصيفها بالاعلانات الثقافية فأول اعلان عن مدرسة بنات صدر فى الأهرام وأول اعلان عن مكتبة عامة صدر فى الأهرام أيضا، ولكل منهما قصة..

معلوم أن أول مدرسة لتعليم البنات فى مصر أنشأتها فى القاهرة زوجة الخديو اسماعيل عام ١٨٧٣ هى مدرسة السيوفية..

الاعلان الذى نشره الأهرام يوم ٢ مارس عام ١٨٧٧ يكشف عن أمور كثيرة..

فهو يكشف عن انشاء «مدرسة وطنية بالأسكندرية لأجل تعليم البنات» قبل عام، أى بعد أقل من ثلاث سنوات من انشاء السيوفية، إلا أن هذه كانت مدرسة أهلية فى هذه المرة وقام على انشائها سيدة شامية أيضا كما يشير اسمها.. كريستين قرداحى!

يكشف أيضا عن أن الهدف من المدرسة تعليم اللغات: «العربية والفرنسية والايتالية والانكليزية وسواها.. ثم علم البيانو يوميا وكذلك الأشغال اليدوية الدقيقة كالخياطة والتفصيل وتطريز القصب وتطريز الحرير من جميع الأجناس وشغل الصوف والزهور والركامو والبرانيط»!

ونرى أن السيدة قرداحى قد حذت فى مدرستها حذو مدرسة السيوفية التى كان يقوم التعليم فيها على اعداد ربة البيت المتكاملة التى تنتمى إلى القطاع العلوى من الطبقة الوسطى، وليس الطبقة الارستقراطية التى كانت توفر لبناتها كل هذه المهارات من خلال مدرسين خصوصيين.

تكشف أخيرا عن تعدد اقسام المدرسة، فهناك القسم الداخلى، وهناك القسم الخارجى «مع الأكل مع الظهر» ثم القسم الخارجى «بدون أكل»!

هذا عن الاعلان الأول، أما الاعلان الثانى فقد كان غريبا بحق.. اعلان عن أول «دار كتب» خاصة.

ففى عام ١٨٧٠ نجح على مبارك فى تأسيس «كتبخانة خديوية» ضاهى بها «كتبخانة باريس» على حد تعبيره، ولكنها نشأت فى القاهرة.

أما فى الاسكندرية فلم تنشأ مكتبة عامة، هى مكتبة البلدية، إلا بعد أكثر من عشرين سنة.. فى عام ١٨٩٢ على وجه التحديد..

فى تلك الفترة أقدم البعض على انشاء كتبخانة خصوصية وأعلنوا عنها فى الأهرام..

جاء فى هذا الاعلان الصادر فى العدد الثالث من الأهرام: «اننا بحوله تعالى قد فتحنا فى هذه المدينة مكتبا عموميا لأجل مطالعة الكتب الأدبية بجميع أنواعها وجميع الجرائد العربية والتركية والافرنجية.. وتسهيلا للجميع جعلنا قيمة الاشتراك ٣ فرنكات كل شهر تدفع عند ابتداء تاريخ الدخول»!.

وكان اصحاب هذا المشروع - هما ذاتهما - صاحبى مشروع مكتب الترجمة وصاحبى مكتبة ودار للنشر، ابراهيم عرب وحنين خورى، الأمر الذى دعاهما إلى السير قدما فى مشروعهما الغريب!

بقى من المجالات المتعددة التى تناولتها «اعلانات أول زمن» ما يمكن ادراجه تحت توصيف «الاعلانات الفنية».

وعندما نتحدث عن الفن فنحن نقصد «المسرح» الذى كان لاسماعيل فضل تقديمه للمصريين عندما قام ببناء دار الأوبرا بمناسبة الاحتفالات بافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩، أى قبل صدور الأهرام بسبع سنوات فحسب.

خلال تلك السنوات أقدم الأجانب فى الاسكندرية على انشاء مسارح خاصة، زيزينيا وألفيرى، وهى وان تميزت عن الأوبرا - بكونها مسارح خاصة إلا أنها استمرت تقدم عروضا أجنبية فى الأساس مما جعلها وقفا على الأوربيين وقلة من المصريين.

ماحدث عام صدور، ١٨٧٦، أن جاءت إلى مصر أول فرقة تمثيل (تشخيص) عربية، وكانت فرقة شامية، هى فرقة سليم نقاش، وقد نزلت أولا بالاسكندرية وكان من الطبيعى أن تعلن الأهرام عن وصولها كذا عن نشاطاتها..

أول اعلان جاء فى عدد الأهرام الصادر فى ١٢ ديسمبر عام ١٨٧٦ يبشر أهل الاسكندرية بوصول «ذاك الفتى اللبيب والحاذق الأديب سليم أفندى نقاش الذى تلقى فن تشخيص الروايات عن عمه المرحوم الخواجا مارون نقاش الشهير المبدع لهذا العلم فى الأقطار السورية.. أما المحل الذى سيجرى فيه التشخيص فتياترو زيزينيا»!

تتابعت الاعلانات بعد ذلك فمرة يمثل «المشخصون» رواية «هرون الرشيد فأتت متقنة غاية الاتقان» وكان اسم الرواية بالكامل هرون الرشيد وأبوالحسن المغفل!، وأخرى يمثلون رواية مى، وغيرهما من الروايات.

وتشير هذه الاعلانات الى حقيقة وهى أن المسرح العربى قد ولد فى الاسكندرية وعلى صفحات الأهرام.

ثم أن تلك الاعلانات قد أدت الى بلوغ خبر فرقة سليم نقاش الى القاهرة.. الى الخديو اسماعيل على وجه التحديد.

وقد بادر الخديو الى دعوة الفرقة لتشخيص بعض الروايات فى حضرته مما كان بمثابة ميلاد للمسرح العربى فى العاصمة المصرية.

صحيح ان الخديو اسماعيل لم يحتمل لوقت طويل روايات سليم نقاش التى شعر انها تحمل فى طياتها بعض الانتقادات لممارساته فى الحكم، خاصة بعد أن قدم فى حضرة الخديو رواية تحت اسم «الطاغية» الأمر الذى تصوره اسماعيل نوعا من التعريض بشخصه مما دفع به الي طرد الفرقة ليس من القاهرة وانما من مصر قاطبة.. كل هذا صحيح ولكن الصحيح أيضا أن معرفة الناس بالمسرح العربى، قد جاءت من خلال إعلانات أول زمن!

ولم يكن هذا هو الانجاز الأخير فى تلك الاعلانات، فقد كانت هناك اعلانات عديدة أخرى تشير فى مجموعها الى حقيقة الدور التجديدى الذى استمرت تلعبه صفحة اعلانات الأهرام فى أعوامها الأولى.. دور ادخال مصر الى العالم المعاصر بكل مفرداته.

● مراجع الفصل السابع:

اعداد الأهرام:

العدد	التاريخ
٢	١٨٧٦/٨/١٢
٣	١٨٧٦/٨/١٩
٧	١٨٧٦/٩/١٦
٨	١٨٧٦/٩/٢٢
١١	١٨٧٦/١٠/١٤
١٣	١٨٧٦/١٠/٢٨
١٤	١٨٧٦/١١/٤
١٥	١٨٧٦/١١/١١
١٦	١٨٧٦/١١/١٨
١٩	١٨٧٦/١٢/٩
٢٠	١٨٧٦/١٢/١٦
٢١	١٨٧٦/٨/١٢
٢٣	١٨٧٧/١/٦
٢٥	١٨٧٧/١/١٩
٢٨	١٨٧٧/٢/١٠
٣٠	١٨٧٧/٢/٢٤
٣٦	١٨٧٧/٤/٧
٤٨	١٨٧٧/٦/٩
٥٠	١٨٧٧/٧/١٤
٥١	١٨٧٧/٧/٢٠
٥٢	١٨٧٧/٧/٢٧
٧٢	١٨٧٧/١٢/١٦
٧٣	١٨٧٧/١٢/٢٢
٨٣	١٨٧٨/٢/٢
٨٦	١٨٧٨/٣/٢٢
٨٩	١٨٧٨/٤/١٢
١٠٨	١٨٧٨/٨/١٦
١١٤	١٨٧٨/٩/٢٦

الاهـــــرام ٢ مارس ١٨٧٨

اعلان

[illegible]

غروش

٦٠	[illegible]
٢٥	[illegible]
٢٠	[illegible]
١٠	[illegible]
٢٠	[illegible]

[illegible]

الاهـــــرام ٢٤ فبراير ١٨٧٧

اعلان

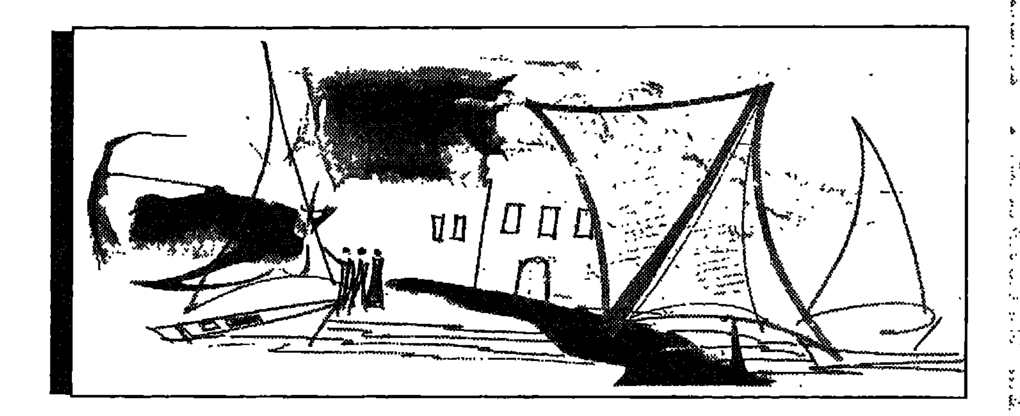
اعلن انني بعد ان صرفت مدة طويلة بمعالجة حكمة الاسنان في مدرسة برلين المشهورة ونلت الشهادة الديبلوما المعلنة بانتهائي ذلك حق الاتقان مع كل ما يتعلق به من الاصول والفروع [illegible] بما [illegible] وبعونه تعالى [illegible] تم النجاح والان قد حضرت الى مصر ناصبا لاشتغل بالمعالجة في ما يكون من متعلقات هذه الامراض كيف كانت [illegible] تعالى ان [illegible] الجمهور وبناء على ذلك اقبل كل من يريد تشريفي الى منزلي الكائن في (الازبكية) او [illegible] امام بيت [illegible] بدرب القبطية القديمة واستعد ايضا لاجابة من يطلبني الى منزله وكل ذلك بالاجرة المعتادة وفوق هذا لا اتأخر عن اجابة من يطلبني الى الخارج سواء كان للارياف او الاسكندرية باجرة [illegible] توافق الطرفين وقد خصصت كل يوم من الساعة ٨ الى ٩ افرنجية قبل الظهر لمعالجة الفقراء مجانا ابرهيم صوصه

حكيم الاسنان

يسرنا جدا ان نرى احد ابناء [illegible] العربيين صرف عددا من السنين في مدرسة شهيرة مثل مدرسة برلين ونال الشهادة المعتبرة في ما طالعه لكن يسوؤنا جدا ان لا نرى [illegible] انها عربية مع [illegible] هذا الفن ولا فيه آثار تذكر فالمأمول من اهالي مصر الكرام ان [illegible] من [illegible]

الفصل الثامن

مصر .. وحرب النيل والحوت



■ ■ البداية من البوسنة والهرسك

■ ■ حياد مصر يتقرر منذ وقت مبكر

■ ■ قناة السويس لا تدخل فى ميادين المعامع

بالحروب يموت البشر وتحيا الصحف (!)، هذه المقولة ثبتت صحتها خلال الحرب الروسية ـ التركية ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨، ليس بالنسبة للأهرام، حديث الصدور وقتئذ، فحسب، بل بالنسبة لأغلب الصحف الأهلية التي صدرت في مصر خلال هذين العامين، مثل الوطن ومصر ومصر الفتاة والتجارة، حتى أن مؤرخي الصحافة يرون في تلك الحرب نقطة تحول في تاريخ الصحافة الأهلية في مصر التي تخلت عن «الاتجاه التقليدي في الاقتصار على تافه الاخبار» (!) على حد تعبير أحدهم.

بالنسبة للأهرام فقد ولد مع مقدمات تلك الحرب وعايش أحداثها وعاش في خضمها ولم يكن ليستطيع أن يتجاهلها رغم انها من شئون «البولوتيقا» التي تعهد صاحبها أن يتجنبها في طلبه لاصدار الجريدة!

المقدمات بدأت عام ١٨٧٥ من شبه جزيرة البلقان التي اكتسبت منذئذ سمعة سيئة في صناعة المتاعب الأوروبية حتى انه أطلق عليها فيما بعد «برميل البارود الأوروبي» كما أن التوصيف «بالبلقنة» أصبح حالة تعبر عن المنازعات العرقية والدينية في أية بقعة من العالم.

ولسنا من أنصار المقولة الخاطئة بأن «التاريخ يعيد نفسه» بيد أن البداية كانت من «البوسنة والهرسك» بلاد «رجال الجبال الأشداء» على حد تعبير الأهرام، الأمر الذي يتطلب وقفة.

فبين القرنين الرابع عشر والسابع عشر، وفي ظل الحكم العثماني الذي كان قد عم شبه الجزيرة، انتشر الاسلام بين الارستقراطية الحاكمة في البوسنة والهرسك فضلا عن مجموعات من فلاحيها، وكان لدى الأوائل حساسية شديدة حيال أي تدخل خارجي حتى من حكومة الاستانة، مما تبدى في مجموعة انتفاضات قادها ملاك الأراضي خلال عشرينات وثلاثينات القرن التاسع عشر، الامر الذي دفع الباب العالي الى ارسال جيش لاعادة سلطة الدولة على تلك البلاد عام ١٨٥٠، في عملية كانت أشبه باعادة الفتح.

رغم ذلك لم تتوقف ثورات أبناء البوسنة والهرسك خلال الستينات والسبعينات من نفس القرن، وان كان قد قام بها تلك المرة الفلاحون، كان آخرها ثورة ١٨٧٥ والتي قادت في النهاية الى حرب روسية ـ عثمانية جديدة، ولم يكن قد انقضى على الحرب السابقة بين الجانبين والمعروفة بحرب القرم أكثر من عشرين عاما.

وعملية تحول ثورة البوسنة والهرسك الى حرب عثمانية ـ صربية، ثم تحول تلك الأخيرة الى حرب عثمانية ـ روسية عاشها «الاهرام» وسجلها وكان تسجيلا مثيرا (!)

كان تسجيلا مثيرا بحكم الموقع الذي اختار منه الأهرام أن يتابع الحرب، وكان موقعا مصريا، ، حتى انه قدم صورة كاملة للموقف المصري من الحرب يندر ان نجدها في سواه.

وكان تسجيلا مثيرا من خلال الرؤية المعاصرة التى قدمها «الأهرام» وهى رؤية تضيف حتى للمتخصصين فى وقتنا الحالى أبعادا لاتخطر على بالهم دون قراءة الأهرام.. أهرام ما قبل ١١٨ سنة!

★★★

دون الدخول فى تفاصيل تاريخية معقدة فان ما عرف «بالمسألة الشرقية» قد اكتسب بعدا خاصا منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر حين بدأت روسيا، أو دولة «الموسكوب» بتعبيرات العصر، تخطط للسيطرة على مضيقى البوسفور والدردنيل، الأمر الذى يتيح لها الخروج من معتقل البحر الأسود الى البحار الدفيئة المفتوحة، ولم يكن هذا ليتم دون الاستيلاء على القسطنطينية (الاستانة) حاضرة الدولة العثمانية.

فى سبيل ذلك اشتبك الطرفان فى حروب عديدة لم تكن مصر بعيدة عن أى منها..

فى حرب ١٧٦٨ ـ ١٧٧٤ والتى تزامنت مع حركة على بك الكبير الانفصالية فى مصر جرت اتصالات بين الامير المملوكى الطامح للاستقلال بمصر وبين الكونت اورلوف قائد الاسطول الروسى فى البحر المتوسط للحصول على المعونة الروسية لمشروعه الاستقلالى، وقد حصل عليها!

خلال الحروب المصرية ـ العثمانية المعروفة بحروب الشام التى جرت ابان ثلاثينات القرن التاسع عشر وبعد أن زحفت جيوش القاهرة حتى شارفت المضايق لم تجد روسيا مناصا من التدخل من خلال معاهدة «هنكار اسكله سى» التي عقدتها مع الدولة العثمانية (١٨٣٣) وتعهدت فيها بحماية المضايق من المصريين! وكانت نقطة تحول فى مشروع محمد على بالاتجاه نحو الشرق.

وفى الحرب المعروفة بحرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦) أرسلت مصر قواتها لمساندة قوات الدولة، وكانت آخر الحروب قبل حرب الفيل والحوت!

بيد أنه خلال العقدين الممتدين بين نهاية حرب القرم (١٨٥٦) وقيام الحرب الروسية ـ التركية (١٨٧٧)، والتى نتابعها فى هذا المقال، كانت مصر قد عرفت متغيرات كثيرة جعلت موقفها من تلك الحرب متعدد الجوانب..

متغير أول ناتج عن سياسات الخديو اسماعيل الذى تعامل مع متاعب الدولة العثمانية بشكل مختلف عن سلفه سعيد باشا..

فبينما أرسل عباس القوات المصرية لمعاونة جيوش الدولة فى حرب القرم انطلاقا من السعى لمنع حكومة استنبول من التعدي على الوضع الخاص لمصر الذى كفلته تسوية ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ اذا ما قصر فى التزاماته حيالها فان اسماعيل أرسل قواته سعيا وراء مزيد من أسباب الاستقلال عن الدولة، وهى لعبة استمر هذا الحاكم يمارسها بامتداد

عهده، وحصل من ورائها على مزايا عدة لمصر لم يسبقه اليها سوى جده محمد على باشا.

متغير ثانى اتصل بالأزمة المالية الخانقة التى كانت تعانى منها مصر وقت قيام الحرب. ولم يكن اسماعيل قادرا هذه المرة على تدبير الاموال اللازمة للحرب بمفرده، كما كان الحال بالنسبة للحروب السابقة، وكان عليه أن يحصل على موافقة مجلس النواب المصرى، الأمر الذى جعله طرفا فيها!

المتغير الثالث صنعه تنامى التدخل الدولى فى مصر مع تفاقم الأزمة المالية خلال النصف الثانى من السبعينات وهو تدخل أضفى على الموقف المصرى من الحرب بعدا كان قائما خلال حرب القرم، ولكنه لم يكن بهذه الحدة.

آخر المتغيرات كان قد تم صنعه قبل قيام الحرب بثمانى سنوات فحسب.. افتتاح الممر المائى الدولى قناة السويس والذى كان يعرف وقتذاك «ببوغاز السويس» عام ١٨٦٩، وكان مطلوبا فى هذه الظروف تكييف الوضع الدولى للممر الشهير. الأمر الذى كان موضعا للبحث وأفرد له «الاهرام» عديدا من أعمدته.

★★★

بدت طبيعة المتغير (الأول) من محدودية حجم المساهمة العسكرية التى قدمتها مصر بالقياس للحروب السابقة، فبينما وصل عدد القوات المصرية التى أرسلها اسماعيل للمعاونة فى اخماد ثورة جزيرة كريت عام ١٨٦٦ الى ٥٢٩ ٢٣ رجلا، فان عدد أولئك الذين أرسلهم فى الحرب الأخيرة لم يصل الى نصف من أرسلهم الى كريت (٥٣٠ ١١) رغم أهميتها فى تقرير مصير الدولة. ولا تفسير لذلك سوى ان حاكم مصر كان يساوم فى الحرب الأولى على مزيد من الصلاحيات له وأسباب الاستقلال لمصر، بينما لم يكن لدى الدولة العلية ما يساوم عليه فى الحرب الثانية!

علل اسماعيل أسباب التقاعس هذه المرة بقوله: «ينبغى الاجابة لما اقتضته الأحوال فى أداء ما يجب علينا من حق الحضرة الشاهانية مع مراعاة تعهداتنا المالية».

المتغير (الثانى) ظهر فى دعوة «مجلس شورى النواب» لجلسة فوق العادة حيث تليت عليه «مقالة مشمولة بختم الحضرة الخديوية» نشرها الأهرام فى ١١ مايو عام ١٨٧٧..

جاء فى هذه «المقالة» - الخطبة - بعد مقدمة عن ظروف نشوب الحرب بين «الدولة العلية» ودولة «الروسية» بأنه على مصر «أن ترسل عساكر أيضا كما أرسلت فيما سبق وأن تقدر كميتها» غير أن هذه الكمية من العساكر، على حد تعبير خطبة الخديو، لايمكن تقديرها «بدون الوقوف أولا على معرفة كمية المبلغ الذى يمكن للاقليم أن يخصصه لهذا الأمر لأنه كما هو معلوم عندكم أن ميزانية المالية لاتسمح لنا بايفاء هذا الغرض».

تستطرد «المقالة» بعد ذلك في موقع آخر قائلة ان المطلوب هو : «التحرى فى وجود طريقة فى تدارك مبلغ مخصوص لهذا الامر المهم حيث أنه بتعيين ذلك المبلغ يمكن لناظر الجهادية (الحربية) معرفة حقيقة مقدار العساكر التى يرسلها الى ذلك الطرف ـ طرف الحرب ـ فهذا هو الغرض من عقد المجلس فى هذه المرة»!

واجتمع مجلس شورى النواب بالفعل وقرر فرض ضريبة اضافية سميت «ضريبة الحرب» قدرها عشرة فى المائة من مجموع ضرائب البلاد للانفاق على الحملة، الامر الذى شكل أول سابقة فى تاريخ البرلمان المصرى.. سابقة موافقة هذا البرلمان على اشتراك مصر فى حرب!

وتشير المصادر الى أن الضريبة المذكورة كانت فوق طاقة المصريين حتى أنها قد سببت «تذمرات ثورية» خاصة في الصعيد.

المتغير (الثالث) انعكس على موقف مصر فى الحرب، وعما اذا كان ارسالها لبعض قواتها الى ميدان القتال يجعلها طرفا أصيلا فى الحرب مما يعرضها للمخاطر.

وقد عنيت انجلترا وفرنسا على وجه الخصوص، باعتبارهما صاحبى النصيب الأوفى من المصالح فى مصر، بتأمينها من تلك المخاطر، الأمر الذى بدا فى موقفين سجلهما الأهرام..

الأول حين دعيا ممثلى الدول الكبرى فى القاهرة، وتوصلوا الى قرار بأن أية مساعدة يقدمها الخديوى للسلطان ينبغى أن تكون فى اطار الالتزامات التى تحكم العلاقة بين الخديوى والباب العالى «ليس إلا»!

والثانى فى الرسالتين اللتين تبادلتهما لندن مع الحكومة الروسية بشأن وضع مصر وقد نشرهما الاهرام فى ٦ يوليو عام ١٨٧٧..

نبهت الرسالة البريطانية امبراطور روسيا للمصالح التجارية والمالية لأوروبا فى مصر «وبناء على ما ذكر يعتبر كل عمل ضد هذه البلاد غير موافق وجميع الدول المتحايدة تشمئز منه اذن تجب مراعاة مصر» بمعنى التعدى عليها!

وجاء الرد الروسى على رسالة وزير الخارجية البريطانى اللورد دربي، ولم ينف الروس فى ردهم أن مصر فى حالة حرب مع بلادهم «لانها قسم من المملكة العثمانية وجيوشها فى ميدان الحرب» لكنها رغم ذلك «لا تريد ان تدخلها فى اعمالها الحربية بالنظر الى صالح اوروبا فيها لاسيما صالح انكلترا».

(آخر) المتغيرات خاص ببوغاز (قناة) السويس التى كان مطلوبا عدم دخولها فى «ميدان المعامع» على حد تعبير الأهرام.

ومنذ البداية رفضت حكومة استنبول فكرة حياد القناة على اعتبار ان ذلك سوف يمكن من منع الروس من تحريك سفنهم عبرها، ويشير الأهرام فى الأيام الأولى من

الحرب الى اتجاه النية الى إغلاق «بوغاز السويس» أمام السفن الروسية، ولكن لم يكن هذا موقف الدول الأوروبية خاصة بريطانيا، ونعود مرة اخرى للقراءة فى رسالة اللورد دربى الى الحكومة الروسية التى نشرها الأهرام، جاء فيها قوله:

«بوغاز السويس السبيل الموصل بين الشرق وأوروبا هو المركز الأول الذى ينبغى ان يكون حرا ومفتوحا للمسير». ويخرج من ذلك بالتحذير من حصاره أو اقتحامه «لان ذلك يمس بالتجارة العالمية ويتهدد الهند» وتنتقل الرسالة البريطانية من التحذير الى الانذار بقولها انها «لا تؤمل ان احدا من المتحاربين يجرى ذلك لان اجراءه يدعو الى الخلل فى حيادتها» - حيادها!

وجاء الرد الروسى بالموافقة على التعهد: «ان الحكومة الامبراطورية لا تريد ان تحصر بوغاز السويس ولا تقطعه ولا تهدده كيف كان الأمر» ويسلم الروس بان قناة السويس مشروع دولى «يتعلق بصالح تجارة العالم فلا يدخل فى ميادين المعامع»!

ونرى ان الاتفاق على حياد قناة السويس خلال تلك الحرب كان مقدمة لعقد اتفاقية القسطنطينية عام ١٨٨٨ التى قننت هذا الحياد على نحو دولي!

★★★

يأتى الجانب الثانى من التسجيل المثير من «الأهرام» للحرب الروسية - التركية من خلال الرؤية المعاصرة التى قدمها، بكل مالها وماعليها..

لقد وقع الأهرام وسائر الصحف المصرية فى خطأ ربما نقع فيه نحن العرب حتى يومنا هذا.. خطأ قياس أحداث جارية على أحداث ماضية وتوهم انها ينبغى ان تتكرر على هذا النحو بغض النظر عن المتغيرات، مما يشكل لدى العقل العربى تجاهلا لحركة التاريخ اكثر مما يشكل تعلما من دروسه!

تصور الأهرام ان ما حدث خلال حرب القرم من قيام بريطانيا وفرنسا بخوض الحرب ضد روسيا دفاعا عن الامبراطورية العثمانية يجب أن يتكرر مرة أخرى فى الحرب الجديدة.

وقد امتلأت صفحات الأهرام خلال الأسابيع الأولى من الحرب بتوقعات عن قرب دخول «انكلترا» للحرب وتتبع لتحركات قطع أسطولها دون ان تتحقق تلك التوقعات او تتحول تحركات الأسطول الى انذار يوقف الأعمال الحربية الروسية.

لم يكن الأهرام ولا غيره من الصحف أو الدوائر السياسية حتى فى استنبول قد أدركت بعض المتغيرات التى دخلت على السياسة التقليدية للحكومة البريطانية حيال المسألة الشرقية بالحفاظ على الامبراطورية العثمانية والعمل على منع الروس من الخروج الى البحار المفتوحة.

أدت هذه المتغيرات فى جانب منها الى السعى للاشتراك فى إرث املاك رجل أوروبا المريض بعد أن رأت حكومة لندن انه ليس ثمة أمل فى الشفاء، وبعد ضغوط من الرأى

العام البريطانى تتبعها «الأهرام». وكان كل مايهمها فى هذا الشأن تدعيم وجودها فى شرق البحر المتوسط.

وأدت فى جانب آخر الى السعى لضبط التوسع الروسى على حساب الدولة العثمانية بشكل لا يؤثر فى المصالح البريطانية من جانب آخر، مما استمر يشكل ركنا اساسيا فى سياسات بريطانيا القارية طوال تاريخها.

مصالح بريطانيا حددتها رسالة اللورد دربى الى امبراطور روسيا والتى نشرها الأهرام، ففضلا عن عدم التعدى على مصر وحياد قناة السويس طالبت حكومة لندن بعدم المساس بوضع الاستانة لانها غير مستعدة للاغضاء عن عمل يؤدى الى تغيير الدولة لعاصمة «ذات أهمية عظيمة». وعدم المساس «بالقوانين والحدود المرتبة والمثبتة من أوروبا بشأن البسفور والدردنيل»، ويقصد من ذلك ماتقرر بشأن المضيقين الشهيرين فى معاهدة باريس التى أنهت حرب القرم عام ١٨٥٦، والتى حرمت المرور الحربى عبرهما. أخيرا اهتمت لندن «بخليج العجم» (العربي) الذى كانت تخشى طوال الوقت خروج روسيا اليه، فقد رأت حكومة لندن انه «من باب الحرية واللزوم ان خليج العجم يجب ان يحترم»!

وفى سبيل شراء حياد انجلترا وافق وزير الخارجية الروسي، الكونت كورتشاكوف، على سائر المطالب البريطانية، الأمر الذى جعل الأهرام يعيد النظر فى موقفه.

ولم تجد صحيفتنا العتيدة مناصا فى النهاية من اعتناق النظرية التى نسبت الى المستشار الألمانى الأشهر البرنس بسمارك، فى الحرب القائمة، وهى النظرية القائلة بأنها «حرب الفيل والحوت» كناية عن روسيا وبريطانيا.

نشر الأهرام فحوى هذه النظرية فى مقالين طويلين، الأول صدر فى ابريل عام ١٨٧٨ تحت عنوان «الحرب بين الفيل والسمكة» والثانى فى اكتوبر من نفس العام تحت عنوان «الفيل والحوت»!

تقول هذه النظرية باستحالة اشتراك بريطانيا الى جانب تركيا فى الحرب ضد روسيا، وكان لهذه النظرية مبرراتها التى شرحها «الأهرام» بالتفصيل..

يقوم أول هذه المبررات على انه ليس فى وسع الانجليز «ان يجيشوا الجيوش ويضموها ويحشدوها، ثم يزحفوا بها هاجمين على البلاد الروسية ذات العسكر الجرار والبرارى الشاسعة والمعاقل المنيعة والأمة المجتمعة الكلمة». وانه ليس أمام الانجليز سوى «التضييق على الثغور الروسية فتجبرها على أخذ احتياطات وحشد عساكر وإقرارها فى محال عديدة بعيدة ممتدة من شمال اوروبا الى جنوبها فينشأ عن ذلك خلل فى تلك البلاد وتتعطل سبل التجارة».

هذا عما يمكن ان يفعله الحوت بالفيل اما مايمكن ان يفعله الثانى بالأول فتقول النظرية - التى نقلها الأهرام - ان ترسل «روسيا عساكرها الى جهة الهند الانكليزية

ليغروا الأقوام هناك على اثارة الثورات العامة فى داخلية البلاد ، وان مثل هذا النهج سيؤدى الى ايقاع الضرر ببريطانيا لان الثورة سوف تنتشر بين الهنود «ولو نالهم الموت والفنا فتتشوش افكار انكلترا وتندم»!

يذهب «الأهرام» بعد عرض القضية على هذا النحو الى انه ليس ثمة ميدان مشترك ليتقاتل فيه الفيل مع الحوت، فهذا يعيش بالغابات وذاك يسبح فى المحيطات، ويخرج عن ذلك بنتيجة قال فيها بالحرف الواحد:

«والخلاصة ان المسألة مشكلة والراجح انها ليست حرب فهى لا توافق مصالح انكلترا ولا تناسب الروسية وآمالنا ان الحوادث لا تكذبنا »!!

وبالفعل لم تكذب الحوادث تنبؤات الأهرام فقد ثبتت صحة نظرية بسمارك التى أخذ بها ، كما ناسب تشبيهه الدولتين الأوروبيتين في هذه الحرب على الأقل اكثر مما كان يناسبها التشبيه الذى ساد بعد ذلك بالدب والأسد ، فلم تكن روسيا فى حربها مع تركيا « دبا » ، ولم تكن بريطانيا فى موقفها من تلك الحرب « أسدا »!

● مراجع الفصل الثامن

● اعداد الاهرام:

رقم العدد	التاريخ
٤١	١٨٧٧/٥/١١
٤٩	١٨٧٧/٧/ ٦
١١٦	١٨٧٨/١٠/١٠

● د. احمد عبدالرحيم مصطفى:
علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل القاهرة ١٩٦٧
● اسماعيل سرهنك:
حقائق الأخبار عن دول البحار القاهرة ١٨٩٤
● عبد الرحمن الرافعى: عصر اسماعيل (جزءان) القاهرة ١٩٤٨
● محمد رفعت رمضان: على بك الكبير القاهرة ١٩٥٠

The Encyclopedia Americana - International Edition Vol 4





الفصل التاسع

ليالى الأنس



- ■ مولد البلاط الملكى.. فى سراى عابدين
- ■ الحاشية الأيطالية لماذا؟!
- ■ البروتوكول والاتيكيت فى سرايا الأعيان
- ■ موكب زفاف عصمتلوا جميلة هانم أفندى..
  يمر فى منطقة وسط القاهرة!

[٩]

وافد جديد دخل حياة المصريين خلال السنوات الأولى من عمر الأهرام، سنوات اواخر عصر اسماعيل وبدايات عهد خلفه، ولم تكن صحيفتنا بعيدة عن مراقبة هذا الوافد ورصد تحركاته.

الميدان الذى ولجه الوافد من الحياة المصرية كان ميدانا اجتماعيا بالأساس، وهو ميدان الاحتفالات، والجماعة التي أخذت به كانت أبناء الصفوة، والمكان كان «سرايات» هؤلاء ودور المسارح التى أخذت وقتئذ فى الانبثات فى مصر المحروسة وفى الاسكندرية. أما التوقيت فقد كان فى الليالى التى أسماها الأهرام «ليالى الأنس»!

ليس معنى ذلك أن المصريين لم يعرفوا قبل تلك السنوات اقامة الاحتفالات الاجتماعية ولكنهم عرفوها بشكل خاص، شكل يعبر عن عصر لم يكن قد عرف كل تلك المتغيرات التى كانت قد عرفتها الأعوام الاولى من صدور الأهرام..

★★★

«ليالى الأنس» التى عاشها المصريون قبل الربع الأخير من القرن التاسع عشر كانت شيئا مختلفا، فقد استمرت بالأساس تعبر عن روح النظام الاقطاعى الذى وان كان محمد على قد نجح فى ضربه ضربة قاصمة خلال العقد الثانى من القرن، الا أن جملة مفرداته الاجتماعية والقيمية كانت تتطلب وقتا حتى تختفى أو تضعف الى الحد الذى يسمح للأوضاع الجديدة أن تفرز مفردات وقيم جديدة، وهو ما استغرق أكثر من نصف قرن قليلا.

«الموالد» كانت تقدم مناسبة لعقد مجموعة متتالية من ليالى الأنس: مولد الحسين، مولد السيدة زينب، مولد الامام الشافعى، فضلا عن الموالد التى تعقد فى عدد من المدن الاقليمية، للسيد البدوى فى طنطا، ولسيدى ابراهيم الدسوقى فى دسوق، وكان يقوم أساسا على احياء تلك الليالى طرق الداراويش، خاصة المغاربة الذين احتلوا مساحة واسعة فى تلك الطرق.

«الحفلات العائلية» والتى كانت تقام لمناسبات خاصة.. زواج أو ميلاد أو ختان، وكان يقوم باحياء تلك الليالى «العوالم» الذين يقتصر وجودهم على الحريم، ولا يكون أمام الرجال فى هذه المناسبة سوى المشاركة بالتصنت!

«الاحتفالات الطائفية» فالمدينة المصرية فى ظل النظام الاقطاعى كانت تتشكل من جملة من الطوائف الخدمية والحرفية، وكان تدرج أبناء هذه الطوائف.. الحلاقين والخياطين وغيرهم من الطوائف الخدمية والنجارين والحدادين وغيرهم من الطوائف الحرفية.. كان تدرج هؤلاء فى مدارج حرفهم يتم من خلال احتفالات خاصة يتم فيها تدشين الشباب فيما يسمى «بالشد»، وكانت تلك الاحتفالات تقدم بدورها نموذجا أخيرا من ليالى الأنس!

خلال نصف القرن أو يزيد السابق على صدور الأهرام كانت قد حدثت جملة من التطورات انعكست على مفهوم ليالى الأنس المصرية، وكانت فى مجملها تطورات اجتماعية..

قدم نزول اسماعيل من ميدان القلعة الى ميدان عابدين أول تلك التطورات فهذا النزول كان بمثابة اعلان لمولد البلاط الملكى فى مصر، فيما سبقت الاشارة اليه فى فصل «جريدة التقاليد» وكان من بين تقاليد البلاط الجديد اقامة «ليلة أنس» بين الحين والآخر، وهى التى اكتسبت التسمية الأوربية.. «ليلة البالو».

وكما أثرت النشأة الايطالية للبلاط على تلك النشأة فى سائر الممالك الأوربية فقد أثرت أيضا على نشأة البلاط المصرى.

فمعلوم أن البلاط بمفهومه الحديث قد نشأ فى ايطاليا خلال عصر النهضة، وقد ساعد عليه تبكير الحياة المدنية فى شبه الجزيرة الايطالية عنه فى بقية انحاء القارة، فبينما كان الأمراء الاقطاعيون فى تلك الأنحاء لازالوا قابعين فى قلاعهم الحصينة وسط فرسانهم وأقنانهم كان أمراء المدن الايطالية قد بنوا قصورهم الأنيقة داخل مدنهم التى كانت تعج بالتجار والصناع.

ولعل الاضافة الأساسية التى قدمتها أوربا لما بدأه الايطاليون قد جاءت من البلاط الفرنسى، خاصة فى عهد الملك لويس الرابع عشر (١٦٦٠ - ١٧١٥)، وكانت بدورها اضافة لاتينية (!) غير انه فى صناعة البلاط المصرى جاء التأثير بالأساس من ايطاليا.

ويعزى هذا التأثير فى تقديرنا الى جملة من الأسباب، ربما يكون القرب الجغرافى أحدها، ولكن الأهم منه أن ايطاليا لم يكن لها من الأطماع السياسية فى مصر، حتى ذلك الوقت على الأقل، ما لدول أخرى مثل انجلترا وفرنسا، الأمر الذى لم يكن معه هناك ثمة خوف من تواجد ايطالى فى عابدين. من ناحية أخرى فقد كانت الجالية الايطالية فى مصر كبرى الجاليات الأوربية بعد الجالية اليونانية، ومع الوضع فى الاعتبار أن أبناء تلك الجالية الأخيرة كانوا أقرب الى الشرق منهم الى الغرب فيبقى التأثير الأوروبى للايطاليين على الحياة المصرية أكبر من تأثير غيرهم.

وقد استمر هذا التأثير باديا فى عابدين لسنوات طويلة، ليس فقط فى أفراد الحاشية الذين كان أغلبهم من الايطاليين، وانما حتى فى الاختيارات الأخيرة لسادة عابدين، فعند خلع اسماعيل عام ١٨٧٩ استقل يخته متجها الى نابولى، وهو نفس ما فعله حفيده فاروق الأول بعد ٧٣ عاما، ولم يكن لهذا الأخير من مطلب قبل الرحيل سوى أن يسمح له قادة النظام الجديد باصطحاب بعض أفراد حاشيته من الايطاليين!

وانعكس تأثر بلاط عابدين بالتقاليد الايطالية فى أنه عندما كانت تصدر دوائره بيانا باحتفالاتها فقد كانت تصفها بليلة «البالو» فى عابدين، وأصل الكلمة ايطالى ويعنى الحفل الراقص، وان كانت قد انتقلت الى الدارجة المصرية وأصبحت تعنى الضجيج، بحكم ما اقترنت به تلك الاحتفالات من صخب.

وقدم الوفود الأوربى الواسع الى البلاد خلال تلك الحقبة عنصرا ثانيا من عناصر التغيير فى طبيعة ليالى الأنس المصرية، ومرة أخرى يبرز الايطاليون باعتبارهم أكثر جاليات اقامة «للباللو» سواء بسبب كثرة عددهم أو بسبب الميل الطبيعى للشعوب اللاتينية للاحتفال.

ولم تكن تمر مناسبة دون اقامة هذه الاحتفالات يقول الأهرام عن أحدها «عزمت التبعة - التابعون - الايطالية أن تقيم مساء ١٤ الجارى - مارس ١٨٨٣ - ليلة راقصة فى تياترو زيزينيا احتفالا بعيد مولد جلالة الملك هومبرت الأول...».

وقد استتبع ذلك أن عرفت المدن الكبيرة، خاصة تلك التى قطنتها جاليات أوربية كبيرة ليالى الباللو أكثر من المدن الاقليمية التى لم يقطنها الأوربيون بهذه الكثرة.

وبعقد مقارنة مثلا بين الاسماعيلية وبورسعيد اللتين اكتظتا بالأوربيين العاملين فى شركة قناة السويس وبين مدينة مثل طنطا لم تعرف الوجود الأجنبى على هذا النحو، فعلى الرغم من أن الأخيرة كانت أكبر من اى من المدينتين الأوليين فانها لم تعرف ليالى باللو على النحو الذى عرفتاه ولمناسبات متعددة، حتى انه عندما أطلق اسم دليسبس على أحد ميادين بورسعيد أقامت الشركة «باللو» على حد تعبير الوثائق المصرية شارك فيه كل الأجانب بالمدينة.

ولفترة استمر المصريون يتفرجون على احتفالات الأجانب ويستهجنونها فى أغلب الأحوال، بل وربما كانوا يرون فيها شكلا من اشكال الانحلال الذى ينبغى أن ينأوا بأنفسهم عنه، ولكن لم يمض وقت طويل حتى أخذت فئة منهم تنخرط فى احتفالات الأوربيين وتقيم «الباللو» الخاص بها.

تمثلت هذه الفئة فى الارستقراطية الجديدة فى مصر.. ارستقراطية الدولة الحديثة، وبالذات فئات بعينها من هذه الارستقراطية المنحدرين فى الغالب من أصول غير مصرية.

تسجل الأهرام فى هذا الشأن ما جرى فى ليلتين من ليالى الباللو أقام إحداهما شريف باشا وأقام الثانية نوبار باشا.

يقدم الأول - شريف - نموذجا لتلك الشريحة من شرائح الارستقراطية المصرية المنحدرة من أصول تركية والتى استمرت تشارك بقدر أوفى فى حكم مصر، ربما حتى قيام ثورة ١٩١٩.

ويختلف الحكام المنحدرون عن أصول تركية فى القرن التاسع عشر عن أولئك الذين حكموها خلال القرون الثلاثة السابقة فهؤلاء قد استقروا فى مصر، وشكلوا أغلب أعضاء البعثات التى ذهبت الى أوربا فى عصر كل من محمد على واسماعيل، واختلطوا بالأوربيين العاملين فى الادارة المصرية، ومن ثم تأثروا بهم اشد التأثر وحاكوهم فى كثير من جوانب حياتهم بما فيها اقامة «الباللو»!

ويجسد شريف باشا كل ذلك فهو قد ذهب فى بعثة الى باريس حيث بقى بها ست سنوات انكب خلالها على دراسته العسكرية يقول جرجى زيدان انه نال خلالها «رتبة يوزباشى أركان حرب في الجيش الفرنساوى والحق بالجيش المصرى ولقب من ذلك الحين بالفرنساوى ومازال معروفا بين عامة المصريين بشريف باشا الفرنساوى الى هذه الغاية».

ويستطرد صاحب «تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر «قائلا عن شريف فى موقع آخر: » وكان أعظم قواد الجنود المصرية إذ ذاك سليمان باشا الفرنساوى فلما رجع صاحب الترجمة من فرنسا ألحق بأركان حرب سليمان باشا وتقرب منه حتى تمكنت علائق المودة بينهما »، وما لم يشر اليه جرجى زيدان انه قد صاهر هذا الأخير!

ولم يكن غريبا مع كل تلك الروابط ان يقيم شريف باشا بين الحين والآخر ليلة باللو وصفت الأهرام إحداها بقولها: «أدب دولتلو شريف باشا فى منزله العامر مأدبة متقنة دعا اليها سعادة اللورد دفرين وجناب السير مالت والنظار الكرام وبعض الأعيان فكانت مأدبة فاخرة جمعت دواعى المسرة والبهجة.. وقد تبعها ليلة ساهرة انقضت بمواضيع الانس والرقة»!

الثانى، نوبار باشا، يقدم نموذجا آخر، النموذج الأرمنى الذى اكتسب وضعيته فى ادارة الدولة الحديثة فى مصر من قدرته على التعامل مع «بحر برا»، وهو التوصيف الذى كان يطلق وقتئذ على أوربا، ولم يكن بالامكان أن تقتصر تلك القدرة على شئون الادارة والسياسية، فقد امتدت بعد قليل الى التقاليد الاجتماعية، وكانت ليالى الباللو الأوروبية بعض ما تم الأخذ به فى ذلك الجانب.

يبقى اخيرا ما شهده عصر اسماعيل من عمليات بناء واسعة من ابناء الطبقة الارستقراطية لعدد من «السرايات الفخيمة» أو «المنازل العامرة» بلغة العصر والتى كان يراعى فى انشائها احتواؤها على الأبهاء الواسعة والحدائق الفسيحة لزوم اقامة ليالى الأنس!

فضلا عن ذلك فقد عرف نفس العصر اقامة عدد وافر من دور المسارح او التياترات (جمع تياترو) بلغة العصر. وإذا كانت دار الأوبرا او «الأوبيرة» كما كان يكتبها الأهرام.. إذا كانت تمثل التياترو الأول الذى اقامته الحكومة فان المدن التى شكل الاجانب فيها قوة اجتماعية كبيرة قد عرفت التياترات التى أقامها هؤلاء. وقد اشتهرت الاسكندرية منذ وقت مبكر بقيام تلك المسارح، واشهرها «تياترو زيزينيا»

«تياترو الفيرى».

وقد وفرت تلك البنايات فى مجملها الأماكن المناسبة لإقامة ليالى الأنس المصرية!

★★★

من بين عديد من ليالى الباللو التى تابعتها «الأهرام» نختار نموذجين بكل ما يعبران عن طبيعة الحراك الذى أخذ يمسك بتلابيب المجتمع المصرى خلال السنوات الأولى من عمر صحيفتنا العتيدة..

النموذج الأول يتمثل فى تلك الليالى التى كانت تنعقد بمناسبات سعيدة لبعض أعضاء الأسرة الخديوية او لبعض ابناء الارستقراطية التركية التى أخذت فى التشبه بالأوروبيين..

وقد رصدت الأهرام فى مطلع عام ١٨٨١ مناسبتين من هذا النوع.. حفل زفاف أخت الخديوى «دولتلو عصمتلو جميلة هانم افندى» (!) على حد تعبير الاعلان الصادر عن «التشريفات الخديوية».

ويقدم وصف موكب الزفاف لـ «جميلة هانم افندى» صورة ممتعة لوسط القاهرة فى الرابع الأخير من القرن التاسع عشر فى المنطقة بين سراى الاسماعيلية من حيث بدأ الموكب الى سراى الجزيرة حيث انتهى.. الضبطية القديمة، العتبة الخضراء، البوستة الخديوية، لوكاندة كلوب، لوكاندة رواپال، فسقية قنطرة الدكة، لوكاندة شبت (شبرد)، قونسلاتو (قنصلية) دولة الانكليز، شارع كوبرى قصر النيل، الى ان يعبر الكوبرى ويصل الى سراى الجزيرة.

كما تقدم ليلة الباللو التى انعقدت بعد موكب مشابه لزفاف «حضرة سعادتلو داود باشا يكن «تجسيدا لما كانت تشاهده مثل تلك الليالى، وننقل فى هذه المناسبة ما جاء فى الأهرام الصادر يوم ٣ يناير عام ١٨٨١ بالنص.. قال:

«وفى المساء كانت سراى البرنس مزدانة بالأنوار تصدح فيها اصوات الأفراح والسرور والناس فى عرصاتها وجنانها يشنفون مسامعهم بأصوات المغنين والموايد ممدودة لكل شارد ووارد يختلف اليهم بأنواع المأكل والحلوى ومازال الجمهور فى سرور وطرب الى ما بعد نصف الليل فانصرفوا شاكرين داعين لجناب الخديو بدوام العز»!

النموذج الثانى يتجسد فى تلك الليالى التى كانت تنعقد فى سراى عابدين بين الحين والآخر، ويقدم لنا الأهرام الصادر فى ١٨ يناير عام ١٨٨٣ وصفا تفصيليا لاحدى تلك الليالى، ولنا عليه عديد من الملاحظات.

اولى تلك الملاحظات متصلة بالتقاليد الوليدة التى بدىء فى ارسائها والتى استمرت بعد ذلك فى استقبالات القصر المصرى، سواء كان خديويا أوسلطانيا أو ملكيا أو حتى جمهوريا!

من بين هذه التقاليد صدور بيان من «التشريفات» عن مناسبة الاحتفال وطبيعته.

من بينها ثانيا طريقة الاستقبال حيث كان يقف «رجال الكوميسيارية المؤلفون من خير القوم يتقدمهم رجال التشريفات لمقابلة الوفود فلا تلبث أن يأتوا الى نادى السراى حيث ترى المدعوين أفواجا»!

يأتى بعد ذلك نظام خاص لأسبقيات المدعوين. ، ففى الصدارة «حضرت الأمراء الفخام» أو البرنسيسات من أبناء الأسرة الخديوية يتلوهم «النظار الكرام» يتقدمهم رئيس النظار، وتسمية الناظر كانت تطلق وقتذاك على الوزير، ورئيس النظار كان فى ذلك الوقت شريف باشا، ويلى النظار القناصل العامون للدول، أو بلغة العصر «القناصل الجنرال» والذين كانوا يشكلون رجال السلك الديبلوماسى فى العاصمة المصرية، يتبعهم كبار رجال الادارة المصرية أو «الحكومة السنية» بلغة العصر أيضا، وكان يتم ترتيبهم بدورهم تبعا لمناصبهم: رؤساء الدوائر العالية فرؤساء الأقلام ويأتى أخيرا كبار التجار «الوطنيين والاوروبيين والاسرائيليين والسوريين وسواهم».

ويشير نفس الرصد لمراسل الأهرام الذى حضر هذا «الباللو» أن عدد الحضور ناف عن ثمانمائة مدعو، وهو رقم كبير بمقاييس العصر، مما يشير الى أن «التشريفات الخديوية» لم تهمل اية شخصية ذات قيمة فى مصروقتئذ.

عدّد مندوب الأهرام بعد ذلك قاعات السراى التى اقيم فيها «الباللو»: قاعة الرقص، قاعة اللعب، قاعة المشروب والمأكول، قاعة التدخين، هذا فضلا عن الفسحات والجوانب ، ولم ينس الرجل ان يشير فى هذه المناسبة الى «الأنوار الكهربائية البديعة» مما كان بمثابة الدخول المبكر للكهرباء فى مصر، وكان من الطبيعى ان يبدأ هذا الدخول من قصور علية القوم على رأسها «سراى عابدين».

وكان أكثر ما استرعى نظر مندرب الأهرام وكان مدير تحريره، أى بشارة تقلا نفسه، ما جرى فى القاعة الأولى.. قاعة الرقص، وننقل هنا نص كلماته عن ذلك الذى جرى.. قال:

«هنالك أخذت المخاصرة حقها الوافى ونالت القدود جمالها الكافى، وكان من ابدعهن مدام ب. ب ومدام ب وكريمة اللورد د. والكونتس د. والكونتس و. ومدام م. ومدام ن. وكريمتها ومدام ف. ومدام ش. ومدام هـ. وسواهن من ذلك الجنس اللطيف».

ويمكن أن نستقرئ من هذا الجزء بسهولة حقيقتين: أولاهما: أن جميع الراقصين كانوا من الأجانب ويبدو أن المصريين كانوا يكتفون فى هذه المناسبة بالفرجة، فقد كان من الصعب عليهم فى ذلك الوقت ان يقبلن مراقصة نسائهن، ناهيك عن أن يراقصهن الآخرون!

الحقيقة الثانية: أن رقص النساء حتى لو كن أجنبيات يندرج تحت العيب الى الحد ان مدير تحرير الأهرام اكتفى بالحروف الأولى من اسماء الراقصات حتى لو كانت كونتيسة

او ابنة لورد!

وبينما يقدم «باللو عابدين» النموذج المكبر لما كان يجرى فى ليالى الأنس المصرية فـان هذا النمـوذج قـد أنجب نماذجا عديدة فى قـصـور الأمـراء والأعيـان وكـبـار رجـال الجاليات الأجنبية.

وليس من شك ان هذا التـأثير الاجتماعى الأوربى قد تسلل الى حياة طبقات معينة من المصريين فى العصر ذلك ضمن تأثيرات عـديدة.. بدءآ من خلع الجلاليب وارتداء البدل ومرورا ببيع الارائك والطبالى واقتناء الصالونات والموائد، وانتهاء بالتخلى عن كثير من القيم القديمة ليحل محلها قيم اجتماعية جديدة.

واذا كـانت تلك التـأثيرات قـد بدأت أول مـا بدأت فى الطبـقـة العليـا من المجتـمع والفئات الأكثر اختلاطا بالأجانب الا انها مع مرور الوقت اخذت فى الانتشار الى أبناء الطبقة الوسطى، وقد شجع على ذلك الانتقال نمو هذه الطبقة على نحو ملحوظ خلال ما تبقى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن التالى، ورغبة ابنائها الجارفة فى تقليد أبناء الطبقة العليا، حتى انه لم يمض وقت طويل إلا وكانت لهم «ليالى باللو» على غرار الليالى التى كان يقيمها الأولون!.

● مراجع الفصل التاسع

أعداد الأهرام	التاريخ
٤٨	١٨٧٧/٦/٢٩
٤٩	١٨٧٧/٧/٦
٥١	١٨٧٧/٧/٢٠
٥٢	١٨٧٧/٦/٢٧
٧٧	١٨٧٨/١/١٨
٨١	١٨٧٨/٢/١٥
١٠٧	١٨٧٨/٨/٩
١١٥	١٨٧٨/١٠/٤
١٣١	١٨٧٩/١/٢٤
١٥٣	١٨٧٩/٧/١٠
١٥٩	١٨٧٩/٨/٢١
١٨٤	١٨٨٠/٢/١٣
١٨٩	١٨٨٠/٣/١٨
١٠٠٣	١٨٨١/١/٣
١٠٠٦	١٨٨١/١/٧
١٠١٧	١٨٨١/١/٢١
١٠٢٣	١٨٨١/١/٢٨
١٠٤٥	١٨٨١/٢/٢٥
١٠٦٢	١٨٨١/٣/١٩
١٠٧٧	١٨٨١/٤/٧
١٠٩٠	١٨٨١/٤/٢٩
١٥٤٧	١٨٨٣/١/١٨
١٥٥٣	١٨٨٣/١/٢٤
١٥٨٤	١٨٨٣/٣/٣
١٥٨٥	١٨٨٣/٣/٥
١٥٨٩	١٨٨٣/٣/٩
١٦٥٦	١٨٨٣/٦/٣

العاصمة

في ١٦ المدير الجريدة (تاخرت بالبوسطة)

بالسراي عابدين

في ليلة امس كانت من الليالي التي يخل الدهر بمثلها فقد تلألأت فيها سراي عابدين للناظرين بريقاً نوراً استضاء بالطالع الشرقي . بل في تلك الليلة التي عدت سيدة الليالي نزلت فيها الشمس برج الحمل دون الجدي فتنقى وجه السماء وسرى النسيم الرخي

يحمل الانوار وطربت عابدين منه

ازدانت ساحات ذلك المسرح بالانوار الجميلة الالوان على شكل بديع وقام فريق البوليس امام المدخل ووقف رجال الكوسسارية المولعين من نفس القوم يتقدمهم رجال التشريفات اثناء الورود فكنت تابعت ان يأتي بك الى مبادئ السراي حيث ترى المدعوين افواجاً وحتى اجتزت تلك قاعات احنيت الرأس خضوعاً لسمو الامير توفيق الاول الخديوي المعظم الذي كان يقابل الوفود بانعطافه ورقته ويتناول التهاني الجميع

وان القلم لا يقوى على وصف النظام الذي شمل ذلك المكان ولاسيما نظام قاعتي الرقص الخديويتين حيث مالت اغصان القدود بنسيم الدلال وصرت تدول الملابس بملابس العجب واشرقت شموس الوجوه في دياجي الشعور وانعقدت فرائد الثغور بين ثغور السكر وظهرت عقارب الاصداغ تحمي جنات الخدود واطلقت سهام الالحاظ الى افئدة الناظرين ضماناً فقال لسان الحال الله اكبر

هنالك اخذت الخاصرة منها الرقص وتبادلت القدود جمالها الفتان وكان من اشهر الداخلين مدام س ● ومدام ب وكريمات البرنس والجنرال . ا وكريمة اللورد . د والكونتس . د والكونتس . م ومدام . م ومدام . ن وكريمتها . ومدام . ف ومدام . ه ومدام . ش ومدام . . وسواهن من ذلك الجنس اللطيف

اما قاعة المشروبات فقد جمعت خير ما يشرب واما عن مائدة الطعام فحدث ولا حرج وقد اخذ المدعوون افواجاً افواجاً يردون اليها من نصف الليل ويتناولون كؤوس الافراح والمسرات ويرددون جميل الدعاء بحفظ اميرنا المعظم . وبالاجمال كانت السراي كلها على غاية الاتقان والنظام والترتيب بما ليس له مثال ولاشبيه من قاعات الرقص الى قاعات اللعب والمشروب والماكول والتدخين والصحات والجوانب تشاهد الازهار قائمة على اشكال بديعة يزينها انوار الشموس مقروناً بالانوار الكهربائية البديعة

اما سمو الخديو فكان ايده الله تلك الليلة كامثالها بهجة كل الايام وكان قبلة احترام المدعوين ومحط مسرتهم وقد تنازل لمؤانستهم وكان يتنقل من محل الى آخر ويقابل الكل برفقه وعند الساعة الثانية بعد منتصف الليل توجه بالاسعاد والاقبال بعد ان ارتفعت الاصوات بحفظ ذاته الكريمة

اما عدد المدعوين فكان نحو الالف نعد منهم حضرات الامراء الفخام محمود باشا ومنصور باشا وحسين باشا وابرهيم باشا ثم النظار الكرام يتقدمهم دولتلو الشريف ثم صاحب الدولة رياض باشا وزومار باشا وسعادة اللورد دوفرين وكريمته وسعادة [illegible] [illegible] ومعهم [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الممثلين للدول [illegible] وسعادتلو [illegible] [illegible] [illegible] الدولة

ورؤساء [illegible] [illegible]

المدينة والاثرة ومشاهير [illegible] [illegible]

من الملكيين والوطنيين يتقدمهم [illegible] [illegible] [illegible]

من رجال العلماء واكابر [illegible] [illegible]

والسوريين [illegible]

وقد [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] على تمام السرور [illegible] [illegible]

هذا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible]

[illegible] على وصف [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

لا زال كوكب [illegible] [illegible]

عن [illegible] في سماء الاسعاد والاجلال

رواية حضرة [illegible]

داود باشا [illegible]

لقد نوهنا عن مهرجان الزفاف الذي احكم استعداده فيحسن ان نسعد لكم شيئاً عن ذلك

كان مقام حضرة الوزير المذكور بديع العالم تام الاتقان مزدهياً بالانوار الساطعة وكان ازدحام المتفرجين دليلاً على ما هنالك من فرط المسرة وقد ازدانت سراي الحلمية وبزغت في افلاكها الشموس والاقمار وغردت في عذباتها بلابل الانس فارتقصت القلوب طرباً وجاءت صفاً القلب والعين [illegible] لاجرة ذلك المقام من المناظر والمحامد ما يضيق بطون الاوراق عن حصرها . وليس لي ان افصل وصف ما كان ليلة الخميس فما راء كمن سمع

فلما كانت الساعة الثالثة بعد الظهر خرجنا الى امام سراي الازبكية لنشاهد موكب الزفاف عند مروره من هنالك فوجدنا الطرق غاصة بالناس رجالاً ونساء وفي نوافذ المنازل ومشارفها افواج افواج من المتفرجين فاحتطنا بالقوم نزاحمهم ويزاحموننا وبعد هنيهة سمعنا اصوات الموسيقى صدى يطرب المسامع ويرقص القلوب وما لبثنا حتى اقبلت علينا فرقة من الخيالة في دروع يبهر العيون لمعانها يتقدمها جوق موسيقى تشنف الاسماع نغماتها وتليها فرقة اخرى بالخوذات والرماح المحلاة تمشي وراءها سرية من الجنود فخالها [illegible] قطع من الثلج قد ركبت [illegible] الافراس من العنبر فاذا ما دنت منك رأيت رجالاً قد سودت الشمس وجوههم وايديهم وبيض الخديوي [illegible]

وما زالت تمر بنا العساكر وجوقات الموسيقى صفوفاً صفوفاً في احسن نظام واجمل ترتيب نحو الساعة من الزمن حتى اقبل [illegible] الموكب . فحملقنا العيون وحدقنا الانظار فاذا موكب جليل يبهج الناظر مرآه ويأخذ بمجامع القلوب حسن انتظامه افراد باللابس الرسمية فوق خيول مذهبة السروج وسياس باللابس المقصبة يخترقون كالغزلان امام مركبة مطلية بماء الذهب تجرها ست افراس [illegible] يقودها رجل حسن الكسوة [illegible] حولها حرس بالخوذات والبيض [illegible] العروس الكريمة المصونة [illegible] مركبة [illegible] من جياد الخيل [illegible] نساء الحرم الشريفات [illegible] نحو الستين عربة [illegible] من كل [illegible] [illegible] قد اكمل [illegible] الموكب وكان خروجه من سراي الحلمية ماراً بالطرق والشوارع التي ذكرناها بالاعلان وعلى حسب الترتيب المذكور [illegible]

وما كان ابهجه منظراً لما صار الموكب في [illegible] امام السراي . فهنالك [illegible] العساكر صفوفاً صفوفاً من الجانبين ودقت الطبول وعزفت آلات الموسيقى دفعة واحدة باصوات رجعت صداها الكواكب في الافلاك وماجت بالموكب تلك الجمعة فكانت كالعروس زاهية زاهرة . وقد عكست اليها الشمس اشعتها فتلألأت فلاء [illegible] الابصار [illegible]

كانت سراي العروس مزدانة بالانوار [illegible] اصوات الافراح والسرور والناس في عرصاتها وحياضها يتمتعون [illegible] العرس والموائد ممدودة لكل شارد ووارد [illegible] بانواع المآكل والحلوى وما زال الجمهور في سرور وطرب الى ما بعد نصف الليل فانصرفوا شاكرين داعين لجناب الخديوي بدوام العز وطول البقا [illegible] العيش والهنا

المراقصة

في ٢٣ ابريل [illegible]

بمنزل دولتلو نوبار باشا

ازدان منزل دولتلو نوبار باشا في الليلة الماضية وكان بهجة الناظر ومسرة الخاطر . اعد فيه الطعام حفلة الاولى واتى الاتمام على احسن نظام . واتى المدعوون افواجاً لا ينقصون عن اربعمائة عداً منهم دولتلو الامير منصور باشا وحضرة النظار الكرام ورجال الهيئة العام وكبار الموظفين بالاحتلال وقادة الجيوش الانكليزية والسير اللورد دوفرين وجميع قناصل الدول والاعيان من وطنيين واوروبيين وكان في الطعام ايضاً حضرة السيدة [illegible] القرامكوردون من صنف ... وهو الجلباب ... الاسكوسه . وكان دولتلو نوبار باشا ... حضرة ... في مدخل القاعة الكبرى باللباس الرسمي .

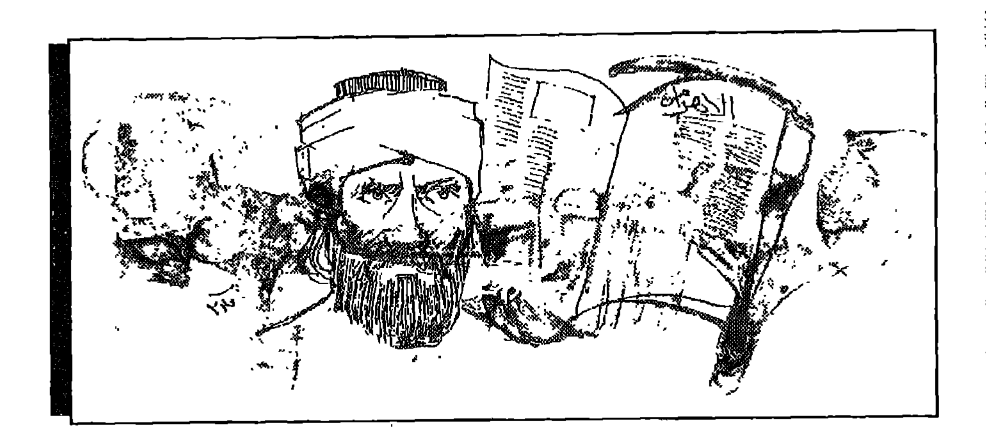
ولما انتظم الطعام وتكمل النظام عزفت الموسيقى الانغام تدعو الى المغامرة في ساحة ذلك المرح ... هنا رأينا جواري الغرام ... وبحركة تأخذ العجب . وحسان العيون ... الغزال ... ورد الخدود . ونبال اللحاظ ترمي من ... فلا تخطر ... في القلوب

واراني لا اخطئ اذا قلت ان اللواتي ... افراحهن في هذه الليلة من اللواتي ... في ليلة عابدين المشهورة وقد تخلل الرقص الاعتيادي رقص الاسكوسه على الموسيقى الانكليزية . وهكذا استمر الرقص والرباب والالعاب وعاشوها الى الساعة الاولى بعد منتصف الليل

في تلك الساعة انتهى ذلك الجمع الى مائدة الطعام التي كانت تكفي لاضعاف عدد المدعوين مع ترتيب غريب وخدمة تامة فكان كل منا يرى ان جميع الخدام لخدمته بالنسبة الى النظام

الفصل العاشر

شئون عربية



- الأهرام من أول من تحدث عن «الأمة العربية»!
- إنذار مبكر عن الأطماع الأوروبية
- مندوبون من الاهرام فى ١٢ مدينة عربية عند صدوره الأول
- المنشور الأول لحركة القومية العربية

[١٠]

الأهرام ولد عربيا كما ولد مصريا، هذه الحقيقة تشى بها مجموعة من المؤشرات للأهرام خلال سنيه الأولى.. ما تبقى من سبعينات القرن التاسع عشر ومطلع ثمانيناته .

من بين هذه المؤشرات أن عددا واحدا من الأهرام لم يخلو، الا فى الاستثناء النادر، من باب ثابت تحت عنوان «مراسلات الجهات» وهو باب كان يتعامل بشكل عام مع المشرق العربى وبشكل خاص مع الشام، وبشكل أخص مع لبنان من حيث جاء صاحبا الأهرام .

وكثيرا ما كانت المساحة التى يحتلها هذا الباب تفوق المساحة التى كان يحتلها باب «الحوادث المحلية » الذى كان يتعامل مع الشئون المصرية!

من بين هذه المؤشرات ثانيا تعدد وكلاء الأهرام فى الشام على نحو لم يتوفر حتى بالنسبة لمصر، فبينما لم تزد البلاد التى أرسل اليها الأهرام وكلاءه فى مصر عن ستة، فقد وصلت فى الشام والعراق إلى اثنى عشر بلدا: يافا، عكا، حيفا، صور، صيدا، بيروت، زحلة، بعلبك،دمشق الشام، طرسوس، حلب وبغداد .

وقد استتبع انبثاث وكلاء الأهرام فى الشام والعراق على هذا النحو أن استمر هؤلاء فى امداده بالأخبار حتى فى أدق التفاصيل، وكانت القاعدة أن يستقى الأهرام معلوماته من هؤلاء وعندما كان يحدث أن تصله أخبار عن غير طريقهم، فقد كان يحرص على الاشارة إلى ذلك بالنص على أن مصدرها«من غير مكاتبنا »!

المؤشر الثالث تبدى فى الحرص الفائق من جانب أصحاب الأهرام على وصوله إلى موانى الشام حتى أنه كان يتم بين الحين والأخر تغيير ميعاد اصداره حتى يصل إلى الموانى الشامية فى وقت معقول .

فالأهرام فى ايامه الأولى صدر اسبوعيا، وقد اختار يوم السبت للصدور، بيد أنه بعد مضى بعض الوقت عانى من عملية الوصول إلى الموانى الشامية نتيجة لأن«الوابور الفرنساوى» كان لا يوصلها فى وقت معقول، فلجأ بين الحين والأخر إلى الصدور يوم الجمعة حتى يتمكن من اللحاق «بالوابور النمساوى»، الذى ناسبت مواعيده الأهرام أكثر مما ناسبه الخط الملاحى الفرنسى .

مؤشر أخير أن أول رحلة قام بها مدير تحرير الأهرام، بشارة تقلا، فى ربيع عام ١٨٨٠ كانت إلى الشام، التى كتب عنها مجموعة من التقارير بعضها من جبل لبنان والبعض الأخر من«دمشق الفيحاء» وكانت بمثابة أول «رحلة صحفية» يقوم بها مندوب عن الأهرام!

★★★

ليس من شك أن الا هتمام بالشئون العربية التى تضمنتها «مراسلات الجهات» والتى كانت بمثابة نهر عريض على صفحات الجريدة قد صنعته روافد عديدة..

جاء الرافد الأول عن طبيعة مؤسسى الأهرام، سليم وبشارة تقلا، فلم يكن منتظرا أن ينقطع الحبل السرى بين الرجلين وبين الجبل.. جبل لبنان، من حيث أتيا، بسهولة.وقد أدى إلى بقاء هذا الحبل طبيعة المجتمع الشامى الذى استمر الرجلان يعايشانه ويعيشان فيه فى مصر، كذا السوق المتسع الذى استمرت الأهرام تجده فى الربوع الشامية.

ويبدو أثر هذا الرافد فى طبيعة اهتمامات صفحة«مراسلات الجهات» التى كانت تعنى أحيانا بأخبار شديدة المحلية، كافتتاح مدرسة للاطفال فى بيروت أو مرج عيون أو وفاة شخصية من الجبل كان أصحاب الأهرام يعتبرونه من الشخصيات الهامة بينما يكاد يكون مجهولا بالنسبة للقارئ المصرى.

الرافد الثانى بدا فى حالة من التململ الواسع التى أخذت تستشرى بين أبناء الشام والعراق،وهى حالة كانت قد بدأت منذ حوادث الستين فى الجبل التى عرفت فى بعض المظان بمذابح الستين (١٨٦٠) ووصلت إلى ذروتها خلال النصف الثانى من السبعينات الذى واكب السنوات الأولى من عمر الأهرام، وهى حالة عبرت عنها الصحيفة الوليدة فى مساحات معتبرة من الشئون العربية.

ثالث هذه الروافد بدا من تعاظم التدخلات الأوربية فى الشئون العربية خلال تلك السنوات، وهو التعاظم الذى نشأ عن تزامن صدور الأهرام مع أكبر حركة امبريالية عرفتها افريقيا والممتلكات العربية للدولة العثمانية، والتى حرص الأهرام على تتبعها فى شتى الأنحاء العربية، من الشام والعراق شرقا إلى تونس و«مراكش» (المغرب) غربا.

الرافد الرابع صنعه ميلاد الحركة العربية التى شهدها هذا العقد ولم يكن أصحاب الأهرام بعيدين عن عملية الميلاد بحكم أنهم كانوا من روادها، فتتلمذآل تقلا على أيدى البستانى واليازجى،الرواد الأوائل للفكرة العربية لم يكن يمكن أن يذهب سدا، ومن ثم لم يكن غريبا ما كانت تنشره الأهرام خلال تلك السنوات حتى أننا نندهش من استخدام الجريدة لتوصيف «الأمة العربية» فى وقت كان يصعب على غيرها الاشارة إليه.

ودعونا نحاول متابعة كل هذه الروافد لنصل إلى النهر الكبير الذى صنعته الأهرام وقتذاك.. نهر «الشئون العربية»

★★★

استمرار الحبل السرى بدا من الاهتمام الاهرامى بالشئون المحلية الصغيرة بلبنان أولا ثم ببقية الشام والعراق بعد ذلك..

فأن يتضمن أحد أعداد الأهرام وصفا تفصيليا لحياة «خليل افندى أرقش» بمناسبة انتقاله إلى رحمة الله، وتصفه بأنه«أحد معتبرى بيروت» وأن يتضمن عدد آخر حديثا

طويلا عن جنازة «يوسف افندى فريح» الذى تصفه«بالمشهور» والذى توفى عن ٧٢ عاما.. كل ذلك كان اغراقا فى تفاصيل لا تعنى القارئ المصرى الذى كان يقينا لا يرى الأول معتبرا ولا يرى الثانى مشهورا!.

الاهتمام بموسم الحرير فى لبنان استمر محورا من محاور اهتمامات صفحة الشئون العربية فى الأهرام بحكم استمرار هذا المنتج فى لعب الدور الأساسى فى الاقتصاد اللبنانى حتى ذلك الوقت، حتى انه لم يكن غريبا أن نجد خبرا تحت عنوان«أحوال الشرانق»! ولا بأس أن نذكر أن سببا من أهم الأسباب التى أدت إلى تأليب أبناء الشام على الحكم المصرى فى أواخر الثلاثينات كان ما عمد إليه هذا الحكم من احتكار المنتج المذكور، وهو ما لم يقبله الشوام رغم اعترافهم بالمزايا التى اكتسبوها من وجود المصريين.

الصراع الأسرى قدم نموذجا أخر من نماذج اهتمام «مراسلات الجهات» لأوضاع الشام، وقد أفرد الأهرام بعض أعمدته لمتابعة الصراع التقليدى بين عائلتى«الحسينية» و«الخالدية» حول الوظائف فى القدس.

ووصل الأمر بالأهرام فى الاهتمام بالمحليات الشامية تقريظه لكل انجاز يتم فى أى بلد مهما بدا صغيرا ، حتى أنه أخذ فى أحد أعداده فى أطراء مجلس بلدية بيت لحم ليس لشئ سوى أنه اهتم بتوسيع الطرق!

ومع ما يمثله الاهتمام بهذه التفاصيل الصغيرة من اغراق فى الأمور المحلية غير أنه يبدو أنه كان له ما يبرره، الأمر الذى بدا فى المراسلات العديدة التى كان يتلقاها الأهرام من قرائه فى تلك البلاد بكل ما يدل عليه ذلك من اتساع قاعدة هؤلاء فى تلك الانحاء التى أولاها عنايته، وهو اتساع كانت تحكمه مقاييس العصر طبعا.

تدليلا على هذه الحقيقة نسوق هنا الخبر الذى جاء فى أهرام يوم ٢ اكتوبر عام ١٨٧٩ :«يافا ـ ورد الينا من حضرة مكاتبنا فيها ما يشير إلى تأخر البعض عن نقد ما عليهم من قيمة الاشتراك فى الأهرام فعجبنا إذ ليس من يجهل ما وراء التأخر عن الدفع من التعطيل.. والمأمول من حضرة مشتركى القدس الكرام أن يتفضلوا بدفع ما عليهم»!

★★★

حالة التململ التى سادت الشام والعراق خلال النصف الثانى من سبعينات القرن التاسع عشر كانت المحور الثانى من محاور اهتمام «مراسلات الجهات» .

الافتقار للأمن مثل العنصر الأول من عناصر هذا المحور . ولم يكد يخلو تقرير واحد من التقارير التى كان يبعث بها مكاتبو الأهرام من الحديث عن « الفتن والمصادمات » ، مرة من بيروت وأخرى من زحلة وثالثة من حلب ورابعة من حوران ، وقد اسهبت الأهرام فى تتبع أحداث العنف التى جرت فى تلك الأخيرة خلال شهر نوفمبر عام

١٨٧٩ .

ولاشك أن أصحاب الأهرام بحكم ما كانوا يمثلون كشريحة من شرائح المسيحيين الشوام كانت لديهم حساسية خاصة بالنسبة للأخبار التى يتعرض فيها هؤلاء لأعمال عنف سواء من جانب بعض رجال السلطة العثمانية أو من جانب بعض الفئات الأخرى.

فساد الادارة العثمانية احتل مكانا دائما فى مراسلات مندوبى الأهرام فى الشام والعراق ، ولم يكن المسئولون عن الجريدة يفوتون فرصة دون تكرار المطالبة بالقضاء على الفساد .

فى العدد ٨٣ الصادر يوم ٢ مارس عام ١٨٧٨ ينتهز الأهرام فرصة وصول جودت باشا « والى سوريا الأفخم » الى بيروت فيرحب به ويطالبه « أن يجرد حسام الهمم ويفرى به أصول الفساد فيشعر الأهلون بلذة الحرية » !

وفى العدد الصادر يوم ١٩ يونية عام ١٨٧٩ يسوق الأهرام خبر تنصيب والى جديد على الموصل وأن أهالى هذه الولاية قد فرحوا كثيرا على امل انه سوف يقوم «باستئصال داء الرشوة ».

ولعل ذلك مما دعا الاهرام إلي الاحتفاء بما جاء فى الدستور العثمانى المعروف بدستور مدحت باشا عن «حقوق التبعة العثمانية» باعتبار أهل الشام من أولئك «التبعة»!

بعد ذلك تفرد «مراسلات الجهات» قسما من مساحتها تعدد فيها آثار السياسات العثمانية فتقول أن « طرق لبنان المعاشية محتفة بالمخاطر والنصب » وان هناك «ضنكا شديدا وتضييقا على اللبنانيين الجأ كثيرا منهم الى الساحل » وتضيف بعد كل ذلك ان الأخبار الواردة من دير القمر « تفيد أن الحالة سيئة جدا والفقر المدقع قد عم الكثيرين » .

والطريف فى هذه الرسالة المليئة بالانتقادات ان الأهرام قد حرص على أن يسندها الى «غير مكاتبنا »، ونظن أن المسئولين عن تحرير الأهرام مع رغبتهم الشديدة فى تسجيل مفاسد الحكم العثمانى فقد كانوا حريصين على ألا يعرضوا جريدتهم لعدم دخول الشام التى كانوا يرون فيها سوقا رئيسيا لهم ، ومن ثم جاءت رغبتهم فى التنصل من الهجوم على ادارة الدولة العلية.

القضاء العثمانى كان بدوره هدفا من أهداف التعبير عن عدم الرضاء من جانب مكاتبى الأهرام فى سوريا ولبنان ، فقد تضمن عدد الأهرام الصادر فى ١٣ أغسطس عام ١٨٧٨ انتقادات حادة لمجلس فصل الأحكام بعث بها مراسل الجريدة فى دمشق كان مما جاء فيها « .. هذه أعمال بعض زمرة تألف منها مجلس تمييز الحقوق فى مركز ولايتنا السورية وجزء من كل مما تقترفة هذه الفئة المفوض اليها أحكام فصل الأحكام لمئات الألوف من هذه الأمة العربية ... ».

ويبدو انحياز الأهرام العربى المبكر من الحديث عن « أمة عربية » فى ذلك الوقت الذى كانت العثمانية تظلل خلاله كل شىء ، أكثر من ذلك فان التعليق الذى يتحدث عن هذه الامة ينتقد فى نفس الوقت أعمال الموظفين الأتراك .

فى مجال القضاء أيضا ينشر الأهرام رسالة فى ١٨ يوليو بتوقيع « أحد محبى الوطن » يرحب فيه بتعيين « جمال الدين الأفغانى » مفتشا عاما لمحاكم ولاية سوريا ، ولكن يافرحة ماتمت اذ ينشر الأهرام بعد اسبوعين فحسب خبر لمراسله فى بيروت مفاده، انه قد تم عزل الرجل ويجىء النشر بشكل يعبر فيه المراسل عن أساه وأسف الأهرام!

★★★

يراقب الأهرام من مقره فى الاسكندرية ما كان يجرى خلال السنين الأولى من صدوره من تراكم الأطماع الأوربية فى العالم العربى وعلى رقعة واسعة هذه المرة تمتد من العراق شرقا الى المغرب غربا . وقد حفلت أعمدته بأخبار هذه المراقبة .

من بين تلك الأخبار ماكان يرد بين الحين والآخر حول رسو الأساطيل الأوربية فى الموانى الشامية خاصة بيروت. نموذج لذلك ماجاء فى العدد الصادر فى ٢٧ أبريل عام ١٨٧٧ عن وصول بارجة المانية بينما كان موجودا من قبل قطعتين من الأسطول «الانكليزى» وقطعة من الأسطول الفرنسى ودلالات كل ذلك .

من بينها رصد تلك الجولة التفقدية التى قامت بها البارجة «رينا» وهى تحمل «قنصل جنرال دولة فرنسا فى سوريا» متنقلة بين بيروت وحيفا وعكا « نظرا الى حدوث بعض القلاقل فيها » .

خبر آخر حرص الاهرام على تعريبي عن «الريفورم» الفرنسية جاء فيه ان الحكومة الفرنسية عازمة على شراء أراضى واسعة بالقرب من يافا «لتنشيء فيها معامل ومحلات تجارية بغية أن تضمن لتجارتها مخرجا فى فلسطين والبلاد العربية . ومن نيتها بعد ابتياع تلك الأراضى انشاء سكة حديد تصل بها مستعمرتها اليافاوية بمصر والسويس » !

ويروى الأهرام بالتفصيل خلال ربيع ١٨٨٣ أسرار المعركة الديبلوماسية التى دارت بين الدول العظمى ، خاصة بين فرنسا من جانب وانجلترا وروسيا من جانب آخر ، حول اختيار خلف لـ «رستم باشا» متصرف جبل لبنان ، والضغوط التى مارستها تلك الدول على حكومة الاستانة فى هذا الشأن .

وتنتقل الصحيفة الوليدة من تتبع الأطماع الأوروبية فى المشرق الى تتبعها فى المغرب ، فى مراكش (المغرب) وتونس على وجه الخصوص، فتلك الفترة شهدت تصارع الأطماع الفرنسية والانجليزية والأسبانية فى الأولى والفرنسية والايطالية فى الثانية التى كانت على شفا الوقوع فى قبضة احداهما، وكانت فرنسا.

وقد اختلفت علاقة الأهرام مع المغرب عن علاقته مع المشرق ، فتلك العلاقة الحميمة

التى ربطته بالأخيرة والتى استعرضنا اسبابها فى السطور السابقة لم تتوفر مقوماتها بالنسبة للمغرب الأمر الذى انعكس فى أكثر من جانب من جوانب تلك العلاقة .

بالنسبة للمشرق كان له مكانه الخاص فى الصحيفة .. «مراسلات الجهات» أما بالنسبة للمغرب فقد كانت تأتى أخباره ضمن سائر الاخبار فى باب «حوادث مختلفة»!

بالنسبة للمشرق تعددت مناحى الاهتمام الاهرامية أما بالنسبة للمغرب فقد اقتصر اهتمام الجريدة على الحوادث الكبرى مثل حدوث « مجاعة كبرى » فى مراكش على حد تعبير ما جاء فى اخبار شهر أغسطس عام ١٨٧٨ أو المطالب الفرنسية من باى تونس فيما جاء فى اخبار يناير ١٨٧٩ أو التوتر الحادث بين اسبانيا ومراكش وبحث الأخيرة عن المساندة الانجليزية فى مواجهة أطماع حكومة مدريد فيما تضمنته أخبار أغسطس وسبتمبر من نفس العام .

أخيرا وبالنسبة للمشرق فقد كان للأهرام وكلاؤها الذين استمروا يمدونه بشتى الأخبار والتعلقيات ، أما بالنسبة للمغرب كانت الجريدة تستقى أخبارها إما من وكالات الأنباء أو من الصحف الأوربية خاصة الفرنسية .

بيد ان ذلك لايمنع من تقرير حقيقة وهى وحدة موقف الاهرام ، فى المغرب ضد تعاظم الأطماع الأوربية الأسبانية فى مراكش ، وفى المشرق للفكرة العربية وهو ما أسفر عنه « الاهرام » بشكل واضح خلال عام ١٨٨٠ ، ولذلك قصة!

★★★

المتتبعون لتاريخ الحركة العربية يرون فى الحرب الروسية ـ التركية ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ نقطة تحول فى تاريخ هذه الحركة ، ذلك ان علامات الانهيار التى بدت على الدولة العثمانية خلال تلك الحرب قد دفعت القوميين العرب الى البحث فى مصير أمتهم ، وكان رأى فصيل كبير منهم ألا نجاة إلا بالتخلص من الحكم العثمانى .

وقد سجل صيف عام ١٨٨٠ حدثا هاما تكرر فى يونية ويولية وسبتمبر .. حدث اغراق عديد من المدن السورية: دمشق وبيروت وصيدا وطرابلس ، بمنشورات عديدة تناشد أهل البلاد التحرك باسم النخوة العربية والحمية السورية وتندد بفساد الترك وجهلهم وتنبه الى أن هدفهم «امتهان حرمة كتبكم وسن نظامات تقضى بملاشاة لغتكم الشريفة».

ويضع المنشور الثالث من تلك المنشورات برنامجا يطالب فى جانب منه بـ «استقلال نشترك به مع اخواننا اللبنانيين»، ويطالب فى جانب أخر بـ «أن تكون اللغة العربية رسمية فى البلاد» .. ويطالب فى جانب أخير بأن « تنحصر عساكرنا فى خدمة الوطن وتتخلص من عبودية الرؤساء الأتراك».

ولم يتأخر الأهرام عن متابعة تلك القضية البالغة الأهمية والتى احتلت بين يونية وسبتمبر من عام ١٨٨٠ مساحة هامة فى «مراسلات الجهات» وفى أكثر من عدد .

فى العدد الصادر يوم ٢٤ يونية حيث اشارت الى ما أسمته «اعلانات على جدران الشوارع فى بيروت» وان مابها استهدف «تحريك افكار الأهالى عموما الى طلب الاستقلال والاندفاع الى الحرية اقتداء بالسرب والجبل الأسود والبلغار وتنبية الخواطر الى نبذ الذل والخمول اللذين لا يرجى بهما اصلاح وتقدم وان مايراق من الدم فى هذا الشأن هو قيمة الحرية والاستقلال».

العدد الصادر يوم ٢٢ يوليو يسوق الأهرام خبرا من دمشق يقول : « علقت فى هذه الاثناء على بعض جدران المدينة اوراق تتضمن تهييج الخواطر وطلب الاستقلال واحياء دولة عربية مع الطعن فى اجراءات الحكومة المحلية » .

أخيرا العدد الصادر فى ٢ سبتمبر الذى حاول فيه مراسل الأهرام فى بيروت ان يحدد هوية المسئول عن نشر هذه الاعلانات .

وبينما يسند بعض المؤرخين تلك المنشورات الى جمعية المقاصد الخيرية يسندها آخرون الى «جمعية حفظ حقوق الملة العربية»، وبغض النظر عن صاحب «الاعلانات» فانها قد لقيت اهتماما كبيرا سواء من قناصل الدول الكبرى ، فرنسا وانجلترا ، فى بيروت ودمشق ، كما أنها لقيت عناية من جانب المتابعين لنشأة وتطور حركة القومية العربية حتى انهم يؤرخون لها باعتبارها علامة الميلاد لهذه الحركة .

ونرى ان اهتمام الأهرام بتلك المنشورات على هذا النحو انما يشى بأنه كان معنيا منذ سنواته الأولى بتلك الحركة ، وهى عناية كانت تشكل جانبا من عنايته بالشئون العربية على وجه العموم والشئون الشامية على وجه الخصوص .

● مراجع الفصل العاشر:

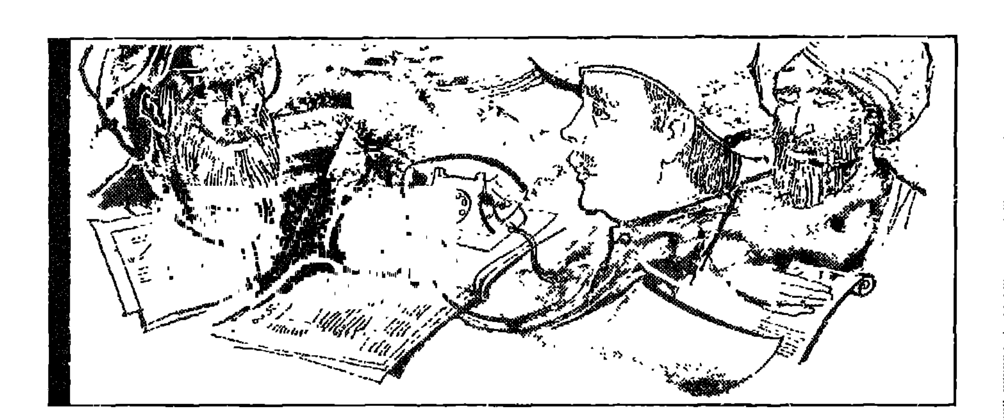
اعداد الأهرام	التاريخ
٤٧	١٨٧٧/٦/٢٢
٧٦	١٨٧٨/١/٢
٨٣	١٨٧٨/٣/٢
٩٠	١٨٧٨/٤/١٩
١٣٠	١٨٧٩/١/١٧
١٤٣	١٨٧٩/٤/١٨
١٤٦	١٨٧٩/٥/٢٢
١٥٠	١٨٧٩/٦/١٩
١٥٤	١٨٧٩/٧/١٨
١٥٥	١٨٧٩/٧/٢٤
١٥٦	١٨٧٩/٧/٣١
١٥٩	١٨٧٩/٨/٢١
١٦٢	١٨٧٩/٩/١١
١٦٤	١٨٧٩/٩/٢٥
١٧١	١٨٧٩/١١/١٣
٢٠٣	١٨٨٠/٦/٢٤
٢٠٧	١٨٨٠/٧/٢٢
٢١٣	١٨٨٠/٩/٢

- جورج انطونيوس: يقظة العرب، ط٢ بيروت ١٩٦٩

- لرتسكى. تاريخ الاقطار العربية الحديث، موسكو ١٩٧١

الفصل الحادى عشر

[illegible]



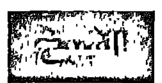
■ الكهرباء عند الجبرتى

ارتجاج البدن وارتعاد الجسم وطقطقة عظام الأكتاف!

■ استخدام التليفون فى حارات شيكاغو فى «الممالك المتحدة بأمريكا»!

■ أول مشروع «للتنوير الكهربائى» فى طنطا وكفر الزيات

■ المصرى الذى أخترع آلة جديدة لحلج القطن



عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المصري الشهير الذي عاصر قدوم الحملة الفرنسية (١٧٩٨) وسجل احداثها عندما كتب عن بعض مظاهر التقدم العلمي التى شاهدها لدى علماء «الفرنسيس» قال: «ولهم فيها أمور واحوال لا تسعها عقول أمثالنا»!

وكانت المناسبة ماعاينه فى معمل الكيمياء الذى انشأه الفرنسيون من عملية توليد الكهرباء التى اذا لامسها شخص «ارتج بدنه، وارتعد جسمه وطقطقت عظام اكتافه وسواعده فى الحال برجة سريعة ومن لمس هذا اللامس او شيئا من ثيابه أو شيئا متصلا به حصل له ذلك ولو كانوا ألفا أو أكثر»!

بعد ذلك بنحو أربعين عاما وعندما كتب شيخ مصرى آخر، هو الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى عن مشاهداته فى فرنسا فى كتابه المشهور «تخليص الابريز فى تلخيص باريز» (١٨٣٤)، وعرج فى هذه المشاهدات الى ما رآه من «تقدم أهل باريس فى العلوم والفنون والصنائع»، فقد لفت نظره فيها المتاحف والتى اسماها «خزائن المستغربات» (!)، كما لفت نظره بنفس القدر ما أسماه «أكدمة - يقصد اكاديمية - مستظرفات الفنون». هذا فضلا عن «أكدمة العلوم السلطانية» وغيرها من المؤسسات العلمية الحديثة التى لم تكن مصر قد عرفتها بعد.

وإذا كانت قد مرت أربعون سنة بين ما ارتآه الجبرتى ضيقا فى العقول عن أن تسع درجة التقدم العلمي الأوروبى وبين ما وصفه رفاعة «بالمستغربات والمستظرفات»، فقد كان مطلوبا ان تمر أربعون سنة أخري، أو ما يزيد قليلا، ليتقبل العقل المصرى والعربى ثمار هذا التقدم ويسعى إلى تقليدها، وهو ما عبرت عنه الصحف المصرية الصادرة خلال النصف الثانى من سبعينات نفس القرن.. القرن التاسع عشر، فى طليعتها الأهرام (١٨٧٦).

ويمكن أن يعزى هذا الاهتمام المبكر من جانب القائمين على الأهرام بأشكال التقدم العلمى فى اوروبا أو ما كانوا يسمونه عادة بالمستحدثات والمبتكرات لأسباب عدة..

أولها: العناية البالغة من جانب هؤلاء بكل ما كان يجرى فى اوروبا حتى ان كثيرين نظروا للدور الثقافى للشوام فى مصر باعتباره جسرا أساسيا من جسور التواصل مع الحضارة الغربية، ولا شك انه قد اعانهم على ذلك اتقان اللغات بشكل سمح لهم بشد دعائم هذا الجسر.

لا يعنى ذلك بالطبع انه لم يكن بين المصريين وقت صدور الأهرام من لا يجيد تلك اللغات، خاصة الفرنسية لغة اصحاب الأهرام، فمدرسة الألسن كانت قد انشئت عام ١٨٣٥، بيد أن خريجيها انصرفوا اكثر الى الأعمال الحكومية منهم الى العمل بالصحافة الأهلية الوليدة وقتذاك.

ثانيها: التكريس المتعمد للجانب الأكبر من جهد الأهرام فى متابعة ما يجرى فى

العالم الخارجى توقيا للمحاذير التى يمكن ان يقع فيها لو انغمس فى قضايا الداخل بكل منعرجاتها، الأمر الذى كاد يورده موارد التهلكة عندما جربه مرة أو مرتين فى عصر اسماعيل خلال سنيه الأولى مما سيكون موضوع احد الفصول التالية.

وكان من الطبيعى أن يطول اهتمام الأهرام من بين ما طاله مما يجرى فى اوروبا او «بلاد برا».. ان يطول جانبا من اشكال التقدم العلمي، خاصة هذا الجانب الذى يمتع القاريء ويثير دهشته أو على الأقل استغرابه!

أخيرا: الطفرة التى حدثت خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر الذى يقابل الربع الأول من قرون حياة الأهرام فى التكنولوجيا، وكان على الصحيفة الوليدة أن تعيش فى خضم تلك الطفرة..

فيتفق المؤرخون على أنه اذا كان القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر عصر الاكتشافات العلمية الكبيرة فان النصف الثانى من هذا القرن الاخير واوائل القرن العشرين كانا بمثابة عصر استخدام تلك العلوم فى شتى المناحى الحياتية أو ما اسمى بثورة التكنولوجيا.

فتلك الفترة هى التى عرفت ما أسماه البعض «غزو المسافات» The conquest of distance، ومن خلال ادوات مختلفة.. استخدام قوة البخار فى المواصلات البرية والبحرية، التلغراف، اللاسلكى، التليفون.

قوة البخار التى بدأ استخدامها فى القطارات لم يلبث خلال ذلك العصر أن انتقل استخدامها للسفن وأصبح عبور المحيط الأطلنطى لا يستغرق ما يزيد على اثنى عشر يوما بدلا من شهور، ولم يأت آخر هذا القرن الا وكان العثور على سفن شراعية تجوب المحيطات من الأمور النادرة.

التلغراف كان حقيقة قائمة وقت صدور الاهرام والذى كان قد بدأ استخدامه منذ عام ١٨٣٥ بعد أن وضع مورس شفرته المعروفة، وكان قد تم خلال الاربعين عاما التالية مد الخطوط البرية والبحرية العديدة.

يلى التلغراف التليفون والذى اخترعه جراهام بل فى نفس عام صدور الاهرام (١٨٧٦)، حتى انه يمكن التأريخ للجريدة العتيدة ببداية عصر التليفون، أو المسرة، وهى تسمية لم تكن قد عرفت بعد وقتئذ.

ولم يمض سوى أكثر قليلا من عشرين عاما حتى كان الكونت ماركونى الايطالى قد نجح فى ان يبعث برسائل لاسلكية لمسافات تزيد على مائة ميل (١٨٩٩)، تزايدت بعد ذلك بعامين لتصل الى ألفى ميل.

وكانت تلك المنجزات بعيدة عن استخدام القوى المحركة التقليدية التى طالما استخدمها الانسان في العصور السابقة، الماء والرياح والقوة العضلية للحيوان

والانسان والتى أخذ يحل محلها قوى غير تقليدية تمثلت فى البخار والكهرباء والنفط فيما جرى فى نفس الفترة.

فعلى الرغم من أن اليونانيين القدماء قد عرفوا الكهرباء فان توليد التيار الكهربائى لم يعرف الا عام ١٧٩٩، أى العام قبل الأخير من القرن الثامن عشر، غير أن استخدام هذا التيار فى الاتصالات أو إدارة الآلات أو الاضاءة لم يحدث على نطاق واسع الا خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر.. عصر ميلاد الأهرام.

أما استخدام النفط فى آلات الاحتراق الداخلى فقد عرف خلال العقد والنصف التالى من صدور الاهرام.. الخفيف منه الذى بدأ استخدامه من خلال اختراع ديملر (١٨٨٥) أما الثقيل فقد بدئ فى استخدامه بعد سبع سنوات من خلال اختراع ديزل (١٨٩٢)، والرجلان المانيان.

ويتفق المؤرخون على أن جملة تلك الانجازات التكنولوجية هى التى صنعت ذلك التغيير الجوهرى في الصراعات الدولية، من حروب أوروبية كان آخرها الحرب البروسية ـ الفرنسية (١٨٧٠ ـ ١٨٧١) الى أول حرب عالمية أو كونية The Global War بتسمية العصر (١٩١٤)، وهو تحول لم يكن ليحدث دون النجاح الذى سبقه فى غزو المسافات.

ولم يكن بالامكان ان يبقى الأهرام بعيدا عن تلك «المخترعات ومخترعوها»، وهو العنوان الذى كان يفضل استخدامه فى ملاحقة تلك المنجزات..

★★★

تابعت الجريدة الوليدة تلك المبتكرات بالاعلان احيانا وبالخبر احيانا اخرى وبالتعليق احيانا ثالثة وبالمقال احيانا اخيرة.

فى (الاعلانات) وتحت عنوان «اختراع لطيف ظريف» يبشر الأهرام فى ٩ ديسمبر عام ١٨٧٦ قراءه بأنه «لا لزوم بعد ذلك لاستعمال كبايات الزيت فى اوض (حجرات) النوم مع وجود انوار من الشمع العسلي تتقد فى الماء..»!

تحت عنوان «الاختراع» يعلن احد أبناء المنصورة فى الأهرام الصادر فى ١٣ ابريل عام ١٨٧٧ عن انه «بعد البحث والدرس المستديم قد اخترعت بعونه تعالى عوضا عن السكينة الخشب (النشابة) آلة جديدة تجعل القطن المحلوج يسرى من الشوبك الى أسفل الدولاب بدون أن يتجمع منه شيء ما فوق الشوبك ولا أن يتسخ أو يتغير لونه» ويدعو أصحاب المحالج الى الاستفادة من اختراعه، وتشجيعه على المضى قدما فى هذا الميدان.

(الخبر) احتل حيزا أكبر، وقد شغلت الأخبار عن «التليفون» وليد عام صدور الأهرام جانبا معتبرا من هذا الحيز..

ينبه الأهرام بعد صدوره بنحو ثلاثة أعوام الى هذه «الآلة البسيطة» التى يعتبرها البعض «غير جديرة بالاستعمال» وكيف انه قد راج استعمالها على نطاق واسع فى الولايات المتحدة الأمريكية أو بتسميته «الممالك المتحدة بأمريكا» وكيف ان هناك ٢٦٠٠٠ تليفون «من عمل بيل»، يقصد من اختراع جراهام بل، مستعملة يوميا فى تلك البلاد، ولعله من الطريف هنا أن نسوق كلمات الأهرام فى عدده الصادر فى ٢٤ يوليو عام ١٨٧٩ عن كيفية هذا الاستعمال، قال:

«.. وجميع هذه الآلات مأجورة مستعملة على طريقة التبادل، فكل مدينة كبرى لها مكتب عام يخرج منه خطوط التليفون المربوطة مع مساكن ومكاتب المشتركين.. واذا اريد التكلم مع أحد ما فى حارات البلد على اختلافها يأخذ المكتب الأكبر بقرع ناقوس للتكلم بواسطة التليفون ويربط مستخدم المكتب التواصل رأسا مع الشخص المطلوب للسماع وفى مدينة شيكاغو وحدها يجرى المكتب الأكبر ما ينيف عن ١٨ ألف استدعاء فى اليوم الواحد»!

بعد ذلك بأقل من عامين يبشر الأهرام قراءه انه قد تم تأسيس شركة فى «قطرنا المصري» باسم «شركة ليمتد تليفون بادارة مسيو ادوين دى ليون» وان الشركة المذكورة قد استحضرت الموارد اللازمة لإقامة ٢٥٠ محطة.

وتشير الجريدة فى سياق هذا الخبر الى أن «سمو الخديو» قد قام باجراء اتصال بين مكتب الشركة المركزى وسراى رأس التين، وانه قد سر من ذلك كثيرا وأوصى بتركيب الآلة الجديدة فى كل من سراى عابدين وسراى الاسماعيلية.

ولم ينس الأهرام فى هذه المناسبة أن يشير الى أن «جمعية العلماء فى باريز» - يقصد الأكاديمى فرانسيز - قد قررت ان تمنح «حضرة المسيو الكسندر غراهام بل ٥٠ ألف فرنك جزاء اختراعه التليفون»!

وإذا كانت أنظار الأهرام عند ولادته مشدودة الى أوروبا فى مجال الأحداث السياسية، فانها كانت مشدودة أكثر الى الولايات المتحدة الأمريكية فى ميدان «الاختراعات والمخترعون»، وقد تابعت فى هذا الصدد المخترع الأمريكى المشهور توماس اديسون الذى أسس معمل ابحاثه فى نيوجرسى عام ١٨٧٦ (نفس عام صدور الأهرام) والذى خرج منه أكثر من ثلاثة آلاف اختراع.

عن احد هذه الاختراعات يقول الأهرام فى ٢٦ فبراير عام ١٨٨٠ انه «قد وقف على ما يستطاع به نقل صورة بالبرق قد رسمت فى مكان مظلم حيثما كان».

ولا ترى الجريدة بأسا ان تخرج فى هذه المناسبة عن وقارها المعتاد لتروى قصة عن هذا الاختراع.. تقول «.. وحكى ان شابا من واشنطون أراد امتحان ذلكَ فأتى بيت التلغراف وأشار إلى خطيبته فى نيويورك ان توافيه ليتحادثا بالبرق ففعلت ذلك وكان كل منهما فى مكان مظلم، فتباصرا وتبادلا حديث الشوق والغرام»!!

وقد عبر الأهرام عن اعجابه بما كان يحرزه الأمريكيون من اختراع بقوله في أحد أعداده: «ولا ندري الى أي ستصل اختراعات واكتشافات الأمريكانيين»!؟

اهتمت الجريدة اهتماما ملحوظا بتطورات استخدام الكهرباء خاصة في الانارة، وقد لفت نظر مدير تحريرها لدى متابعته للاحتفالات التي كانت تقام في قصور الطبقة الارستقراطية انارتها بالكهرباء، الأمر الذي أشاد به في تغطيته لتلك الاحتفالات.

ويبدو قدر هذا الاهتمام ايضا من الخبر الذي تضمنه العدد الصادر في ٣٠ مايو عام ١٨٨١ والذي جاء فيه أن مهندسا فرنسيا في مصلحة السكك الحديدية «عازم على تجربة التنوير الكهربائي في طنطا أو كفر الزيات أولا ثم يشرع في اقامة هذا التنوير في عاصمتنا»، ويعلق الأهرام على هذا الخبر بقوله «آمالنا أن ينال هذا العمل نجاح التجربة حتى يقرر استعماله بسهولة في القطر المصري».

بيد أن ما جاء في (مقالات) الأهرام عن «المخترعين واختراعاتهم» أهم كثيرا - في رأينا - مما جاء في الاعلانات أو في الأخبار أو في التعليقات..

★★★

نختار ثلاثة من هذه المقالات، أولها تضمنه العدد الصادر في ٢٠ نوفمبر عام ١٨٧٩ وثانيها في عدد ٩ ديسمبر عام ١٨٨٠ وآخرها في ٨ مارس عام ١٨٨١.

سبب اختيارنا للمقال الأول والذي جاء تحت عنوان «قوة الشمس» انه تضمن نبوءة من كاتبه عن الدور الذي يمكن ان تلعبه الطاقة الشمسية في مستقبل البشرية، وهو دور مازال محل التجريب بعد أكثر من ١١٧ سنة، مما يشي بقدرة تنبئية كبيرة تمتع بها الأهرام في المجال العلمي منذ ذلك الوقت المبكر.

جاء في مطلع هذا المقال: «لا يخفي على المتضلعين بالعلوم الطبيعية ان القوى التي تدير الآلات البخارية على اختلاف أنواعها وأشكالها والتي تدير كل الآلات المائية والهوائية أصلها كلها من الشمس وقد ذخرت في الفحم والماء الى أن استعملها الانسان لتحريك الآلات»، وبعد استعراض لقدر الطاقة التي يمكن استخراجها من الشمس تساءل كاتب المقال: «ألا يمكن استخدامها لادارة الآلات بدلا من النار فتصبح صحاري افريقية وقفار آسيا مدن الآلات ومحط رحال الأعمال؟» ويجيب على ذلك بقوله بأن الباحثين قد شرعوا يبحثون في ذلك وابتكروا آلات بسيطة تديرها حرارة الشمس «وهي وإن تكن صغيرة لا يجنى منها ثمرة عملية ستشب كما يشب الطفل وتغير هيئة الأرض»!

المقال الثاني تحت عنوان «الاختراعات ومخترعوها» عالج فيه محرر الأهرام قضية ارتآها على قدر كبير من الأهمية، وله الحق، تلكم هي قضية تأخر الشرقيين في هذا المجال عن الغربيين، وهو في هذا لم يعزو ذلك التأخر لعيوب في الشرقيين الذين على حد تعبيره «لا تنكر عليهم الدنيا سمو مداركهم» وانما عزاه إلى فقر الوسائط «ولا

وصول لغاية دون واسطة» وفقا لكلماته أيضا.

ويشخص صاحب المقال مظاهر فقر الوسائط فيقول: «وكم من رجل شرقى له مزية الاختراع ولم يعلم، بل كم من فرد برهن بالعمل الحقير عن الأمر العظيم فاعتبر عمله من قبيل المجون فارتد بالطرف الكليل خاسئا ولنا على مثل ذلك شواهد عديدة».

واستطرد بعد ذلك في سوق بعض من تلك الشواهد، ونرى أن محرر الأهرام قد حاول من خلال ذلك تغيير المناخ السائد الذى لا يتقبل الجديد بسهولة، بل انه يسخر منه احيانا، وهو يعالج بذلك قضية ربما استمرت حتى يومنا هذا من اعقد القضايا التى تواجه الانسان المصري، بل والعربي، تلكم هى قضية ان نبقى مستهلكين لانجازات التكنولوجيا لا منتجين لها!

المقال الثالث هو أهم هذه المقالات، ليس فى رأينا فقط وانما فى رأى القائمين على تحرير الأهرام وقتذاك.

يدل على هذا أمران أولهما أن هؤلاء قد خصصوا له الصفحة الأولى فى حين أن ما يخص «الاختراعات والمخترعين» كان مكانه دائما الصفحة الثالثة أو الرابعة (كانت الصحيفة تصدر وقتذاك فى أربع صفحات)، وثانيهما انه قد احتل هذه الصفحة بأكملها دونما اعتراض!

المقال على هيئة رسالة بعث بها شفيق بك نجل منصور باشا يكن «أحد افراد شباننا الشرقيين».

ويلفت النظر فى هذا المقال بعد استعراض كاتبه لما أسماه الاستكشافات العلمية.. الكهرباء وقوة البخار وعلوم البحار وما نتج عن تطبيقاتها انه يربط بين تلك المنجزات وبين عديد من المتغيرات الاجتماعية، لعل أهمها فى رأيه محاربة الدول التى أحرزت تقدما فى تلك الميادين للرق بحكم أن تلك الاختراعات «مكثرة للعمل مقللة للعمال» على حد تعبيره، وهو بذلك قد ربط بين التقدم التكنولوجى لدولة مثل انجلترا وبين دورها فى تلك المحاربة التى طالت مصر بعد عام واحد من صدور الأهرام حين أرغمت اسماعيل على توقيع معاهدة منع تجارة الرق عام ١٨٧٧.

يلفت النظر ثانيا ان شفيق بك قدم تعريفا كاملا «للمنهج التجريبى» فى مستهل مقاله، وهذا المنهج وان كان قد تم وضع اسسه خلال القرن الثامن عشر إلا أن ثماره كانت قد أخذت تؤتى أكلها من خلال الاستكشافات التى استعرضها المقال، وهو فى ذلك أشار إلى دور الفلك والرياضيات فى بناء هذا المنهج.

يلفت النظر أخيرا حرص الرجل على ابراز الدور العربى فى تلك العلوم، فقد قال فيما يتصل بالرياضيات: «يمكن الجزم بأن العرب هم الذين وضعوه وضعا علميا كما وضعوا حساب المثلثات، وهم الذين سموا الجبر بهذا الاسم، وهو الاسم المستعمل الى الآن فى كل اللغات، ثم ان بعض التجار الطليانيين نقلوا كتبا منه فى القرن الثالث عشر من الميلاد ولكن مكث الاوروباويون ثلاثة قرون بدون اشتغال بهذا العلم».

ومن خلال هذه المنطلقات الاجتماعية والمنهجية والقومية فإن الاهرام كان محقا في أن يفرد كل ذلك الحيز لمقال شفيق بك وهو الأمر الذي يشي أيضا بتوجهات الصحيفة العتيدة حيال هذه القضية.

ولعل مجمل تلك التوجهات تشير الى المرحلة الجديدة من مراحل التعامل مع التكنولوجيا، فقد كشف الأهرام عن أن المصريين كانوا قد عبروا وقتذاك مرحلة العجز فيما عبر عنه الشيخ الجبرتي بقولته أن مثل تلك الأمور «لا تسعها عقول أمثالنا» وعبروا مرحلة الانبهار فيما ارتآه الشيخ رفاعة «المستغربات والمستظرفات» أي الوقوف عند محطة رؤية مثل هذه الأشياء بعين الاستغراب أو الاستظراف، ووصلوا إلى مرحلة الفهم والأهم من ذلك المشاركة أو الرغبة فيها.

ونعتقد أن هذه الرؤية الاهرامية بقدر ما كانت صائبة فقد كانت مستقبلية بمقاييس العصر، وربما حتى بمقاييس عصرنا هذا!

○ مراجع الفصل الحادي عشر

□ أعداد الأهرام

رقم العدد	التاريخ
١٩	١٨٧٦/١٢/٩
٣٧	١٨٧٧/٤/١٢
١٠٠	١٨٧٩/٧/٢٤
١٧٢	١٨٧٩/١١/٢٠
١٨٦	١٨٨٠/٢/٢٦
٢٢٧	١٨٨٠/١٢/٩
١٠٥٢	١٨٨١/٣/٨
١١٠٩	١٨٨١/٥/٢٠

- عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج ٣، بولاق ١٣٠١ هـ
- رفاعة رافع الطهطاوي، تخليص الابريز في تلخيص باريز، القاهرة ١٨٣٤

Swain, Edgar James A History of World Civilization Newyork 1947

الفصل الثانى عشر

برلمان



■ ■ نواب لسودان فى البرلمان المصرى

■ ■ أعضاء المجلس «المشايخ الحايزين» على الأوصاف المعتبرة!

■ ■ أول الشخصيات البرلمانية فى التاريخ المصرى الحديث

■ ■ جلسة فوق العادة بطنطا لمناسبة مولد السيد البدوى

■ ■ مجلس النواب: «القوة الحقيقية للحكومة وأساسها الوطيد ودعامتها المتينة»



عام صدور الأهرام ، كان عاما ساخنا بكل المقاييس، وقد امتد جانب من تلك السخونة الى تاريخ البرلمان المصرى، وهو المؤسسة التى كانت قد نشأت تحت اسم «مجلس شورى النواب» عام ١٨٦٦، وكانت عشر سنوات فترة كافية لتغيير طبيعة هذه المؤسسة..

ففى عام ١٨٦٦ وعند افتتاح هذا المجلس لأول مرة تواترت قصة مؤداها أن أعضاءه رفضوا الجلوس فى المقاعد الواقعة الى اليسار لأنها تعنى أنهم معارضون، وهم يستحيل أن يكونوا كذلك، وكما قال أحدهم «كلنا عبيد افندينا فكيف نكون مقاومين لحكومته» (!)

اختلف الأمر تماما بعد عشر سنوات، فقد اجتمعوا خارج القلعة، مقر المجلس، بل وخارج القاهرة، فى طنطا، حيث أعلنوا معارضتهم لكثير من سياسات حكومة افندينا، وقد انعقد هذا الاجتماع فى ٧ أغسطس عام ١٨٧٦ أى بعد صدور العدد الأول من الأهرام بيومين فحسب، وكان للجريدة مع برلمان طنطا قصة، وان كنا نرى قبل روايتها تقديم تفسير لهذا التغير الكبير..

فمجمل ما حدث خلال ذلك العقد هو الذى أدى اليه..

بعض هذا التغير نتج عن النمو المطرد للرأى العام المصرى، وهو نمو صنعه اتساع نطاق التعليم، وتوالى صدور الصحف، وزيادة جسور الاتصال مع الغرب.

البعض الآخر أفرزته تطورات العلاقات مع أوروبا، وهى العلاقات التى تحولت الى تدخل صريح فى ذلك العام الساخن من خلال فرض الرقابة الثنائية وانشاء صندوق الدين فى نفس ذلك العام.. عام ١٨٧٦! وكان متوقعا أن يكون لتلك التطورات مردوداتها، وقد تجسد أهمها فى ميلاد الحركة الوطنية ، وكان لوجود الافغانى خلال السبعينات فى مصر أثره فى ميلاد تلك الحركة.

البعض الثالث نتج عن اعتبارات خاصة بأعضاء البرلمان المصرى الوليد، ونتوقف عند هذا الجانب من التغير لأهميته..

فمجلس شورى النواب عندما تشكل عام ١٨٦٦ اقتصرت عضويته على «المشايخ الحايزين على الأوصاف المعتبرة» فى الريف، وعلى «وجوه وأعيان المدائن» فى المدن، أكثر من ذلك فقد حرم «الفقراء المحتاجون» على حد تعبير قانون الانتخابات الأول، ليس فقط من الترشيح للمجلس بل من حق انتخاب أعضائه!

وقد حدث أن أضير هؤلاء ضيرا شديدا ومباشرا من جراء الأزمة المالية وما ترتب عليها من تفاقم التدخل الأجنبى، وهو تدخل توخى مصلحة الدائنين الأجانب على حساب الدائنين المصريين، وكان أعضاء مجلس شورى النواب يمثلونهم [illegible]

[illegible] هذا الضير من خلال التطورات التى حدثت بعد صدور «قانون [illegible]»

أغسطس عام ١٨٧١، والذى قضى بتحصيل ضريبة ست سنوات مقدما على الأراضى مقابل الاعفاء من نصف هذه الضريبة، وهو ما أخذت الحكومة تحت ضغط الدائنين الأجانب فى التراجع عنه فيما تقرر بمقتضى المرسوم الصادر فى مايو ١٨٧٦، الأمر الذى لم يرض الأعيان المصريين وكان على ممثليهم أن يعبروا عن عدم الرضاء هذا.

تعترف الحكومة المصرية أن حالة من السخط، خاصة فى الصعيد، قد سادت صفوف المزارعين وهو ما قرره الأهرام الصادر فى ٢ سبتمبر عام ١٨٧٦ بقوله أن «سعادة مفتش عموم قبلى وبعض حضرات المديرين عرضوا على الأعتاب السنية بأنه (حاصل القول من الأهالى) بتطلب ابقاء المقابلة» مما يشير الى هذا السخط.

فى مواجهة ذلك قبل الخديو إصدار الأمر العالى «لسعادة رئيس مجلس شورى النواب بجمع أعضاء مجلس الشورى فوق العادة بطنطا لمناسبة مولد السيد احمد البدوى لأجل معرفة الحقيقة فى هذا الشأن والمذاكرة فيه والعرض للأعتاب بما يتم»!

ويلفت النظر فى ذلك الأمر العالى انه قد أقر أول اجتماع طارىء يعقده مجلس شورى النواب فى عمره الذى ناهز السنوات العشر، وانه كان اول اجتماع يعقده المجلس خارج مقره الطبيعى، فى طنطا حيث الجو الشعبى الذى يوفره الاحتفال بمولد السيد البدوى (!) بدلا من القلعة حيث ظل الخديو المخيم، وانه كان أول اجتماع يخصص لبحث مسألة من المسائل المالية التى هى من صميم اختصاصات المجالس النيابية، وكانت بداية لها ما بعدها.

واجتمع المجلس فى الميعاد الذى تقرر له، ٧ أغسطس عام ١٨٧٦، ورغم ما حظى به ذلك الاجتماع من كتابات فى المراجع الا أننا نلتزم هنا بما جاء عنه فى «الأهرام» والذى قال بالحرف الواحد..

«صار اجتماع المجلس المشار اليه وعلم من المكالمة (المناقشة) التى صارت ما يفيد تطلب ابقاء المقابلة، وبالمداولة فى ذلك استصوب تعيين قومسيون (لجنة) من أعضاء المجلس للتوجه الى المالية لرؤية ما يلزم والعرض للمجلس عنه، وقد تعين القومسيون وتوجه للمالية بمصر ونظر ما اقتضاه الحال وصارت المذاكرة وتقرر بابقاء المقابلة على ما هى عليه».

إذن فقد فاز «المشايخ الحايزين على الأوصاف المعتبرة» من أعضاء المجلس فى هذه الجولة، ورغم ما يقال من أن الخديو اسماعيل كان متعاطفا مع هؤلاء على اعتبار أن تحركهم يدفع عنه بعض ضغوط الدائنين الأجانب. الا أن هذا الفوز كان بمثابة نقطة تحول فى تاريخ البرلمان المصرى، مما أدخل جلسته «فوق العادة» التى انعقدت فى طنطا تاريخ الحياة البرلمانية، ومما جعل تلك الجلسة نقطة انطلاق فى طبيعة هذه المؤسسة استكملت مقوماتها خلال السنوات الثلاث التالية التى كانت فى نفس الوقت السنوات الثلاث الأولى فى عمر الاهرام، والذى لم يكن بعيدا عن متابعتها.

واجه القائمون على تحرير الأهرام فى متابعة ما كان يجرى فى القلعة بجلسات مجلس شورى النواب مشكلة يمكن أن يستشعرها القارىء من خلال طبيعة تلك المتابعة..

تمثلت تلك المشكلة فى رغبة اهرامية جارفة فى تقديم أخبار ذلك الذى يجرى فى المجلس، وكان واضحا انه بالغ الأهمية ، وفى توخى الحذر حتى لا يؤدى هذا التقديم الى وقوع الأهرام تحت طائلة العقوبة لخروجه عن مقتضيات الرخصة التى حصل عليها بعدم التدخل فى شئون البوليتيقا، وكان عليهم أن يجدوا حلا.

فى تقديرنا ، ومن خلال استقراء «الأهرام» وليس قراءته، فان الحل الذى عثر عليه سليم تقلا سار على محورين..

المحور الأول بدا فى عملية جس نبض لجهات الرقابة الصحفية بمحافظة الاسكندرية والتى كانت تتولى هذه الرقابة، وقامت تلك العملية أولا بنقل أحداث المجلس عن «الوقائع المصرية» ولم تحدث ردود فعل، فتحولوا الى النقل عن بعض الصحف التى تصدر فى المحروسة، أى القاهرة، ولم تحدث ردود فعل أيضا، عندئذ انطلق سليم تقلا ينقل عن مصادره الخاصة وينسب ما ينقل للأهرام دونما خشية من ردود الفعل!

المحور الثانى بدا في الفرصة التى تلقفها الأهرام فى مطلع عام ١٨٧٧، والتى جاءت من خلال اصدار أول دستور، أو «قانون أساسى» بلغة العصر للدولة التى كانت مصر مازالت جزءا منها، ولو من الناحية القانونية.. الدولة العثمانية ، وهو الدستور المعروف باسم دستور مدحت باشا.

وكان «الأهرام» من الجرائد التى احتفت احتفاء بالغا بهذا الدستور خاصة لما يتصل بانعكاساته على الشام الذى لم تكن بعد قد انقطعت روابط أصحابه به.

بدا هذا الاحتفاء فى تخصيص خمسة من أعداده، من العدد ٣٤ الصادر فى ١٣ يناير عام ١٨٧٧ الى العدد ٣٨ الصادر فى ١٠ من الشهر التالى.. تخصيصها لايراد نص الدستور تحت عنوان «القانون الأساسى فى ممالك الدولة العثمانية».

بدا أيضا فى التعليقات على الدستور والتى جاءت مفعمة بأسباب التعاطف مع مدحت باشا واصلاحاته، وقد انتهز كاتب تلك التعليقات، والذى لا نشك انه كان سليم تقلا نفسه.. انتهز الفرصة لسوق بعض الايحاءات بأثر صدور الدستور العثمانى على مصر، وانه ليس أمام المصريين سوى المضى فى نفس الطريق.. الطريق الدستورى.

والحقيقة أن سليم لم يكن فى حاجة الى مثل هذه الايحاءات فان ظروف مصر كانت قد أنضجتها لقبول التغيير فى المؤسسة البرلمانية وهو التغيير الذى بدت بشائره مع اجتماع طنطا..

ولم يكن على الأهرام سوى أن يرصد أحيانا ويتابع أحيانا أخرى ويتخذ المواقف أحيانا ثالثة..

☆☆☆

في «محله المخصوص في القلعة العامرة» على حد تعبير الأهرام بدأ مجلس شورى النواب دورته العادية بعد أربعة شهور بالضبط من اجتماع طنطا، وهو الاجتماع الذى كان يحضره في العادة الخديو في احتفال خاص وصفه «الأهرام» بقوله: «وفي نحو السادسة شرفه حضرة الجناب الأفخم رسميا حيث كان الجميع فى انتظاره فأطلقت المدافع بقدومه الشريف ولاطف من حضر فيه بأنواع الملاطفات وكامل الالتفاتات وألقى عليهم مقالة - أي خطبة - عربية فتلقوها بغاية القبول» ونتوقف عند هذه (المقالة) لما لها من أهمية فى تاريخ البرلمان المصرى.

اهم ما جاء فى الخطبة الخديوية الاعتراف بأن أفكار الجميع كانت مخالفة لما جاء فى مرسوم ٧ مايو ١٨٧٦ «لما هو منصوص به من جهة ابطال المقابلة » وان الترتيبات قد اتخذت لتلبية ما هو مطلوب «بناء على افكاركم وتصميمكم بابقاء المقابلة على أى وجه أمكن».

وقد حقق برلمان طنطا من خلال هذه التطورات المبدأ الذى تأسست عليه الحياة البرلمانية فى دول العالم من قبل: مبدأ: « لا ضرائب بدون تمثيل No taxation without representation وهو المبدأ الذى استقر ابان الثورتين الأمريكية والفرنسية خلال سبعينات وثمانينات القرن الثامن عشر، أى قبل اجتماع طنطا بقرن!

بدا ذلك فى أول مناسبة احتاجت فيها الحكومة الخديوية لفرض ضريبة جديدة، وكانت بعد اقل من عام من برلمان طنطا..

المناسبة كانت الضريبة التى تقرر فرضها لتمويل القوات المصرية التى رؤى ارسالها للمحاربة الى جانب قوات الدولة العثمانية فى حربها مع روسيا مما دعا الخديو الى الدعوة الى جلسة أخرى «فوق العادة» وكانت ثانى جلسة من هذا النوع فى أقل من عام.

جاء فى دعوة الخديو لتلك الجلسة بأن مصر لن تستطيع ان تشارك فى الحرب «بدون الوقوف أولا على معرفة كمية المبلغ الذى يمكن للاقليم أن يخصصه لهذا الأمر» وهو ما فعله المجلس حين قرر فرض ضريبة لتمويل الحرب قدرها ١٠ فى المائة، ولا شك ان اسماعيل قد تذرع بقرار المجلس فى مواجهة حالة التذمر التى شاعت فى أعقاب فرضها.

من جانب آخر فان هذه الدورة التى انعقدت فى طنطا قد أفرزت لاول مرة شخصيات برلمانية لعبت دورا هاما فى تاريخ تلك المؤسسة، منها عبد السلام المويلحى، محمود العطار، عثمان الهرميل، بدينى الشريعى وغيرهم ممن اصبحوا عمدا، ليس للبرلمان المصرى فحسب انما للحركة الوطنية التى ارتفع مدها خلال السنوات التالية.

★★★

انعكست كل تلك التطورات على موقف الأهرام من البرلمان المصرى، فبعد أن انتقل من مرحلة النقل عن الصحف الأخرى الى مرحلة الرصد باسمه فانه قد انتقل الى مرحلة جديدة هى مرحلة المطالبة بالانتقال من عصر مجلس «شورى النواب» الى عصر «مجلس النواب» أو ما أسماه الأهرام «مجلس الأمة» فى مقال نعتقد انه كان من أقوى المقالات التى ظهرت خلال ذلك الوقت حول هذا الموضوع..

المقال نشره الأهرام فى صدر صفحته الأولى فى عدده الصادر فى ١٣ مارس عام ١٨٧٩، والواضح انه كان بقلم «سليم افندى تقلا» نفسه..

عنوان المقال «الوزارة المصرية ومجلس النواب ومستقبل البلاد»، وكان مما جاء فيه.. «اما مجلس النواب أو مجلس الأمة فهو القوة الحقيقية للحكومة وأساسها الوطيد ودعامتها المتينة لأنه يشخص (يمثل) الأمة وليست الحكومة الا لها. وكنا نود أن يأذن لنا المقام فنشرح كيفية تأليفه وتآلفه وشروط انتخاب أعضائه بموجب القوانين المسنونة فى أوروبا ثم نقابل هذه القوانين بالقوانين المرعية فى بلادنا التى لم نقف على مجملها الى الآن (!). ويسوءنا والله أن نرى هذا المجلس عديم الحقوق والنظام مع ما له من الأهمية بل يسوءنا أن نرى الحكومة متغاضية عن تأييد حقوقه هذا اذا لم توجه مطلق اللوم عليه لانه تهامل وأغضى عن طلب ما له وارتضى بأن يفقد أجّل لوازمه أعنى الحرية التى يلقى عليها معول أمره فهو المشخص للأمة والمدافع عنها ووكيلها والذائد عن حوضها».

ويشير هذا المقال الى أن الأهرام قد ذهب بعيدا وطالب بتحويل جذرى فى المؤسسة البرلمانية .. أولا من ناحية تغيير الاسم فقد تجاهل فى مقاله التسمية «بالشورى» التى كانت تضفى الطبيعة الاستشارية على المجلس هذا من جانب، وأن يكون ممثلا حقيقيا للأمة من جانب آخر حتى انه استخدم تسمية مجلس الأمة وهى تسمية لم تكن معهودة فى مصر وقتئذ، ولم تستخدم الا بعد نحو قرن، فى المجالس النيابية التى أقامتها الثورة بعد عام ١٩٥٢!

وقد دعم الأهرام حملته فى هذا الشأن بمقال آخر فى صدر صفحته الأولى في العدد الصادر يوم ٢٢ مايو من نفس العام تحت عنوان «الحكومة الشورية والقطر المصرى أو الحرية فى مصر» كان مما جاء فيه «.. ولذا كان الاهتمام بتأييد مجلس النواب من أجل المطالب وأكملها فانه وحده يكفل للراعى المحافظة على حقوق الحرية بناء على كونه نائبا عن الامة ويضمن للرعية المراقبة على عدم العبث بالحرية ثم يخلص من هذا الى القول فمجلس النواب والحالة هذه يعتبر قطعيا تدور عليه رحى الأعمال فان من مبادىء الشرائع العادلة المرعية الاجراء فى جميع الممالك المتمدنة أن يعتبر الحاكم للرعية لا الرعية للحاكم» ولم يمض وقت طويل حتى كانت قد تمت الاستجابة لجميع مطالب الأهرام فى مشروع الدستور الذى وضع فى ٢ يونية عام ١٨٧٩، وللأهرام معه قصة.

يعترف الأستاذ عبد الرحمن الرافعى المؤرخ المصرى الشهير فى الجزء الثانى من كتابه المعروف «عصر اسماعيل» بأنه بحث عن أصل هذا الدستور فى الوقائع المصرية فلم يجده ثم بحث عنه بعد ذلك فى محفوظات مجلس شورى النواب فلم يجده أيضا، وبعد بحث عثر عليه أخيرا فى مكان واحد هو جريدة الأهرام فى عددها الصادر فى ١٢ يونية عام ١٨٧٩، وهذه معلومة صحيحة وان كانت ناقصة..

فالعدد المذكور من الأهرام قد نشر الجزء الأول مما أسماه «لائحة مجلس النواب المصرى الأساسية» ثم استكمل نشر تلك اللائحة فى العدد الصادر فى ٢٦ من نفس الشهر.

وقد استلفت نظر الأستاذ الرافعى فى هذا الدستور «البون العظيم بينه وبين نظام مجلس شورى النواب القديم، والذى خول حق اقرار الميزانية وجعل الوزارة مسئولة أمامه».

استلفت نظره ايضا تخويل سكان السودان حق انتخاب ممثلين عنهم فى المجلس فيما تضمنته المادة (٣٤) من أن «أعضاء مجلس النواب لايزيدون عن ١٢٠ نائبا بمن فيهم نواب السودان حسب البيانات التى تتوضح بلائحة الانتخاب».

إلا أنه لم يستلفت نظره بنفس القدر ارساء مبدأ النيابة عن الأمة الذى تضمنته المادة السادسة، ولم يستلفت نظره أيضا تقرير مبدأ الحصانة البرلمانية التى تضمنتها المادة (١٥)، كما لم يستلفت نظره أخيرا هذا الأخذ الصارم بالفصل بين السلطتين التنفيذية والتشريعية .. فى المادة (٣٨) التى نصت على أنه «لا تجتمع وظيفة النظارة (الوزارة) والنيابة فى شخص واحد» وفى المادة (٢٠) التى نصت على أنه « لا يجوز قبول متوظفى الحكومة ملكيين(مدنيين) كانوا أو جهاديين (عسكريين) ضمن اعضاء مجلس النواب».

ما لم يتنبه اليه الاستاذ الرافعى بقية القانون الأساسى الذى نشر فى عدد آخر من أعداد الأهرام يهمنا منها ما جاء متصلا بنظام «انتخاب أعضاء مجلس النواب المصرى» وما دخل على هذا النظام من تغيير عما تقرر عام١٨٦٦.

ففى القانون الصادر لتأسيس مجلس شورى النواب فى ذلك العام رأت الحكومة أن تنوب عن المصريين فى انتخاب نوابهم فيما جاء فى المادة السابعة التى قالت: « حيث أن كل بلد عليه مشايخ معينون برغبة الأهالى فبالطبع هم المنتخبون من طرف أهالى ذلك البلد أو النائبون عنهم لانتخاب العضو المطلوب انتخابه فى القسم» (!)

أما القانون الجديد الذى انفرد الأهرام بنشره فقد أعطى حق الانتخاب لـ «أهالى القطر المصرى» من رعايا الدولة العثمانية على ان يكون من دافعى ضريبة لا تقل عن ٥٠٠ قرشا على الأقل، وكان مبلغا كبيرا بمقاييس العصر الاقتصادية.

بيد أن هذا الاشتراط المادى تم تجاوزه بالنسبة لرجال الدين، العلماء والقسوس

والحاخامات والمثقفين، المدرسين وأرباب الوظائف وضباط العسكرية المصرية والأفوكاتية (المحامين) والأجزجية (الصيادلة) والحكماء البياطرة!

و يلاحظ أن هذا الدستور الذى لم يوضع موضع التنفيذ بسبب تلاحق الأحداث ، ففى نفس يوم نشر الأهرام للقسم الثانى من الدستور، الخميس ٢٦ يونية ١٨٧٩ وصلت من استنبول البرقية التى تطلب من اسماعيل «التخلى عن حكم مصر واسناد منصب الخديوية لصاحب السمو الأمير توفيق باشا »، وكان على المصريين أن ينتظروا ما سوف يحدث بالنسبة للبرلمان بعد ذلك وان كان الجميع، بمن فيهم الأهرام، لم يضطروا الى الانتظار لوقت طويل!

● مراجع الفصل الثانى عشر:

رقم العدد	التاريخ
٥	١٨٧٦/٩/٢
٨	١٨٧٦/٩/٢٣
١٩	١٨٧٦/١٢/٩
٢٤	١٨٧٧/١/١٣
٢٥	١٨٧٧/١/١٩
٢٦	١٨٧٧/١/٢٧
٢٧	١٨٧٧/٢/٢
٢٨	١٨٧٧/٢/١٠
٤١	١٨٧٧/٥/١١
١٣٨	١٨٧٩/٣/١٣
١٤٦	١٨٧٩/٥/٢١
١٤٩	١٨٧٩/٦/١٢
١٥١	١٨٧٩/٦/٢٦

ـ د. رءوف عباس حامد، الملكيات الزراعية المصرية ودورها فى المجتمع المصرى ١٨٣٧ ـ ١٩١٤، القاهرة ١٩٨٣

ـ عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل (جزء ٢)، القاهرة ١٩٤٨

ـ د. يونان لبيب رزق، قصة البرلمان المصرى، القاهرة ١٩٩١

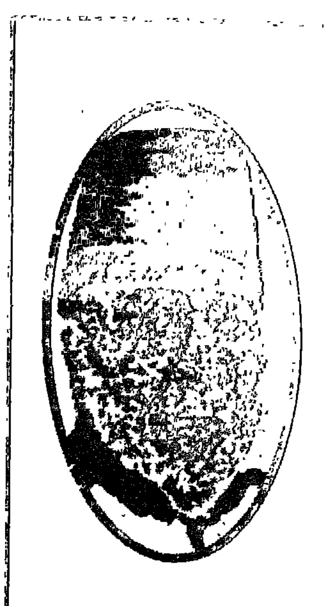
الحوادث الداخلية

ذكرت جريدة الأخبار المصرية نقلاً عن الوقائع ما نصه

في يوم الخميس الماضي [illegible] هذا الشهر [illegible] في العادة [illegible] [illegible] في البلدة العامرة في [illegible] الخصوص [illegible] في بعض [illegible] اللازمة [illegible] فاجتمع [illegible] [illegible] [illegible] الأشغال [illegible] [illegible] باشا ناظر [illegible] [illegible] باشا ناظر المالية [illegible] حسن باشا [illegible] [illegible] [illegible] باشا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الخطاب العالي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

والتى عليهم مقالة عربية تتعلق بالمقام فتلقوها بغاية القبول ويحتانها الطلعت الدافع ثانيا على العادة الحسنة الجارية في كل سنة وعند الاستعمال على ردها من الاعضاء تبادر بذكره على احسن منوال وأتم منوال وهذه صورة المقالة الفريدة بجواهر الفاظها المفيدة .

بعد ما ابدي لكم ممنونيتنا من اجتماعكم لبعض مسائل مهمة نقول اولاً انه كما هو معلوم لديكم ان الدكريتو الصادر ابتدا . في ٧ مايو سنة ٧٦ كان مؤسساً على اتفاق ما بين الحكومة وحضرة بانكيرات الا انه نظراً لاحوال معلومة استوجب الامر بعض تعديلات فيه لاجراء مقتضاه وبما انه من بعد صدور الدكريتو المبني عنه كانت افكار الجميع متمائلة لما هو مخصوص به من جهة ابطال المقابلة قد صار اجتماعكم بطنطا وحصلت المذاكرة في هذا الخصوص واعطى القرار منكم بابقاء المقابلة ولكونه في هذه المدة تعين من طرف الديانة الانكليزيين وكيل مفوض عنهم وهو جناب المعتمد موسيو (جوشن) ومن طرف الديانة الفرنساويين جناب موسيو (جوبير) فقد حصل الاتفاق معهم على ما يتعلق بتسوية الديون بالكيفية التي يتقدم لكم جميع تفصيلاتها وما يلزم من طرف نظارة المالية بحسب طلب المجلس وبني مسئلة على قراركم المبنى به وجهان احدهما ابقاء المقابلة والآخر بيان ما هو محقق لكم من ابلاغ الايراد بعد مدة المقابلة الى ثمانية ملايين ونصف تقريباً ولاجل امكان موازنة مالية الحكومة بعد المقابلة بالمبلغ المذكور وهو الثمانية ملايين ونصف تقريباً الزمت الضرورة جعل الايراد في مدة المقابلة ثابتاً سنوياً وبهذا ما امكن خصم الامتياز سنوياً كما كان جارياً بل انتهى الامر فيه على انه لا يخصم في المدة المذكورة نظير انتفاع اربابه بالمائة خمسة فائض في كل سنة وبانتهاء مدة المقابلة بالطبع يجري خصم ذلك الامتياز بتمامه وهذا هو بناء على افكاركم وتصميمكم بابقاء المقابلة على اى وجه امكن فالذي امكن هو الذي تقدم الا يفاح عنه بانضمام افكاركم واثناء النظر في عمليات الوجه الجبري التي تتقدم لطرفكم من نظارة الاشغال والله الموفق لكل خير .



محمود بك العطار



عبدالسلام بك المويلحي

العدد ١٤٦ — في ٦ ابريل سنة ١٨٧٨ قرر مجلس الاحكام تمييز الاهرام والرخصة لنشر الاعلانات الرسمية — السنة الثالثة

(مقومة الاشتراك)

في الاسكندرية عن سنة واحدة ثلاثة وعشرون فرنكا عن ستة اشهر خمسة عشر فرنكا واثناء في الخارج [illegible]

اجرة البوسطة ما عدا الاسكندرية

	عن سنة فرنك	عن ستة اشهر فرنك
في مصر وسائر الارياف الخديوية	٢٥	١٠
في الاستانة العلية	٢٥	١٦
في سوريا وسائر الممالك اوروبا	٣٠	١٦
في اميركا والجزائر وتونس وهند وكلكتة	٣٠	١٦

اجرة سطر الاعلانات في الصفحة الاولى فرنك وفي الاخيرة نصف فرنك

الاهرام

(مكاتبات الاهرام)

جميع المكاتبات التي ترسل الينا متعلقة بالاهرام يجب ان تكون خالصة الاجرة باسم سليم افندي تقلا محرر الاهرام ومحل ادارتها على شارع الموسكي امام بنك الرومانات

(وكلاء الاهرام في الخارج)

اسماء وكلاء الاهرام تذكر في اخر الجريدة فمن يرغب الحصول على الاهرام في الاماكن التي ليس فيها وكلاء بارسال حوالة الى مديرها او بارسال طوابع البوستة من اي نوع كان على قدر مدة الاشتراك
ثمن كل نسخة من الاهرام ذات اربع صفحات نصف فرنك

يوم الخميس في ١٢ حزيران (يونيو) سنة ١٨٧٦ — (صدورها في يوم الجمعة من كل اسبوع) — الموافق ٢٢ جمادى الاخرى سنة ١٢٩٣

الاسكندرية في ١٢ حزيران (يونيو) سنة ١٨٧٦

لائحة مجلس النواب المصري الاساسية

ذكرنا في عدد امس ان لجنة النواب المنتخبة لاعداد اللائحة الاساسية عرضتها على المجلس وهو رفعها الى مجلس النظار لاجرائها وعرضها على التصديق الخديوي ولم يبلغنا سكانها المصري الا قليل بصورة هذه اللائحة فنشرها لفرط الافادة وهي

البند الاول مجلس النواب يتشكل من النواب الذين ينتخبهم الاهالي على حسب نظام الانتخاب الذي وضع بلائحة مخصوصة

٢ لا يقبل نائبا من لم يكن من رعايا الحكومة المصرية ومن لم يكن له من العمر ثلاثون سنة كاملة ومن لم يكن حائزا لكمالة الحقوق المدنية والسياسية وكذلك من لم تتوفر فيه الصفات المقررة بلائحة الانتخاب

٣ مدة النيابة تكون ثلاث سنين فقط ويجوز تكرار انتخاب النواب عند تجديد الانتخاب

٤ انتخاب النواب يكون في كل ثلاث سنين مرة ويبتدأ فيه قبل شهرين بالاقل قبل اول شهر كيهك الذي هو الميعاد المحدد لاجتماع النواب فيه

٥ انعقاد مدة مجلس النواب يكون سنويا في اول برمهات ويحصل الانفضاض بامر عالي

٦ يجوز للحضرة الخديوية بحسب مقتضيات الاحوال بان يامر بفتح المجلس قبل ولو المعين له وان تمدد مدة اجتماعه او تمديدها

٧ في يوم افتتاح المجلس يكون بحضور الذات الخديوية او بحضور رئيس مجلس النظار بالنيابة عنها وبحضور جميع النظار والنواب ويتلى فيه مقالة خديوية يبين بها حالة البلاد المصرية الداخلية في السنة الماضية قبل الاجتماع والتدابير التي يرى لزوم اتخاذها في السنة الحالية

٨ كل نائب يعتبر وكيلا عن عموم الامة المصرية وليس فقط عن الجهة التي انتخبتها

٩ للنواب الحرية التامة في ابداء آرائهم وقراراتهم ولا يجوز ان يكون احد منهم مرتبطا في رأيه بتعليمات تصدر له او وعد او وعيد يرجع اليه

١٠ المسائل التي تقدم من النظار للنواب لاجل المذاكرة فيها بمجلس النواب واذا رأى فيها ملحوظات تجري المخابرة فيها مع مجلس النظار واذا يكون ذلك مشروحا ببيان الاوجه والاسباب

١١ اذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار واصر كل على رأيه بعد تكرار المخابرة وبيان الاسباب ولم تستعف النظارة فللحضرة الخديوية ان تامر بفض مجلس النواب وبتجديد انتخاب اعضائه على شرط ان لا تتجاوز مدة الانتخاب اربعة اشهر من يوم انفضاضه الى يوم اجتماعه واذا ابد مجلس النواب بعد تجديد انتخابه راي المجلس السابق وجب تنفيذه ويجوز للاهالي ان تنتخب من النواب السابقين او من غيرهم (راجع البند ٣)

١٢ في حالة عارض لعمل احد النواب لمدة ما ادى الى انتخاب بدله ومدة الذي يحضر انتخابه لا تعتبر الا لغاية حصول الانتخاب العمومي اي ان مدة البدل لا تتجاوز المدة التي كانت باقية للنائب الاصلي

١٣ رئيس المجلس ووكلاءه وكتبته يكون تعيينهم بمعرفة رئيس المجلس من اعضاء الماوية ويحضرون المجلس اول الاجتماع الثاني

١٤ مذاكرات النواب ومداولاتهم في الجلسات العمومية تكون علنية ومع ذلك فانما يجوز ان تكون سرية متى طلب ذلك احد النظار او عشرة من النواب بالمجلس

١٥ لا يجوز حبس احد النواب ولا اقامة دعوى عليه في اثناء مدة انعقاد المجلس ما لم يكن قرار صادر من المجلس المذكور ويستثنى من ذلك الاحوال التي يضبط فيها احد النواب حالة كونه متلبسا بجناية جسيمة مثل القتل الخ

١٦ اذا صار القبض على احد النواب حالة كونه متلبسا بجناية ووضع في الحال [illegible] لرئيس مجلس النواب حالة حبسه ويصدر الافراج عنه بعد ذلك او ترفع الدعوى عليه في اثناء مدة انعقاد المجلس اذا طلب المجلس المذكور ذلك

١٧ وللمجلس الحق ايضا في طلب الافراج او ترك الدعوى اذا كان احد النواب صار القبض عليه وحبس في غير مدة انعقاد المجلس

١٨ كل من النواب من قبل قيامه بوظيفة النيابة يحلف يمينا بالمجلس علانية حسب الشرع بان يكون صادقا للحضرة الخديوية وان لا يخون الوطن وان يحافظ على مراعاة القوانين الحكومية وان يؤدي الوظيفة التي احيلت عليه بما يكون فيه خير للوطن

١٩ يقرر لكل من النواب مبلغ عشرة الاف قرش سنويا [illegible] مصاريف سفره واقامته ويصرف له ما يخص ذلك في كل شهر من ثلاثة الاشهر المقررة لانعقاد المجلس من تاريخ انعقاده بحيث اذا تمدد مدة المجلس عن ثلاثة الاشهر او زادت [illegible] قرش شهريا اما اذا كان في اخر السنة يحصل انعقاد المجلس لاول العادة فلا يكون له شيء الا ان كان المجلس تم بدلا وحصر ذلك البدل في تلك الاجتماعات فيصرف له بنسبة ما يخصها مدة اقامته مع تسليط الرسم بحيث لا يتجاوز الشهرية الالف قرش اما نواب جهات السودان فيصرف لهم زيادة على ذلك مصاريف السفر بالمدة [illegible]

٢٠ لا يجوز لموظفي الحكومة ملكيين كانوا او عسكريين ان يكونوا من اعضاء مجلس النواب ما عدا نظار الدواوين ومأموري الاقاليم ووكلائهم والمديرين ووكلائهم بشرط ان لا يتجاوزوا خمس عموم النواب بالعدد

٢١ لا تكون المداولة في امر ما بطريقة صحيحة معتبرة الا اذا كان موجودا بالمجلس ثلثا اعضائه ولا يحسب ضمن الاعضاء المذكورين النائبون بالوكالة وعدا عن ذلك يشترط ان يكون القرار من الحاضرين بالمجلس ولا يتخذ قرار من قراراته الا اذا اقرته اغلبية الحاضرين وعند تساوي الآراء يكون رأي الرئيس مرجحا للرأي الذي يكون منضما معه

٢٢ لا يجوز لاحد النواب توكيل غيره في ابداء رأيه على حسب طلبه او ابداء رأيه

٢٣ لا يجوز لكل مصري حائز لحقوق الانتخاب ان يقدم للمجلس عرضا بواسطة احد النواب وبعد ان يحال النظر فيه على كومسيون للمجلس يحكم بناء على التقرير الذي يقدم له من ذلك الكومسيون بقبول ذلك العرض او عدمه ورفضه او عدم اعتباره

٢٤ كل مائة [illegible] يحول عمومية يقدم للمجلس يجب ان تكون من المحررات التي تحمل امضاء او ختم صاحبها او يحصل [illegible] الى الامور المالية وذلك بالمكتب او الى الجهة التابع لها المحرر [illegible]

٢٥ لا يجوز للمجلس ان يقبل احد [illegible] اليه بالاصالة عن نفسه او بالوكالة عن جماعة للتكلم في امر من الامور الا بعد الاذن من احد من اعضائه ونظار الدواوين ومديريهم

٢٦ ان عند اول اجتماع مجلس النواب يجب على مجلس النظار ان يقدم له حساب الايرادات والمصروفات الجاري العمل بها في الحكومة لينظر فيها ويعلمها ويصدر قراره عليها ويجري التصديق عليها من الحضرة الخديوية لتكون دستورا للعمل

٢٧ ان وضع الضرائب واللوائح يكون ابتداء من مجلس النظار ثم تعرض على مجلس النواب للنظر فيها وتعليمها بحيث لا يكون القانون معتبرا او دستورا للعمل ما لم يحل على مجلس النواب ويقبله ويحصل عنه القرار ويجري التصديق عليه من الحضرة الخديوية ويجوز للنواب مراعاة لمصلحة البلاد وبحسب مقتضيات الاحوال وظروف الاوقات ان يغيروا او يبدلوا او يعدلوا اي قانون من القوانين رأى بعد من يوردها وحين عملها بهذه اللائحة الاساسية

٢٨ اذا رفض مجلس النواب قانونا من القوانين او بعضا منه بعد ما يعرضه عليه مجلس النظار فلا يجوز تقديمه الى مجلس النواب ثانيا في اثناء مدة انعقاد تلك السنة

٢٩ الحكم بصحة انتخاب النواب يختص بالمجلس دون غيره

٣٠ اللغة الرسمية التي يلزم استعمالها في المجلس هي اللغة العربية

٣١ يكون اخذ وابداء الآراء بالصورة الآتية وهي اما بالنداء بالاسم او بعلامات ظاهرة او بوضع الآراء سرا في الصندوق

٣٢ اخذ الآراء بالنداء بالاسم لا يكون الا باقرار من المجلس بناء على طلب يحصل من احد النواب ويشترك ابداء عشرة منهم واخذ الآراء بوضعها سرا في الصندوق لا يكون الا فيما يختص بالخصوص (مثل تعيين الرئيس او الوكلاء والكتاب واعضاء الكومسيونات وما شابه ذلك)

٣٣ لائحة ادارة مجلس النواب الداخلية تعمل بمعرفته

٣٤ اعضاء مجلس النواب لا يزيدون عن ١٢٠ نائبا ما عدا نواب السودان حسب البلاد التي تتبع لائحة الانتخاب

٣٥ مركز مجلس النواب يكون بالمحروسة مصر التي هي عاصمة القطر

٣٦ النظار مسؤولون امام مجلس النواب عن كافة الاحوال والاعمال الخاصة باداراتهم وبناء على ذلك يجب على مجلس النظار المبادرة الى وضع قانون لمحاكمة النظار عند الاقتضاء وعرضه على مجلس النواب

٣٧ لا يجري العمل بامر صادر من الحكومة ما لم يكن مصدقا من الناظر المختص به ومطابقا لامر [illegible] (راجع بند ٢٦ و٢٧)

٣٨ لا تجتمع وظيفة النظارة والنيابة في شخص واحد (راجع بند ٢٠)

٣٩ يجوز لكل من النظار بحضور جلسات مجلس النواب او ان يرسل له احد كبار موظفي ادارته بالنيابة عنه بشرط ان لا يكون ذلك الموظف من ضمن النواب

٤٠ يجوز للنظار وللمندوبين عنهم ان يتكلموا في المجلس بشأن كافة الامور التي يطلبون التكلم فيها

٤١ اذا طرأت ضرورة مهمة جدا لتعلم المبادرة الى اخذ الاحتياطات اللازمة لوقاية الحكومة من خطر وما يحول دونه او لاجل المحافظة على الامن العمومي وكان مجلس النواب غير منعقد فيجوز لمجلس النظارات يقرر باجراء ما يلزم اجراؤه تحت مسؤوليتهم بالتصديق على ذلك بالقرار من الحضرة الخديوية ويجري العمل على مقتضاه بشرط ان لا يكون مخالفا للقوانين المقررة هذا ولدى انعقاد مجلس النواب يعرض عليه

٤٢ اذا رأى النواب التكلم في شأن مواد خلاف ما يقدم لهم من النظار فيجري المداولة فيها ويرسل اخطار بذلك لمجلس النظار ويعد ثمانية ايام من تاريخ ارسال ذلك الاخطار ان لم يرد من مجلس النظار او من المذكرة فيها وطلب النواب حق قبول تلك الاوجه فلهم ان يضعوا مداولتهم ويصدروا قرارهم فيها

٤٣ النظار ملزومون بالمخابرة عن كل ما يسألون فيه من مجلس النواب اما بانفسهم او ان يرسلوا للمجلس باسمهم او بانابة احد كبار موظفي دوائرهم المخابرة بالنيابة عنهم بشرط ان لا يكون ذلك الموظف من ضمن النواب

٤٤ يجوز للنظارات تأخير مخابراتهم عما يسألون فيه من مجلس النواب عند الضرورات المهمة مع بيان اسباب التأخير اكثر ما يكون قبل انتهاء مدة اجتماع المجلس بخمسة ايام ويلزمهم ان يقدموا الجواب في اول الاجتماع التالي للنواب ومع ذلك مسؤولية التأخير عليهم

٤٥ من حقوق النواب ان يلاحظوا المصاريف العمومية بالدولة الخاصة وان يقرروا مقاديرها ويجب عليهم ان يعينوا كمية الايرادات وكيفيتها وضرب الضرائب والجبايات وطرق توزيعها واوقات تحصيلها فلا يجوز ضرب ضريبة من اي نوع كانت ولا توزيعها ولا تحصيلها ولا تكليف الاهالي بشيء ما الا بعد اقرار النواب عليه كما لا يجوز صرف شيء من متحصلات الضرائب زيادة عما قرره النواب

٤٦ للنواب ان يطالبوا بحسب اصلاح الخلل الميزانية العمومية المتوالية الخاصة للايرادات والمصروفات او طرق لم يجر [illegible] اما بعد البحث التام لا يعمل بها الا في تلك السنة ويلزم الميزانية [illegible] ثانيا وعرضها للنواب كما ذكر وهكذا سنويا

٤٧ ان كل قرار يصدر في مجلس النواب يرسل لمجلس النظار لاجراء التصديق عليه من الحضرة الخديوية

٤٨ اذا اقتضى عبارة بند من بنود هذه اللائحة والمعنى الحال الوارد على [illegible] ما يتطلب تفسيره من مجلس النواب

٤٩ لكل نائب من النواب [illegible] اذا رأى قصورا من اي مأمور او في اي ادارة من ادارات الحكومة ان يكتب وذلك للناظر المختص [illegible] ويعطي سلطة المواد العمومية



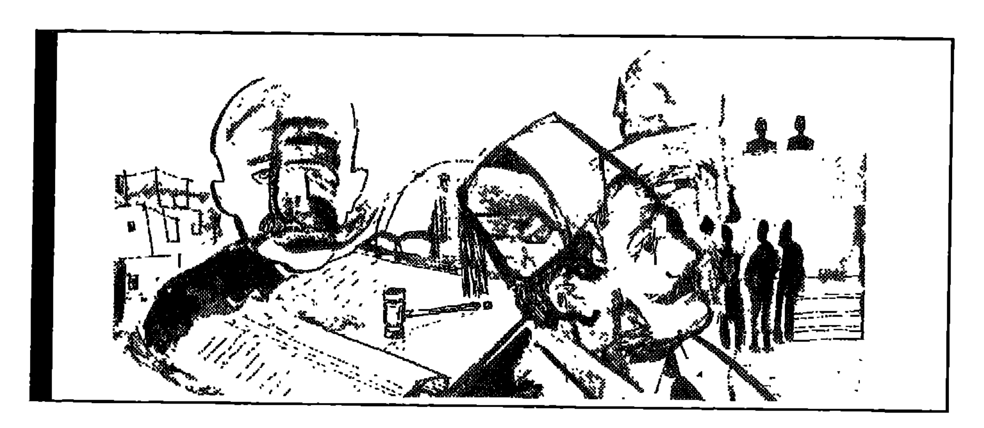
(مكاتبات الادارة)

(قيمة الاشتراك)

(تصدر في يوم الخميس من كل اسبوع)

الفصل الثالث عشر

الوزارة الأولى



- ■ «أعضاء مجلس النظار بعضهم لبعض كفيلا»
- ■ وزارة «النافعة» التى تولاها فرنسى
- ■ لماذا «مجلس النظار» لا «مجلس وزراء»
- ■ «دائرة الحقانية» المقر الأول لمجلس النظار المصرى
- ■ «المتوظفون الوطنيون» قضية فرضت نفسها على الوزارة الأولى.

[١٢]



الوزارة المصرية بدأت فى اغسطس عام ١٨٧٨ ، وكان عمر الاهرام وقتئذ عامين بالضبط.

وإذا كان لبداية هذه الرحلة بتشكيل الوزارة الأولى قصة ، فان لموقف الأهرام منها قصة أخرى وبينما خضعت القصة الأولى للدراسة التاريخية فان القصة الثانية تكاد تكون غير معلومة ، ونبدأ بالقصة الأولى ..

تشابكت الأحداث على نحو مثير الأمر الذى أدى فى النهاية الى مولد مجلس الوزراء المصرى ، واذا كانت الولادة قد جاءت طبيعية فان المولود لم يكن عاديا !

الولادة (الطبيعية) بدت فى التحول الذى أصاب المؤسسات الادارية التى نشأت فى اطار عملية بناء الدولة الحديثة التى قام بها والى مصر المشهور محمد على باشا ، والتى تسمت « بالدواوين » ، وهى التى تم تنظيمها بشكل نهائى فى قانون «السياستنامة» الصادر عام ١٨٣٧ .

وتحول الوحدات الادارية الى وزارات أمر طبيعى عرفته نشأة النظام الوزارى حتى فى أعرق الدول ، ولعل احتفاظ الوزارة الانجليزية حتى يومنا هذا بتسمية المكتب office والوزير بتسمية السكرتير Secretary يقدم نموذجا على الأصول الادارية لتلك الوزارة .

المولود هو الذى لم يأت طبيعيا ، فقد جاء من خلال عملية تولى التوليد فيها الاطباء الأوربيون ، وكانوا حريصين على أن يضعوا بصمتهم على جسده !

المولود اسمه « مجلس الوزراء المصرى » ، وكان يتشكل بالأساس من نظار الدواوين التى تحولت الى نظارات ، والذى تقرر أن يكون لهؤلاء رئيس وأن يجتمعوا بشكل منتظم ، غير أن الأهم من هذا وذاك « أن يكون أعضاء مجلس النظار بعضهم لبعض كفيلا فان ذلك أمر لازم لابد منه » ، فيما تضمنه « الأمر العالى المؤسس لهيئة النظارة » الصادر فى ٢٨ أغسطس ١٨٧٨ ، مما كان يعنى ببساطة ارساء مبدأ المسئولية الوزارية الذى يمثل جوهر النظام الوزارى .

عبر عن طبيعة تلك التطورات ما جاء فى نفس الأمر من قول اسماعيل أن تشكيل هيئة على هذا النحو « ليس مخالفا لعوائدنا وأخلاقنا ، ولا لآرائنا وأفكارنا ، بل موافقا لأحكام الشريعة الغراء » .. غير أن الظروف هى التى جعلت المولود غير طبيعي.

من بين هذه الظروف أن مجلس الوزراء المصرى قد تشكل رغم أنف الخديو ، وكان

وراءه الدائنون الأوربيون أو ممثلوهم ، خاصة قناصل عموم انجلترا وفرنسا فى القاهرة ، الذين رأوا أن مصالحهم لن تتحقق إذا ما استمر الخديو يمارس صلاحياته المطلقة .

عبر عن ذلك القنصل الانجليزى فى قوله ان « كل مفاسد وفوضى الأوضاع المالية فى مصر وكل الظلم الذى يعانى منه دافع الضرائب انما هو ناتج أساسا عن السلطة المطلقة التى يمارسها الخديو فى البلاد » ، ومن ثم جاء السعى لانشاء مجلس الوزراء للحد من سلطات الخديو .

ولم يكن أمام اسماعيل سوى القبول بالرأى البريطانى مما أفصح عنه فى الأمر العالى بتشكيل الوزارة الأولى والذى جاء فيه : « وأريد عوضا عن الانفراد بالأمر المتخذ الآن قاعدة فى الحكومة المصرية سلطة يكون لها ادارة عامة على المصالح .. بمعنى انى أروم القيام بالأمر من الآن فصاعدا بالاستعانة بمجلس النظارة والمشاركة معه» .

غير ان هذا كان يمثل جانبا واحدا من الجوانب التى أثرت فى طبيعة المولود .

الجانب الثانى بدا فى فرض رئيس أول وزارة مصرية على اسماعيل ، وكان نوبار باشا ، أحد كبار رجال الادارة المصرية من الأرمن الذين استمروا يشكلون عنصرا فى تلك الادارة منذ أن بدأ محمد على فى بناء الدولة الحديثة .

وقد اكتسب نوبار جانبا كبيرا من أهميته من خلال نجاحاته فى التفاوض مع القوى الأوربية بعد أن تفاقمت أشكال تدخلها فى الشئون المصرية خلال النصف الثانى من السبعينات ، وهو فى هذا اكتسب ثقة الطرفين ، الأوربيين والخديو اسماعيل .

بيد أن ثقة الخديو لم تكن هى التى مهدت له الطريق لتولى رئاسة أولى الوزارات المصرية ، فلا شك أنه لو كان قد ترك الخيار أمام اسماعيل لاختار أحد كبار رجال الدولة المنحدرين من أصل تركى مثل شريف أو رياض .. الذى أوصل نوبار الى المنصب كان ثقة القوى الأوربية وهو الأمر الذى كشفته الوثائق السرية لوزارتى الخارجية البريطانية والفرنسية ، وقد نم هذا الاختيار عن الجانب الأول من البصمة الأوربية على الوليد الجديد .

ثالث الجوانب من البصمة وكان أكثرها بروزا .. أن يشارك فى الوزارة المصرية الأولى وزيران اوربيان ، من بين ستة وزراء هم مجموع أصحاب المقاعد فى تلك الوزارة، بمعنى ان ثلث هؤلاء لم يكونوا من المصريين حتى لو اعتبرنا نوبار مصريا !

ويلفت النظر فى هذا الجانب ان الوزيرين الأوربيين قد توليا أهم الحقائب الوزارية ..

المالية والأشغال أو ما كان يسمى بلغة العصر «وزارة النافعة» ! ، فالوزارة الأولى كانت تهيمن على كل موارد المالية المصرية والثانية كانت تتحكم فى نفقاتها، ولم يكن الوزيران غريبين عن الادارة المصرية !

الجانب الأخير بدا فى الصراع الذى احتدم بين الدولتين الكبريين صاحبتى المصالح الأهم فى مصر ، انجلترا وفرنسا ، حول المنصبين اللذين تقررا لهما ، وهو صراع تعددت وجوهه...

من هذه الوجوه أن نوبار تخوف من أن يؤدى اذعانه للمطالب الانجليزية الفرنسية الى فتح شهية الدول الأوربية الأخرى للمطالبة بنصيبها فى الوليد الجديد ، فقد حدث فعلا أن طالبت حكومة روما بتعيين وزير ايطالى للحقانية (العدل) ، وطالبت حكومة فيينا بتعيين نمسوى وزيرا للمعارف ، وهو التخوف الذى دفع نوبار بعد تكليفه بتشكيل الوزارة الى التأكيد على أن دخول الوزيرين الأوربيين للوزارة الأولى انما تم «بناء على رغبة الحكومة المصرية»!

منها أيضا مخاوف فرنسا من وضع الشئون المالية فى يد انجليزى بما يعنيه هذا من سيطرة حكومة لندن على تلك الشئون ، منها أخيرا الخلاف الذى نشأ بين نوبار وفرنسا عن الشخصية التى تشغل منصب وزير الأشغال ، وهى أمور تطلبت وقتا لتسويتها ، باختيار « ريفرز ويلسون » وزيرا للمالية فى ٢٦ سبتمبر ، و «دوبلينير» وزيرا للأشغال فى ١٦ نوفمبر ، بمعنى آخر أن عملية ولادة الوزارة المصرية الأولى قد استغرقت نحو ثلاثة شهور ، ونظن أنها أكبر فترة ولدت فيها وزارة فى مصر ، ولكنها الولادة الأولى !

هذا ماتقدمت به الدراسات التاريخية عن تأليف أولى الوزارات فى التاريخ المصرى الحديث ، ولكن ماذا قال « الأهرام»؟

★★★

تأخر « الأهرام » نحو اسبوع فى تسجيل تاريخ ميلاد الوزارة المصرية الأولى ، ويعزى هذا التأخر أساسا الى أن الأمر العالى بالتشكيل أعلن فى نفس يوم صدور العدد ١١٠ من الجريدة التى كانت لاتزال تصدر بشكل أسبوعى ، من ثم لم يكن أمام القائمين على الجريدة سوى الانتظار الى عدد الأسبوع التالى ، العدد ١١١ الصادر فى ٥ سبتمبر عام ١٨٧٨ .

خصص هذا العدد الأخير صفحته الثانية لوثائق تشكيل الوزارة الأولى ، وهى

وثائق تضيف الكثير لقصة ميلاد الوزارة الأولى ....

أول ماتضيفه «الترجمة الاهرامية» لجملة تلك الوثائق ، فالمعلوم أن «نطق الخديو» لنوبار بتكليفه بتشكيل الوزارة كذا رد الأخير عليه قد جاءا بالفرنسية وأن الباحثين قد أخذوا ابترجمة الأمرين كما نشرتهما الجريدة الرسمية « الوقائع المصرية » ، وهو مالم ينتظره الأهرام الذى قدم ترجمته الخاصة وكانت مختلفة..

جانب من هذا الاختلاف تبدى فى انعكاس مفهوم الأهرام لقيام المؤسسة الجديدة ، فمجموعة تلك الوثائق تشير الى التسمية التى جاءت فى أصل خطاب الخديو اسماعيل بالفرنسية ، وكانت : Conseil des ministres فبينما ترجمتها الوقائع «مجلس النظار» فقد ترجمها الأهرام «مجلس الوزراء»، والفرق كبير!

ترجمة الوقائع جاءت توخيا للوضع القانونى لمصر ، وهو الوضع الذى يقوم على تبعيتها للدولة العثمانية ، وهو أيضا الوضع الذى لم يسمح بوجود مجلسين للوزراء ، أحدهما فى استنبول والثانى فى القاهرة ، ومن ثم لم يكن هناك مناصا من أن يأخذ مجلس القاهرة تسمية مختلفة ، وهى التسمية التى لم يتم التخلى عنها الا بعد سقوط التبعية القانونية للباب العالى عام ١٩١٤ .

ترجمة الأهرام لم تلتزم بهذا الشكل القانونى بل تعامل مع الوضع الفعلى ، وهو الوضع الذى كان يقوم على حكومة مستقلة أو شبه مستقلة فى القاهرة عن حكومة استنبول ، وهو موقف يحسب للصحيفة الوليدة بلا شك !

العبارة الأخرى التى اختلف الأهرام مع الوقائع فى ترجمتها كانت :, Et un mot je veux dorenavant gouverner avec et par mon conseil des Ministres ترجمتها الوقائع «بمعنى أننى أروم القيام بالأمر من الآن فصاعدا باستعانة مجلس النظار والمشاركة معه»، بينما ترجمها الأهرام بقوله « والخلاصة انى اريد أن تكون حكومتى منذ اليوم مقيدة أو شوروية » ، ومع مايبدو من أن محرر جريدتنا قد ترجم « بتصرف » الا أن تلك الترجمة تشى برؤية الصحيفة للمؤسسة الوليدة، رؤية تقوم على التأكيد على الاتجاه الشورى ، وهى رؤية كانت قد حكمت مواقفها من الحياة النيابية .

من بين ماتضيفه أيضا جملة الوثائق الخاصة بتأليف الوزارة الأولى التى نشرها الأهرام فى عدده رقم ١١١ وثيقة لم تتضمنها المصادر الأخرى .. تلكم هى الرسالة التى بعث بها نوبار الى «حضرة قناصل الدول» فى العاصمة المصرية، وكان مما جاء فيها : « أما الادارة فستوكد لها بالضرورة مبادىء الاقتصاد الحسن .. والمؤكد أن

حكومتكم تنظر بعين الرضا الى دخول حضرته السامية (يقصد الخديو) فى هذه الطريقة الجديدة وان ميلها وتساهلها يساعدان عمل سموه الذى فوض الى رفقائى ولى اتمامه».

وتؤكد هذه الرسالة التى انفرد الأهرام بنشرها على حقيقة الميلاد الأوربى للوزارة المصرية ال146ولى .

أخيرا فان الأهرام قد أشار الى واقعة لم تشر اليها المراجع الأخرى بالنسبة لتشكيل الوزارة الأولى ، فلم تذكر أى من المصادر أن شريف باشا الشخصية المصرية السياسية الكبيرة كان قريبا فى أى وقت من تشكيل هذه الوزارة ، ولكن الأهرام تقول انه قد جرت اتصالات مع « صاحب الدولة والاقبال مولاى شريف باشا الأفخم » لشغل احدى الوزارات ، وتعرب عن أملها أن تسفر هذه الاتصالات عن اقناعه بذلك « فلا تفوتها فوائده وسامى همتــه وحرية أفكاره وحسن درايته ودرايته » ، بيد أن هذا الأمل الاهرامى لم يتحقق أبدا!

☆☆☆

انصبت عناية الدراسات التاريخية التى تناولت الحياة القصيرة للوزارة الأولى - أقل من ستة شهور - على متابعة الصراعات التى ظلت محتدمة بين الوزارة والخديو الذى كان رافضا فى أعماقه وفى تصرفاته أن تفرض عليه الدول نوبار والوزراء الأجانب على هذا النحو ، الأمر الذى دعا ممثل انجلترا فى القاهرة الى التدخل لتحذير اسماعيل من مغبة تصرفاته مع وزرائه .

هذه الصورة لم يقدمها الأهرام سواء لمخاطر الاقتراب من مثل هذا الصراع على جريدة محلية وليدة . أو لأن تفاصيله الدقيقة لم تعرف الا بعد سنوات طويلة وكشف الوثائق التى حوت أسراره .

بالمقابل الصورة التى قدمها لم تعنى بها الوثائق ولم تعنى بها أيضا الكتابات العلمية ، وهى صورة متعددة الزوايا ..

زاوية من هذه الصورة متعلق بمكان ونظام انعقاد « هيئة مجلس النظار » ، أما المكان فقد كان فى « دائرة الحقانية » لأن مقر رئاسة مجلس الوزراء لم يكن قد أنشيء حتى ذلك الوقت ، والنظام أن المجلس « ينعقد مرتين فى الأسبوع » ، كما أشار الأهرام فى عدده الصادر فى ٨ أكتوبر عام ١٨٧٨.

يتصل بالنظام أيضا علاقة الخديو بالوزارة الذى قال فيه الأهرام انه «لم يكن يحضر

اجتماع الوزراء ولا يعترضهم بل كان يكتفى بالتوقيع والتصديق » ! وفيما نراه فان هذا الموقف الذى التزم به اسماعيل لم يأتَ طواعية وانما جاء تحت ضغوط قناصل عموم الدول خاصة القنصلين الانجليزى والفرنسى ، وان كان الأهرام قد اعتبره شكلا من أشكال «نزاهة النفس عن العمل»!

زاوية أخرى متصلة بذلك التقليد الذى أرسى مع كل متغير كبير فى السياسة المصرية .. تقليد إطلاق سراح عدد من المسجونين ، فيسوق الأهرام خبرا يقول فيه انه «بعد تشكيل الوزارة أطلق سبيل مائة من السجن وسبيل خمسة من الليمان» وان كانت الصحيفة الوليدة تقدم لهذا التقليد تفسيرا مختلفا..

فبينما يقوم هذا التفسير فى مراحله الأخيرة على أساس «العفو لمناسبة كريمة» فان تفسيره فى تلك المناسبة الأولى قام على أساس أنه قد « ثبت أن سجنهم كان مبنيا على غير قوانين شرعية » !

الزاوية الأخيرة تتمثل فى تلك العناية الكبيرة التى أولاها الأهرام لمن أسماهم «بالمتوظفين الوطنيين»، وهى عناية كان مصدرها ما أخذ يكابده هؤلاء من حملات توفير بسبب الأزمة المالية التى كانت الحكومة قد أخذت تعانى منها . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى مانتج عن السياسات التى توسع فيها اسماعيل بتوظيف الأجانب فى شتى الادارات الأميرية !

ففى مقال طويل نشره الأهرام فى ٤ أكتوبر عام ١٨٧٨ تحت عنوان : « الوزارة المصرية والمتوظفون الوطنيون » قال فى جانب منه « أفضل مايجب على الوزارة أن تراعية النظر فى حال المستخدمين الوطنيين أبناء اللغة العربية الشريفة بأن تعتبر انهم أحق من سواهم فى الحصول على الوظائف او بقائهم مالكين زمام وظائفهم» ثم يحذر الأهرام مما أسماه «بالاعتياض عن الوطنى بالأجنبى» وكيف أن ذلك يؤدى الى وقوع الخسارة من أوجه ثلاثة: «الأجنبى يحتاج الى مترجم للقيام بواجباته.. الأجنبى يجهل اصطلاح البلاد وعوائد الأهلين وليس كذلك الوطنى وصاحب البيت أدرى بالذى فيه، ثالثها ان الفوائد التى ينالها الأجنبى فى هذا الاعتياض إن هى الا حقيقة ماينبغى أن يكون للوطنى » !

وفى تقديرنا ان هذا المقال يشى بموقف مبكر من الاهرام بالانحياز لمبدأ « مصر للمصريين » ، وهو المبدأ الذى رفعته الثورة العرابية والتى تفجرت بعد سنرات قليلة من قيام الوزارة الأولى بل وأدت نذرها الى الاطاحة بها.



غل يد اسماعيل عن التدخل فى شئون الحكم ، وسياسات التوفير التى اتبعتها وزارة نوبار حيال العاملين فى الحكومة المصرية خاصة من ضباط الجيش وتدخل الوزيرين الأجنبيين فى شتى شئون الحكم الأمر الذى بدا معه وكأن السلطة قد انتقلت تماما الى أيديهما .. كل هذا كان وراء العمر القصير الذى عاشته الوزارة المصرية الأولى ..

واذا كان الأهرام قد تجنب الخوض فى القضية الأولى..قضية موقف الخديو من الحد من سلطاته بحكم ما كان يحوطها من محاذير، فانه قد اقترب من القضية الثانية بحذر، الا انه عالج القضية الثالثة بتوسع وهى القضية التى نبدأ بمحاولة تبين موقف الأهرام منها ..

طرح الأهرام قضية تدخل الوزيرين الأوربيين فى عدده الصادر فى ٢٧ فبراير عام ١٨٧٩ وجاء هذا الطرح على شكل تساؤلات .. تساؤل منها جاء فيه « أمن الواجب ان يعتبر الوزيران الأوربيان انهما كمستخدمين مصريين أم كنائبين عن أوربا ! ؟» وأردف ذلك بالتساؤل الثانى : « وهل يجب ان يشتغلا قبل كل شيء لصالح الدائنيين أو لصالح البلاد وإصلاحها ! ؟ » ومجرد طرح هذه الاسئلة انما يشير الى حسن النوايا التى تناول بها الأهرام قضية الوزيرين الأوربيين ، والتعلق بحسن نوايا الدائنين وهم نظن أن البلاد المدينة استمرت تعيش فى أحضانه ، ربما حتى يومنا هذا !

ويبقى بعد ذلك قضية توفير العاملين المصريين فى السلك المدنى او العسكرى ، والتى أدت أخيرا الى الحادثة المشهورة « بمظاهرة الضباط » التى قام بها ٢٦٠٠ ضابط يصحبهم أربعة من أعضاء مجلس النواب فى ١٨ فبراير عام ١٨٧٩ والتى احتجزوا خلالها نوبار وويلسون فى وزارة المالية فى قصر النيل ولم يمكن فض هذه المظاهرة الا بعد حضور الخديو شخصيا ، وقد وقف الأهرام من تلك المظاهرة موقفا شديد التحفظ !

ففى عدد الأهرام الصادر بعد يومين من المظاهرة أشارت الجريدة الى ماتسبب عن «إباءة (إحالة) الجند للتقاعد» من حوادث وأن السبب فى ذلك اقتناع هؤلاء « ان ما سيعين لهم لا يقوم بلوازمهم » ، وان أهالى المحروسة « توقعوا حدوث أمر جلل ، ولكن إلتفات سمو الخديو المعظم وهمة سعادتلو ناظر الجهادية وحكمة أولئك الجنود أزالت الوجل»!

ومع أن مراسل الأهرام فى المحروسة قد وعد أن يوافى جريدته بما يستجد من تطورات فى هذا « الأمر الجلل » فان عدد الأهرام التالى الصادر فى ٢٠ مارس لم

يشر من بعيد أو قريب للمظاهرة الشهيرة.

قد يعزى ذلك فى أحد جوانبه للحساسية الشديدة التى احاطت بالحادث خاصة ما علم من أن اسماعيل نفسه متورط فيها ، وقد يعزى ذلك فى جانب آخر الى ان الحادثة قد سببت قلقا شديدا فى الدوائر المالية رصده الأهرام وحرص على عدم تضخيمه، وقد يعزى فى جانب أخير الى أن وزارة نوبار قد اضطرت للاستقالة بعد خمسة ايام فحسب من المظاهرة ، وكان من الطبيعى أن ينصرف اهتمام الاهرام الى «استعفاء» الوزارة الأولى أكثر مما ينصرف الى المظاهرة التى أدت الى هذا الاستعفاء ثم إلى المشاورات التى ادت الى تشكيل الوزارة الثانية والتى استغرقت أكثر من أسبوعين كانت الصحيفة خلالها فى قلب الأحداث التى تغير مسارها!

● مراجع الفصل الثالث عشر:

اعداد الأهرام:

رقم العدد	التاريخ
١١١	١٨٧٨/٩/٥
١١٣	١٨٧٨/٩/٢٠
١١٤	١٨٧٨/٩/٢٦
١١٥	١٨٧٨/١٠/٤
١١٧	١٨٧٨/١٠/١٨
١٢٢	١٨٧٨/١١/٢٢
١٣٥	١٨٧٩/٢/٢٠
١٣٦	١٨٧٩/٢/٢٧
١٣٧	١٨٧٩/٣/٦
١٣٨	١٨٧٩/٣/١٣
١٤٠	١٨٧٩/٣/٢٧
١٥٨	١٨٧٩/٨/١٤
١٥٩	١٩٧٨/٨/٢١
١٦٠	١٩٧٨/٨/٢٨
١٦٧	١٩٧٨/١٠/١٦
١٧٠	١٩٧٨/١١/١٦

- احمد عبدالرحيم مصطفى: مصر والمسألة المصرية ١٨٧٦ ـ ١٨٨٢ ـ القاهرة ١٩٦٥
- د. يونان لبيب رزق: تاريخ الوزارات المصرية ١٨٧٨ ـ ١٩٥٣ ـ القاهرة ١٩٧٥

الفصل الرابع عشر

تشوق البرولتيـ!



■ على «جرنال الأهرام» ألا يدرج المواد الموجبة لتهييج لأفكار الأهلية

■ «الأهرام تجاوز الحدود المعطية له في الأمور السياسية»

■ حبس بشارة تقلا واغلاق «صدى الاهرام»

■ تحرير التعهد من الأهرام على ١/٨ فرخ ورق كاد يودى بالصحيفة

■ «الطعن فى حق الحكومة فى قالب مستهجن لا ينبغى ذكره»

[١٤]

صحيفة بدون سياسة تتحول الى نشرة لا يحفل القارىء بشرائها ، هذه الحقيقة أدركها الأخوان تقلا منذ الشهور الأولى لصدور الأهرام وكادت محاولة تسييس الأهرام أن تقضي على الصحيفة الوليدة قبل سن الفطام مرة ولم تكن قد بلغت الشهور الأربعة ، وبعد أن عبرته مرة أخرى ولم تكن قد بلغت السنوات الثلاث !

فالسياسة وقت صدور الأهرام كان يمكن أن تتعاطاها الصحيفة الحكومية ، الوقائع المصرية ، وكان هذا التعاطى يتم فيما يشبه البلاغات الرسمية ،أو تتناولها الصحف الأوربية ، وكان تأثيرها محدودا فى الجاليات التى تقرأها ، أما فى خارج ذلك النطاق فقد كان « ممنوع البولوتيكا » ، ومنذ اللحظة الأولى لصدور الجريدة .

يكشف ذلك « العرضحال » الذى تقدم به سليم تقلا لطلب الترخيص والذى نص على انها لن تحتوى سوى على « التلغرافات والمواد التجارية والزراعية والمحلية .. وبعض ما يتعلق بالصرف والنحو واللغة والطب والرياضيات والأشيا التاريخية والحكم والنوادر والأشعار والقصص الأدبية وما شاكل ذلك من الأشيا الجايز طبعها بدون أن أتعرض للدخول مطلقا فى الأمور البوليتيقية » ! ، وهو تعهد كان صاحب الأهرام يعلم أن جريدته لن تصدر أبدا بدون أن يقطعه على نفسه .

بيد أن الوفاء بهذا التعهد كان يعنى أن يسير الأهرام فى نفس طريق الصحيفة التى سبقته .. صحيفة « روضة الأخبار » التى امتلكها عبدالله أبو السعود افندى وكان واضحا انها تسير فى طريق مسدود فقد اقتصرت على النقل عن الوقائع المصرية من جانب ، وشغل بقية صفحاتها بمدح ولى النعم من جانب آخر ، ولم يكن القارىء فى حاجة الى مثل هذه الصحيفة ، فالأصل موجود .. الوقائع الرسمية .

وقد أدرك أصحاب الأهرام منذ صدور صحيفتهم أن السبب فى استمرار صدور «روضة الأخبار» هو العون المالى للخديو ، وهو ما لم يحصلوا عليه ، فلم يجد الباحثون فى بنود الميزانية المصرية الخاصة بالأموال التى صرفت للصحافة عامة على أى اعتمادات صرفت للأهرام أو لمحرريها ، من ثم كان على آل تقلا البحث عن طريق آخر ، ولم يكن سوى طريق السياسة وتحويل الأهرام من مجرد نشرة الى جريدة حقيقية، ولكن الطريق كان مليئا بالألغام ، وكان مطلوبا السير فيه بحذر شديد .

بدا هذا الحذر فى تجنب الخوض المباشر فى شئون « البولوتيكا » فقد حرص الأهرام فى اعداده الأولى على النقل عن الصحف الأجنبية، الأوربية والمحلية ، أو بعض البرقيات التى تنقلها وكالات الأنباء ، وأحيانا النقل عن الوقائع المصرية فيما يمس الأوضاع الداخلية .

وقد تزامن صدور الأهرام مع بدايات الاشتباك بين الصرب والدولة العثمانية ، ولم تتهيب الصحيفة الوليدة أن تخصص بعضا من أعمدتها بل وصدرها ، لتتبع مجريات الحرب ، وهو الأمر الذى خرج عن المألوف بالنسبة لصحافة العصر .

الأخطر من ذلك ما أقدم عليه الأخوان تقلا من الحاق صحيفة يومية بالأهرام بعد نحو شهرين من صدوره هي صحيفة « صدى الأهرام » دون الحصول على ترخيص بها ، وقد اشترك فيها عدد كبير من « تجار الأرياف وعمدها ومشايخها لاشتمالها على مطلق الأخبار التجارية والأشغال الريفية» حسب ما جاء في أحد التقارير الرسمية ، ولم يكن كل ذلك يمكن أن يمر على السلطات دون تحرك !

محافظ الاسكندرية كتب إلى « ناظر الحقانية » في القاهرة يبلغه ان « محرر جرنال الأهرام باسكندرية قد تجاوز الحدود المعطية له في الأمور السياسية الغير جايز تداخله فيها فضلا عن ذلك أنه تشبث بطبع جرنال تلحيق للجرنال بدون إذن » !

في يوم ٦ ديسمبر عام ١٨٧٦ ، وكان قد مضى على صدور الأهرام أربعة شهور ويوم واحد ، وصل الى « سليم تكله افندى بسكندرية » أول انذار في عمر الجريدة المديد .. الانذار وجهه ناظر الحقانية وقد ذكر صاحب الأهرام بأنه قد تعدى حدود الرخصة وقوانين المطبوعات ، ثم دلف من ذلك الى التنبيه « بأن لا تشتغلوا من الآن فصاعدا الا بالمواد المرخص لكم بالتكلم فيها ويجب عليكم أيضا الامتناع والاحتراس من أنكم تطبعوا في جرنالكم مواد سياسية سواء كانت محررة بقلمكم أو تكون منقولة من بعض الجرانيل » ويخلص التنبيه من كل ذلك الى الانذار بأنه اذا لم يحدث « الا امتثال بدون تأخير لهذه التنبيهات » فعلى سليم تقلا أن يعلم انه سيصير « اتخاذ الوسائل القوية في حق الجرنال المذكور والمطبعة تعلقكم » !

رد سليم تقلا على الانذار يؤكد انه لم يخرج « عن جادة الصواب بما يتعلق بالأخبار الداخلية فإن ما كنت أنشره كنت أنقله حرفيا عن جرنال الوقائع المصرية .. وأما ما يتعلق بالمواد السياسية فما كنت انقل الا على سبيل الاستطراد من الجرنالات الشهيرة الخالية من التعصب والمقبولة من الحكومة ... وان من تكون طويته هكذا لا يعامل معاملة المذنب » !

ولم تستمع السلطات لتبريرات صاحب الأهرام وكان عليه أن يكتب تعهدا بأن « لا يدرج المواد الموجبة لتهييج الأفكار الأهلية عن أحوال الحروب الحاضرة بجرنال الأهرام» وانتهت أزمة الأهرام الأولى مع « البولوتيكا » ولكنها لم تكن الأزمة الأخيرة في عصر إسماعيل !

★★★

بين الأزمة الأولى في ديسمبر ١٨٧٦ والأزمة الثانية في أبريل - مايو ١٨٧٩ كانت قد جرت مياه كثيرة أضفت على تلك الأزمة الأخيرة طابعا شديد الاختلاف ..

من بين هذه التطورات ما استتبع استحكام الأزمة المالية من تفاقم التدخل الأوربي في الشئون المصرية ، الأمر الذي لم يكن ينتظر معه أن تبقى الصحافة المصرية قابعة في موضع المتفرج على ملعب السياسة بلفح كل الوجوه !

من بينها أيضا ان اسماعيل نفسه أفسح هامشا لا بأس به للحركة الوطنية انطلاقا من التصور أنها يمكن أن تكون دعما له فى مواجهة التدخلات الأوربية ، وقد تمتعت الصحافة بجانب من هذا الهامش ومنها الأهرام بالطبع !

من بينها كذلك أنه قد ظهر خلال تلك السنوات عدد من الصحف الأهلية التى لم تتهيب من الخوض فى مجال « البولوتيكا » مثل أبو نظارة زرقاء والوطن ،مصر والتجارة ، وقد اكتسبت الأخيرة التى كان يحررها أديب اسحق شهرة خاصة فى العمل الوطنى باعتبارها ناطقة باسم الجماعة التى تحلقت حول السيد جمال الدين الافغانى .

من بينها رابعا ما أصاب المؤسسات السياسية المصرية من صحوة، مجلس شورى النواب الذى أصبح « مجلس النواب» ، والدواوين الحكومية التى أصبحت « مجلس النظار » ولم يكن متصورا ألا تقترب الصحف من كل تلك المتغيرات المتتابعة بكل ما تخلقه من واقع سياسى .

من بينها أخيرا الدرس الذى وعاه الاخوان تقلا من أزمة ١٨٧٦ ، حيث رأيا التحوط من احتمال ضرب مشروعهم من جراء سياسات اسماعيل الاستبدادية فقررا الاحتماء بالنظام الذى كان قد أخذ فى مد جذوره فى مصر .. نظام الامتيازات The Capitulations.

ونظام الامتيازات الذى استشرى فى سائر أنحاء الدولة العثمانية والذى كفل للرعايا الأوربيين فيها معاملة خاصة أخذ يتعاظم فى مصر نتيجة لتعاظم المصالح الغربية فيها ، هذا من جانب وتعاظم الوجود الأوربى من جانب آخر ، الأمور التى وصلت الى ذراها خلال سبعينات القرن عقب ظهور الأهرام .

ومع مرور الوقت اكتنف هذا النظام فى مصر ظاهرتان : أولاهما : تزايد عدد الدول التى يتمتع رعاياها بالامتيازات ، وثانيتهما : أن الحماية لم تعد مقصورة على أولئك الرعايا بل امتدت ان يطلبها ، حتى من الرعايا العثمانيين ، أو « المحليين» بلغة العصر.

وقد وجد آل تقلا فى هذا النظام المظلة التى يمكن أن تحميهم من مخاطر الاشتغال بالبولوتيكا ، ومن ثم لجأوا إلى « القونصلاتو الفرنساوى » وأصبحوا من المحميين من جانب حكومة الجمهورية الفرنساوية !

ولجوء أصحاب الأهرام الى الحماية الفرنسية دون غيرها مفهوم على ضوء العلاقة الخاصة بين الطائفة التى انحدروا منها ، طائفة الروم الكاثوليك ، وبين فرنسا ، وعلى ضوء الثقافة التى تشربوا بها .. الثقافة الفرنسية ، وعندما [illegible] تقلا وتحدث عن علاقته مع فرنسا قال انه « كان عاملا [illegible] أدبائها [illegible] وعلمائها ، وذا صلة مع أكابرها من الرئيس الى أدنى ذى منصب [illegible]

بباريس » !

ومنذ وقت مبكر ، وحتى قبل حصول آل تقلا على الحماية الفرنسية فان عداء «الأهرام» للانجليز وتعاطفه مع الفرنسيين كان ظاهرا ، ففى باب الحوادث الداخلية ، وتحت عنوان « القطر المصرى، فى العدد الصادر فى ٢٧ فبراير عام ١٨٧٩ عقد مقارنة بين آداء كل من ريفرز ويلسون الوزير الانجليزى والمسيودوبلينير الوزير الفرنسى ، وبينما اتهم الأول بالعمل ضد المصالح المصرية فقد حيى الثانى لأنه يعمل لتحقيق هذه المصالح !

وعلى ضوء كل تلك المتغيرات يمكن أن نتابع المعركة الثانية من المعارك التى خاضها الأهرام خلال سنيه الأولى من جراء خوضه فى غمار أعمال البولوتيكا !

★★★

لم يقتصر خوض الأهرام فى شئون السياسة على الحرب الروسية - التركية بل تعددت ميادين هذا الخوض ، من الشئون العثمانية خاصة فى فترة « الانقلاب الدستورى » الذى قاده مدحت باشا ، ثم فى الشئون العربية حتى انها كانت تتعامل مع الشئون الشامية بشكل شديد التوسع ، أما فى الشئون الداخلية فقد اقتحم أبواب مجلس النواب بنفس القدر الذى اقتحم به أبواب « مجلس النظار » الناشىء ، وكلها أمور سياسة فى سياسة !

وفى ظل كل هذه الظروف تفجرت الأزمة الثانية .. الأزمة سببها مقال نشره «الجرنال التلحيق » أى « صدى الأهرام » فى ٢٩ أبريل عام ١٨٧٩ .

المقال كان تحت عنوان « ظلم الفلاح » وهو مقال لم يعثر أحد على نصه وإن تم العثور على بعض شذراته ... جاء فى شذرة من تلك الشذرات :

« ان الفلاح مظلوم فى ماله وتربيته وينبغى عليه أن يعرف هذا الداء ويعرف أن له دواء وهو فى يده لا فى يد قادته فان كان هو صابرا ذليلا جبانا دون حقه كان المولى عليه مطاعا طلابا جريئا عليه بالمغارم وإلا كان الأمر بالعكس » !

وقد نظر المسئولون الى هذا المقال باعتباره حضا للفلاحين على العصيان ، وعبر عن ذلك محافظ الاسكندرية فى تقريره الذى رفعه الى الداخلية فى القاهرة وكان مما جاء فيه وصفا للمقال انه قد ورد به :«عبارة صحيحة بالطعن فى حق الحكومة ونسبتها للتساهل وعدم الاعتناء بحقوق العباد وتجاوز بأن جعل ذلك فى قالب مستهجن لا ينبغى ذكره » !

بناء على ذلك التقرير صدر اخطار رسمى من ادارة المطبوعات بتعطيل الصدى لمدة ١٥ يوما غير أن الأحداث تلاحقت على نحو كاد يودى بالأهرام وصاحبه ، وقد تباينت الروايات حول ماهية تلك الأحداث ..

وفقـا للرواية التى جاءت فى تقرير « مأمـور ضبطيـة سكندرية » ان سليم لم ينفذ القرار رغم ابلاغه به واستمرت الصدى تصدر ولم يذهب لأخذ التعهد اللازم بل بعث «بأخيه الصغير »، ولما أفهمه « مندوب الضبطية » بضرورة تحرير التعهد «حرر تعهدا بقطعة ورق عبارة عن ثمن فرخ ورق بخلاف المقصود ولم يضع اسمه ولا فرمته (يقصد فورمته أو توقيعه) ولا ختمه عليها كالواجب » !

أما رواية خليل مطران فى ترجمته لبشارة تقلا فقد جاءت مختلفة ، قال انه بعد نشر المقال بعث اسماعيل بعض الجنود للقبض على أخيه سليم فلما علم بشارة بذلك أرسل أخاه الى « الوكالة الروسية » وذهب مع الجنود الى سراى عابدين فأمر الخديو بسجنه ثلاثة أيام لم يقابل فيها أحدا .

ونحن نميل الى تصديق الراوية التى جاءت فى تقرير ضبطية اسكندرية لأكثر من سبب ، فهى قد كتبت وقت الحادثة على عكس رواية خليل مطران التى كتبت بعدها بنحو ربع قرن (١٩٠٢) ، فضلا عن أن الترجمة التى وضعها مطران لبشارة تقلا جاءت بمناسبة وفاته بكل ما يحوط بهذه المناسبات من جيشان عاطفى يحيط ويضفى على صاحب الترجمة هالة من البطولات تفتقر الى الكثير من الحقيقة .

المهم أن الرجل بقى فى المجلس لثلاثة أيام لم يتم بعدها الافراج عنه فحسب بل انه حظى بعدها بمقابلة « ولى النعم » أى اسماعيل نفسه ومرة أخرى تتضارب الروايات حول أسباب هذا التطور الدرامى .

بينما تقول رواية من تلك الروايات ان هذا الافراج قد تم بناء على تدخل القنصل الفرنسى تأسيسا على تمتع بشارة تقلا بالحماية الفرنسية فان رواية أخرى تقول انه قد تم بناء على تدخل ولى العهد «البرنس توفيق باشا » الذى كانت تربطه صلة طيبة بسليم الذى وسطه للافراج عن أخيه .

ورغم تضارب الروايتين فانه ليس ثمة ما يمنع من أن يكون الأمر ان قد حدثا ، فتدخل القناصل للدفاع عن أولئك الذين يتمتعون بحمايتهم كان يتم فى أمور أهون من تلك كثيرا ، ولم يكن متوقعا أن يسكت القنصل الفرنسى على ايذاء أى من صاحبى أحد أهم الجرائد المصرية المدافعة عن السياسات الفرنسية فى مواجهة منافستها العتيدة انجلترا ، وفى نفس الوقت فانه كان معلوما أيضا أن البرنس توفيق كان قريبا من قلوب الوطنيين وكثيرا ما اتخذ مواقف الدفاع عنهم .

ولعل الترحيب البالغ الذى قابل به الأهرام تعيين توفيق خديويا على البلاد بعد عزل أبيه فى أعقاب تلك الحادثة بأسابيع قليلة انما كان يعبر عن امتنان الأخوين تقلا من موقفه خلالها مما يرجح صحة تدخله لانهائها ، ووساطته لدى أبيه لاستقبال بشارة .

وقد كتب الأخير عن هذه المقابلة فى الأهرام الصادر فى ١٥ مايو عام ١٨٧٩ يقول: «وقد تنازل سموه للاعراب عن غايته التامة فى انه يود أن تكون الحرية ناشرة لواءها

وان الجرائد تراعى حقوقها وواجباتها بنشر الأخبار الصادقة مع ملىء الحرية وان مجلس النواب سيراعى حرمة الصحف الإخبارية لتنقل عنه الى الأمة أعماله كما أن مجلس الشورى سيفتح لأرباب الجرائد بابا رحبا فيدخلونه ويلتقطون من فرائد فوائده درر المعارف ويقدمونها للرعية » !

وقد حاول بشارة فى هذا المقال أن يعزو ما وقع الى كيد الكائدين وأن من فعلوا به فعلتهم « استندوا إلى أسباب أوهى من نسيج العناكب » على حد تعبيره.

بيد ان الأهم مما جرى لبشارة ما جرى للأهرام ..

اول ما نتج عن هذه الحادثة بالنسبة للأهرام الأسبوعى أن تعطل لأول مرة منذ صدوره فى ٥ أغسطس عام ١٨٧٦ لمدة أسبوعين فلم يصدر العددان اللذان كانا يفترض صدورهما يومى ١ ، ٨ مايو عام ١٨٧٩.

ولم يعد الأهرام الأسبوعى الى الصدور الا بعد أن صدر اخطار رسمى من إدارة المطبوعات الأهلية جاء فيه :

« تقدم فى ١٠ جمادى الأولى ١٢٩٦هـ (أول مايو١٨٧٩) أن أعلناكم ضمنا لزوم توقيف نشر جريدة الأهرام مؤقتا لحين أن تنتهى محاكمتكم بسبب ما توقع وحيث الآن عفى عنكم وصرف النظر عن المحاكمة فلا مانع والحالة هذه من اجراء اعادة نشر الجريدة المذكورة فقط كما كانت »!

وكان معنى ذلك وقف الملحق اليومى للجريدة .. صدى الأهرام مما كان يشكل كارثة حقيقية للدار فقد كانت أغلب دخولها تأتى من الملحق اليومى وليس الجريدة الأسبوعية بحكم انتشاره الأوسع وبحكم الاعلانات التى كانت تحفل به خاصة بعد أن أدرج ضمن الصحف التى يحق لها نشر الاعلانات القضائية بمقتضى تصريح من الحقانية .

من ثم بادر الأخوان تقلا الى مواجهة هذه الكارثة بمحاولة نشر ملحق يومى للأهرام تحت مسمى جديد هو « الوقت » وقد أخذوا يروجون له فى العدد التالى مباشرة .

فقد جاء فى العدد رقم ١٤٦ الصادر فى ٢٢ مايو عام ١٨٧٩ وتحت عنوان «الوقت» ما نصه انها « جريدة يومية تجارية سياسية علمية اختارتها جريدة صدى الأهرام عنها نائبة ولفوائدها كافلة ولأخبارها شاملة ولمحاسنها جامعة » !!

وانتقلت من ذلك لمناشدة « المشتركين الكرام والمطالعين الفخام » بتحية هذه الجريدة واحلالها محل القبول ، ولم تنس فى النهاية العمل على استرضاء السلطات حتى لا يقع على الوقت ما وقع على الصدى فتقول :

« فعلى الوقت فى عدده الأول أن يقوم بوفاء ما عليه لسمو ولى النعم المعظم ولأولى الأمر الكرام أخصهم دولتلو رئيس الوزارة الأفخم » شريف باشا الذى كان قد ألف الوزارة المصرية الثالثة قبل أيام قليلة .

وصدرت « الوقت » على غرار صدى الأهرام .. جريدة « يومية سياسية تجارية » حافلة بالأخبار الداخلية المنوعة خاصة أخبار المحروسة وكان للملحق الوقت بالأهرام هدف اقتصادى محدد وهو أن تستمتع الصحيفة الوليدة بقرار « مجلس الاستئناف» الصادر فى ٦ أبريل ١٨٧٨ بتعيين الأهرام ضمن الصحف التى تقوم بنشر الاعلانات القضائية، والأمر الذى خصص له الملحق الوليد صفحته الأخيرة ، فلم يكن الأهرام يستطيع أن يستغنى فى ملحقه عن تلك الاعلانات .

ومن خلال السماح بعودة اصدار الأهرام بعد اسبوعين من التعطيل وصدور الوقت عبرت صحيفتنا العتيدة أسوأ أزمة واجهتها فى عصر اسماعيل بسبب الاشتغال بالبولوتيكا ، وهى أزمة لم تترك بصمتها على تحرير الصحيفة ، فقد استمرت البولوتيكا عنصرا أساسيا من عناصر ليس فقط صناعة الأهرام بل قبل ذلك وبعده صناعة موقفه والتعبير عن هويته !

بيد أن تلك الأزمة من جانب آخر خلفت أثرا على علاقة الأهرام بولى النعم ، الخديو اسماعيل ، فلم ينس آل تقلا ما كاد يصيبهم على أيدى هذا الحاكم ، حتى أن الأهرام مع ترحيبه البالغ بتولية توفيق فى اعقاب خلع أبيه فإنها لم تبد أسفا يذكر على رحيل الأخير ، ولهذا قصة أخرى.

● **مراجع الفصل الرابع عشر**

رقم العدد	التاريخ
١٢٥	١٨٧٩/٢/٢١
١٢٨	١٨٧٩/٣/١٢
١٤٥	١٨٧٩/٥/١٥

- د. ابراهيم عبده:
جريدة الأهرام - تاريخ مصر فى خمس وسبعين سنة القاهرة ١٩٥١
تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ - ١٩٨١
- خليل مطران: بشارة تقلا ١٨٥٢ - ١٩٠١ القاهرة ١٩٠٢
- رمزى ميخائيل: تطور الخبر فى الصحافة المصرية القاهرة ١٩٨٥
- عبد الرحمن الرافعى: عصر اسماعيل (جزء ٢) القاهرة ١٩٤٨
- كيف عاشت الاهرام بين المطرقة والسندان منذ خمسين سنة الى اليوم
نشر صفحات مطوية ووثائق رسمية لم تذع قبل اليوم مجلة مصر المصورة ١٩٢٦

الحوادث الداخلية

وردت الينا من ادارة المطبوعات الاهلية اخطار رسمي
تتضمن تعطيل صدى الاهرام مدة خمسة عشر يوماً

صورة الاخطار

حيث ان جريدة صدى الاهرام نمرة ٢٠٠ المؤرخة في ١٠ ص سنة ٩٦ قد نشرت بحثاً مخالفاً للاخطار السابق اصداره اقتضى الحال تعطيل الجريدة مدة خمسة عشر يوماً على حسب لقانون المطبوعات

وبناء على ذلك ما يأتي

حضرة صاحب امتياز جريدة الاهرام والصدى

حيث صدر الحكم بتعطيل جريدة صدى الاهرام تعطيلاً موقتاً مدة ١٥ يوماً على مقتضى الاخطار الرسمي المشروح صورته اعلاه فبناء على ذلك قد تحرر هذا اعلاناً لجنابكم ليكون معلوماً في ٢٢ ص سنة ٩٦ مدير المطبوعات الاهلية

لما طالعنا الاخطار المذكور اعلاه الطرف في عدد الصدى المبين منه ان نقف على السبب الذي لم يبينه الاخطار فاخذنا العجب وقلنا ان هنالك سراً وبعد ان كنا استعددنا لبسط انكارنا في هذا الشان وعز الينا بالاغضاء من يجب علينا طاعته فاطعنا ولكن لابد من ان نقول الحقيقة فالحق لا يخفى على ذي عينين وكان بالادارة رات شدة اهتمامنا فرأت ان تكرم علينا بفرصة للراحة فاجرت ما اجرت على ان حضرة المشتركين ولاسيما الذين تهمهم الاخبار التجارية ابوا ان تكون لنا الراحة المذكورة فالتمسوا ان تخرج بدلاً من الصدى ملحقاً بالاهرام يتضمن ما عرفوا وبهذه الوسيلة تم امر الادارة والتمس حضرات المشتركين الذين لا نشك انهم حافظون حقوق جريدة هدفهم من السعي دائماً مدافعة عن المظلوم ونصرة الحق وظهر ناطقة عن الهوى كما يشهد كل ذي صدق وعدل.

واما ما اشارت اليه ونشرته احدى الجرائد العربية في هذا الشان فما لا ينبغي ان نلتفت اليه ولا نحفل بلومنا فان مدحها وذمها سيان ، ولو ذاك ... للقائل ما قلنا لا امراً بها ولا ناهياً ولا ...

وبناء على ما ذكر نرجو حضرة مكاتبينا ان لا ينقطعوا عن اصدار الرسائل المفيدة كالعادة فان الفوز يكون لهم ... والله ولي التوفيق

اخطار رسمي

ورد الينا هذا الاخطار من ادارة المطبوعات فنشرناه كما ورد وهو

لقد صار الاطلاع على الخبر المنشور بجريدة مصر الصادر يوم السبت ٢٢ صفر سنة ٩٦ فوجد فيه بنداً يحتوي على ارسال طابور من عساكر الاسكندرية الى جهة ... وقد ابدى فيه محررها مقترحاً لذلك بدون ... ان حقيقة الامر انه كان هنالك ... من عساكر السواري وعلى مقتضى الترتيبات التي اجريت في نظارة الجهادية الآن ابدلت بعساكر بادة ومن المعلوم ان اشاعة مثل هذا الخبر ما يشوش اذهان العموم بلا اصل ولا يخفى ان من واجبات ارباب صحف الاخبار الوطنية عدم نشر شيء ما يكونون غير متحققين صحته لاسيما ما يبعث على تهييج الافكار مثل النبأ الذي ابدته هذه الصحيفة لزم اصدار الاخطار لهذه الجريدة حتى تنشره في صحيفتها ليعلم صحة الامر



صدى الاهرام

الوقت

الحوادث الداخلية

الصفحة الاولى من احد اعداد «الوقت»

الصفحة الاولى من احد اعداد «صدى الاهرام»

الفصل الخامس عشر

خُلع الخديو.. يحيا الخديو!



■ ■ عندما بكى أفندينا!

■ ■ أول صورة فى الأهرام لـ«توفيق» الأول خديو مصر وعزيزها!

■ ■ فضل اسماعيل فى رأى الأهرام:

«أنه أنجب الخديو الجديد وأسماه «توفيقا»

■ ■ يوم قراءة «الفرمان الباذخ الشأن» فى ميدان القلعة

[١٥]

الخديو اسماعيل كان أول من يخلع من حكام مصر من أبناء أسرة محمد علي، ولعنة الخلع وإن لم تطل أحدا من أبنائه الذين اعتلوا العرش من بعده، توفيق وفؤاد ، فـانهـا طالت حفـيديه اللذين توليـا حكم البلاد، الخديو عـباس حلمى الثـانى الذى خلع غداة اشـتراك تركيـا فى الحرب العالمية الأولى اواخر عام ١٩١٤، والملك فاروق الأول الذى خلع على أيدى ثوار يوليو عام ١٩٥٢.

والحقيقـة التاريخية عن خلع اسماعيل أصبحت شائعة، فهذا الخلع قد حدث بناء على الضغوط التى مارستها الدولتان الاستعماريتان، انجلترا وفرنسا، على الباب العالى الذى خضع لتلك الضغوط وأصدر الفرمان القاضى بعزل باشا مصر.

أصبح شائعا أيضا أن اساعيل راح ضحية اندفاعه للاغتراف من أوربا.. من مظاهر الحضارة وخزائن الأموال، حتى أوقع البلاد فى مأزقها المالى الشهير الذى وصفه بعض المؤرخين الأوربيين بـ «نهب مصر».

أصبح شائعا أخيرا ان محاولة اسماعيل للتملص من القبضة الأوربية، وهى المحاولة التى بدت فى تحريض الضباط على وزارة نوبار وفى توسيع صلاحيات مجلس النواب وفى إطلاق الحريات الصحفية، كانت فوق مـا يطيق ساسة لندن وباريس الذين دبروا لعزل الرجل.

كل هذا وأكثر منه أصبح شائعا ومعروفا تناولته دراسات تاريخية عديدة.. غير أن ما لم تفعله تلك الدراسات هو تتبع قصة خلع الخديو الأشهر وتولية ابنه توفيق، ليس من وثائق وزارات الخارجية وتقارير الممثلين الدبلوماسيين التى تتعامل مع المصالح والسياسات وانما من خلال الوقائع الشخصية، وهى وقائع شديدة الانسانية تفتقر اليها فى أى الأحوال محفوظات الخزائن الحكومية!

نتابع هذه الوقائع من مصدرين.. مؤرخ مصرى معاصر عاش فى خضمها وعاينها وسجل ما عاين، ثم جريدتنا العتيدة «الأهرام» التى قدمت رؤية اتفقت فى أغلب مناحيها مع رؤية المؤرخ المعاصر وان اختلفت فى مناح أخرى، وان كانت الروايتان تتفقان فى ابراز هذا الجانب الانسانى لعزل حاكم مصرى، وبحجم اسماعيل!



المؤرخ المعاصر هو ميخائيل بك شاروبيم والذى يعرفه المؤرخون من خلال كتابه «الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث» والذى قارب عمره من قرن، وقد نشر له منذ أقل من عامين فحسب مخطوط احتفظ به الرجل وقد عنونه بـ «الرقيب أو حوادث مصر الأخيرة لجامعها الفقير الى رحمة ربه الكريم ميخائيل بن شاروبيم عفى عنه آمين!» وقد سجل فى الصفحات الأولى من هذا المخطوط القصة الكاملة لعزل اسماعيل.

وفقا لما جاء فى تلك الرواية تبدأ القصة ببرقية وصلت الى «محمد توفيق باشا»

وليس الى اسماعيل، فى تمام الساعة الرابعة والنصف من عصر يوم الخميس ٢٦ يونية عام ١٨٧٩، كان مما جاء فيها «توجيه الخديوية الجليلة الى عهدتكم» وان على اسماعيل باشا «التخلى عن النظر فى أمور الحكومة» ويطلب الصدر الأعظم الذى بعث بالبرقية من توفيق أن يعلن هذا «التلغراف حال وصوله للعلماء والمأمورين والأعيان وأهل المملكة جميعا وتباشر من بعده أمور الحكومة»!

بالنسبة «للأهرام» والذى كان مازال يصدر حتى ذلك الوقت اسبوعيا فان عدده رقم ١٥١ كان قد صدر فى صباح نفس اليوم الذى وصلت عصره برقية خير الدين باشا وكان عليه أن ينتظر أسبوعا كاملا قبل أن يصدر عدده التالى كانت الأحداث تتدافع خلاله.

فى هذا الاسبوع تمت مبايعة توفيق وكما قال ميخائيل بك «فبايعته الجند ورجال الحكومة والعلماء والرؤساء الروحانيون وأعيان مصر المحروسة فى داره المعروفة بسراى الاسماعيلية فى أبهة وزينة»!

الأهم من ذلك ما جرى يوم الاثنين ٣٠ يونيه، بعد أربعة ايام من وصول برقية الصدر الأعظم حين رحل اسماعيل فى مشهد انسانى مؤثر يسجله صاحب الرقيب فيقول انه فى الساعة الخامسة من عصر ذلك اليوم خرج الخديو المخلوع من سراى عابدين «متوكئا على ابنه توفيق فصعد الى عربة كانت أعدت له وجلس ابنه على يساره، وركب بعدهما الأمراء والأعيان والرؤساء.. وكثير من نساء وجوارى الخديوى المخلوع يصحن ويولولن بما تنفطر من سماعه الأكباد وتذوب لهوله القلوب.. حتى وصل الى محطة السكة الحديد فنزل الخديو توفيق وأخذ بيد أبيه وأنزله وسارا حتى وقفا بجانب القطار وبعد برهة وجيزة جدا تقدم الخديو توفيق لوداع أبيه وعيناه مغرورقتان بالدموع وانكب على يديه يقبلهما فضمه أبوه اليه وقد هاج ذلك المنظر خاطره فهطلت دموعه على لحيته وبكى بكاء مرا» .

كل ذلك حدث ولم يكن موعد صدور العدد ١٥٢ من الأهرام قد حان بعد، فقد كان باقيا عليه ثلاثة أيام، وانقضت الأيام وصدر الأهرام..

★★★

العدد ١٥٢ من الأهرام الصادر فى ٣ يوليو عام ١٨٧٩ كان عددا فريدا، فلأول مرة فى تاريخ الصحيفة الوليدة التى كان قد انقضى من عمرها ثلاث سنوات فحسب تخرج وفى صدر صفحتها الأولى صورة كبيرة لـ «صاحب السمو والمجد توفيق الأول خديو مصر وعزيزها المعظم»، وهو أمر لم يتكرر الا بعد عامين حين خرج أهرام ٤ مايو عام ١٨٨١، وكان قد أصبح يوميا، وعلى صدر صفحته الأولى صورة «للمسيو فردينان دى ليسبس الشهير»!

ورغم أن صورة توفيق كانت سابقة فى تاريخ الصحافة المصرية بيد أن الأهم منها

كان المقال الذى شغل الصفحة الأولى بأكملها وجاء تحت عنوان «مصر وخديويها العزيز توفيق»! وهو المقال الذى يمكن الخروج منه بطبيعة الموقف الذى استقر عليه صاحبا الأهرام خلال الأسبوع الذى مر بين عزل اسماعيل وصدور ذلك العدد.

والواضح أن الأخوين تقلا قد وزعا فيما بينهما الأدوار خلال تلك الأزمة، فبينما كان بشارة فى القاهرة يتابع تطوراتها كان سليم فى الاسكندرية يعد لاصدار هذا العدد الفريد من الأهرام.

وليس من شك ان انقضاء الاسبوع بين عزل اسماعيل، بل ورحيله من مصر كلها بعد أن استقل يخته «المحروسة» من ميناء الاسكندرية مساء يوم الاثنين ٣٠ سبتمبر.. هذا الانقضاء قد أتاح الفرصة للأهرام لتكون أقل انسياقا وراء العواطف التى صنعها الحدث الدرامى ولتكون أكثر تعبيرا عن موقفها دون مداراة!

فلم يخصص الأهرام سوى مساحة محدودة فى إحدى صفحاته الداخلية لوصف رحيل اسماعيل كانت أقل كثيرا من الوصف التفصيلى الذى قدمه ميخائيل بك، وقد بدأ فى هذا التوصيف اقتصاد بشارة تقلا فى التعبير عن عواطفه حيال ما أسماه بالوداع حتى انه وضع نهاية تقريره فى صيغة تساؤل جاء فيه «ماذا أقول لك عن تلك الدقيقة التى ركب بها القطار وجرى فيها التوديع وعن تلك العبرات التى تساقطت؟، ولم يجب أبدا عن السؤال!

نعود بعد ذلك للصفحة الأولى والمقال الرئيسى حول تولى الخديو الجديد، فلم ينس الأهرام وهو يستعرض الظروف التى ادت الى خلع اسماعيل الاشارة الى أن الحوادث «أفضت بنا الى ما أفضت وقابلنا شهر جونيو (يونيو) بأسبابه» وهو يقصد هنا ما تعرض له بشارة من حبس وما كادت تتعرض له الجريدة من اغلاق على أيدى اسماعيل.

كان من الطبيعى بعد هذا أن يعرض بالخديو المخلوع فى أكثر من موقع.. مرة وهو يقول «ساعد الاستبداد على ازدياد التأخر» ومرة أخرى وهو يعترف ان اسماعيل قد أتى «مما لا ينكر عليه الدهر فى المستقبل فضلا» ولكنه يتبع ذلك بأن ينعى على اسماعيل التضارب فى أعماله بالقول «كما لا ينكر عليه مباينة بعض الاعمال ضربا وشكلا»!

ومما يدفع الى الابتسام فى هذا الموقف المأسوى أن الأهرام لم يجد ما يمدح اسماعيل من أجله سوى أنه أنجب الخديو الجديد وأسماه توفيقا (!) أو كما قال بالحرف الواحد انه «قد أوحى منذ سبع وعشرين سنة الى جناب الخديو اسماعيل أن لا يسمى بكر بنيه الا توفيقا، وقد كان، وليس من أمل لفتح باب العصر الجديد لهذا القطر السعيد الا بمفتاحه وهو فى يد توفيق»!

ولم يدار الأهرام السبب وراء حماسه للخديوى الشاب فيما جاء فى نفس المقال من

القـول.. «نعم نعم هو ذاك الأمـيـر الذى لم يتـأخـر أهرامنا وصـدى أهرامنا ووقـتنا (الصحف التى أصدرها الأهرام) عن ابانة مناقبه وارتياحه الى راحة الفلاح ولعلك لا تنسى أيها المطالع عن مثل ذلك تنويها» (!) وهو يشـيـر بذلك الى مـوقف توفـيق المساند له خلال أزمة يونيو والتى تفجرت بسبب مقال نشره الأهرام عن أحوال الفلاح.

وقد تبدى هذا الحماس فى التغنى بمناقب توفيق الذى يعرف من اللغات «العربية والتركية والفارسية والفرنسوية والانكليزية ونصيب من الايتالية» (!) وانه زار أوربا «مرارا بدلا من مرة وزار عواصمها كلها واطلع على كل امر ونقب فى كل عمل».

اما عن خبرته بالسياسة فقد ادرك خباياها «فضلا عن ظواهرها.. وولى مدة بعد مدة امـرها برعـايتـه اهم النظارات ورئاستـه على الوزارة ومـراقـبـتـه حـركـات الاعـمـال وسكناتها»!

ومع ان كل ذلك مما يمكن ان يؤخذ على الاهرام على اعـتـبـار انه قـد اولى لعـواطف الثار من اسماعيل الاولوية فى صناعة موقفه من الرجل بعد سقوطه من موقع القوة، فان ذلك لا ينفى أن روحا من الاستبشار قد سادت صفوف العاملين فى ميدان السياسة بسقوط الرجل وتولى توفيق، فضلا عن ذلك فانه قد خلط بين حماسه الظاهر للخديوى الجديد وبين ما تصوره ان ولايته انما سوف تحقق مصالح مصر.

تبدّى هذا الحـمـاس فى قـوله فى مـوقع: «هذا هو توفـيـقك يامـصـر يخـاطبك قـائلا [يامـصر بلادى جرى ذيـل الفخـر تيـها ودلالا]، ويـقـول فى مـوقع آخر «وهذه مـصـرك ياتوفيق تنشدك الاخلاص».

وقبل ان ينهى الاهرام هذا المقال الهام لم ينس ان يختمه بما اسماه دعاء متواصلا قال فيه «فليحيي توفيق الأول خديو مصر المعظم» ولم يكن قد مضى على رحيل اسماعيل اكثر من يومين ونصف!

★★★

خلال الاسابيع التـاليـة خصص الاهرام جانبا من صفحاته للكشف عن بعض اسرار عزل الخديوى السابق، وفى استمرار التغنى بمزايا الخديو الجديد.

الاسـرار نقلهـا الاهرام عن بعض وثائق وزارة الخارجـيـة البـريطانيـة التى نشـرت عن الازمة والمعروفة بالكتب الزرقاء، فقد كشف العدد الصادر فى٢٤ يونية وجاءت فيـه الدعـوة للتنازل عن العـرش للبرنس تـوفـيق، وانه لو اسـتـجاب لهذا الانذار فـانه سوف «يكفل لنفسه راتبا كـافيا ويضـمن لعـائلته حق الوراثة»، وهو انذار قـريب للانذار الذى قدمته القوى الأوربية لمحمد على خلال ازمة عام ١٨٤٠.

أما التغنى فلم يكن من وضع الاهرام هذه المرة انما كـان نقلا عن الصـحف الاوربيـة، ويكفى فى هذا الصـدد ان ننقل ترجـمـة آل تقـلا لمطلع مـقـال طويل نشـرته جـريدة «الجوكي» الفرنسية.. جاء فيها:

«لم تطأ الأريكة الخديوية قبل اليوم قدم ملك محبوب مثل سمو الخديو الشاب توفيق ذى الوجه الصبوح ولم يخفق قلب ضمن الملابس العثمانية اشرف من قلبه واكثر استقامة منه».

ويتضح ليس من اختيار المقالات فقط وانما ايضا من طبيعة الترجمة الانحياز الكامل من جانب الاهرام، وهو انحياز لم ينكره اصحاب الجريدة على اى الأحوال!

★★★

البرقيات وحدها لا تكفى لتنصيب الحكام، وبالتالى فان برقية ٢٦ يونيو بخلع اسماعيل وتولية توفيق كان ضروريا ان يتبعها اصدار الفرمان السلطانى بتولية الحاكم الجديد، الامر الذى يستكمل معه توفيق بقية اسباب الشرعية، وهو الامر الذى استغرق نحو شهرين.

كان مطلوبا اعداد الفرمان الذى اعتاد الباب العالى ان يبعث به مع «باشكاتب المابين» أى أمين الديوان السلطاني، على بك فواد، الذى وصل الى الاسكندرية يوم ١٦ اغسطس على متن احدى البواخر السلطانية ونزل فى سراى راس التين، وتوجه فى اليوم التالى الى القاهرة حيث نزل بقصر النزهة بشبرا.

وفى المحروسة بدأ الاعداد لاحتفال «بتلاوة الفرمان العالى الشأن»، وكان مراسل الاهرام موجودا يرصد ويكتب ويبعث الى مقره فى الاسكندرية ليقدم للتاريخ وصفا ممتعا لهذا للاحتفال الذى كان فى حقيقته احتفالا بتتويج الحاكم الجديد!

يقدم الاهرام فى عدده الصادر فى٢١ اغسطس وصفا لاحتفال تتويج الخديو توفيق ويلقى فى هذا الوصف الاضواء على مراسم ذلك الحفل..

أول ما يلاحظ فى تلك المراسم انه رغم انتقال مقر الحاكم المصرى من القلعة الى عابدين فان الاحتفال تقرر اجراؤه فى نفس البقعة التى كان يقام فيها منذ ان وقعت البلاد تحت الحكم العثمانى قبل ما يقرب من اربعة قرون.. فى ميدان القلعة.

وفى الساعة الثامنة من صبيحة يوم الاحتفال وبعد ان اكتظت الساحة بالحضور دخلت المركبة التى كان يستقلها الخديو من جانب بينما اتت المركبة التى كان فى داخلها حامل «الفرمان العالى الشأن سعادتلو على بك فؤاد» من الجانب الآخر، ونترك بقية القصة يرويها بشارة بك تقلا الذى كان حاضرا الاحتفال.. قال:

«بعد الانتظام واستقرار المقام تقدم عطوفتلو على بك وقدم الفرمان السامى لسمو الخديو المعظم فقبله بالاجلال ودفعه الى سعادتلو طلعت باشا فتلاه بالاكرام وبعد الفراغ تلا حضرة شيخ جامع القلعة خطابا ضمنه الدعاء بحفظ الحضرة السلطانية والجناب الخديوى ثم اطلقت المدافع مائة مرة ومرة وجرت التشريفات من العلماء الاعلام يتقدمهم حضرات الموالى الكرام شيخ الاسلام والسيد البكرى وكبار العلماء والمشايخ والموظفين والذوات والقناصل ورؤساء الملل وغيرهم».

وتضمن تقرير الاهرام الاشارة الى دور اعضاء السلك الديبلوماسي الاجنبى فى الاحتفال، فقد تقدم عميد هذا السلك، المسيو دى مارتينو قنصل عام ايطاليا، والقى خطبة باسم الدول صاحبة التمثيل فى العاصمة المصرية.

ومثل هذا التقليد انما كان يحمل بين ما يحمل التأكيد على الدور الدولى فى العلاقات بين مصر والدولة العثمانية، وهو الدور الذى تقرر منذ عقد معاهدة لندن عام ١٨٤٠.

★★★

يبقى بعد كل ذلك ما تضمنه فرمان تولية توفيق أو ما أسماه الاهرام «الفرمان الباذخ الشأن»، وله اهمية خاصة فى تاريخ العلاقات بين القاهرة واستنبول.

فمصر التى اكتسبت وضعا خاصا داخل الدولة العثمانية احرزته فى ميدان القتال خلال ثلاثينات القرن وتقرر فى فرمان ١٣ فبراير عام ١٨٤١، قد تمكنت فى عصر اسماعيل ومن خلال الفرمان المعروف بالفرمان الشامل عام ١٨٧٣ من اضفاء المزيد من اسباب الاستقلال على هذا الوضع وهو الفرمان الذى حصل عليه اسماعيل بوسائل عديدة ليس منها محاربة الدولة.

وقد اخذت المخاوف بتلابيب المصريين بعد الاخبار بخلع اسماعيل من ان تنتهز الدولة العثمانية الفرصة لتسحب الصلاحيات الاستقلالية التى تمكن هذا الخديو من الحصول عليها لبلاده.

عبر عن تلك المخاوف ميخائيل بك شاروبيم عندما اشار الى القلق الذى أخذ يسرى فى نفوس المصريين بعد تأخر وصول الفرمان، فكما سبقت الاشارة كان قد انقضى نحو ستون يوما بين وصول البرقية بخلع اسماعيل وتولية توفيق وبين وصول حامل الفرمان، وهى مدة احتسبها المصريون دهرا طويلا!.

غير ان تلك المخاوف تبددت بعد ان فض طلعت باشا الفرمان وتلاه على الحضور، فقد لاحظ هؤلاء ان الباب العالى لم يتنصل من أى من التعهدات التى قطعها على نفسه عام ١٨٧٣.

اعترف السلطان بما جاء فى الفرمان بتوجيه الخديوية المصرية الى اكبر الابناء «وحيث انكم اكبر ابناء الباشا المشار اليه - اسماعيل - فقد وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية».

اعترف ايضا بالصلاحيات التى حصل عليها الحاكم المصرى والتى اسماها الفرمان «بالامتيازات الحائزة لها الخديوية المصرية» فيما يخص الاذن لخديوى مصر «بوضع النظامات اللازمة الداخلية المتعلقة بهم.. وايضا يكون خديو مصر مأذونا بعقد المشارطات مع مامورى - ممثلى - الدول الاجنبية فى خصوص الكمرك والتجارة وكافة امور المملكة الداخلية».

اعترف اخيرا لمصر «بالحدود القديمة المعلومة»، والاهم من ذلك «الأراضى المنضمة اليها المعطاة الى ادارة مصر»، وتبدو اهمية هذه الاضافة من ان عصر اسماعيل قد شهد ضم مساحات واسعة من الاراضي، خاصة فى الجنوب.. دارفور فى غرب السودان، والمناطق الاستوائية فى جنوبه والتى وصلت الى حدود أوغندة، ومناطق واسعة من سواحل البحر الاحمر فى اريتريا والصومال.. كل تلك الاراضى اعترف «الفرمان العالى الشأن» بأنها اصبحت جزءا من مصر، وهو اعتراف له اهميته القانونية.

على الجانب الآخر فقد اقر الفرمان بقية القواعد التى حكمت العلاقات بين الطرفين منذ عالم ١٨٤١ خاصة تلك المتصلة بتحديد عدد رجال الجيش المصريب ١٨ الف رجل، وهو التحديد الذيل لم يلتزم به توفيق!

فبينما كان اسماعيل يتحايل لزيادة القوات المصرية عن ذلك العدد فان ابنه وتحت ضغوط تفاقم الديون الاجنبية وممثلى الدول عليه قد اخذ بسياسة التوفير التى طالت رجال الجيش المصرى الامر الذى ادى الى تصاعد الاحتجاجات بين هؤلاء الرجال والتى وصلت اخيرا الى حركة عامة هى التى عرفت بالثورة العرابية، ولها قصة مع الأهرام!.

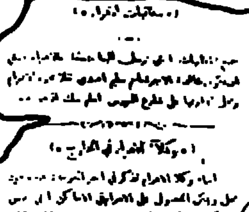
مراجع الفصل الخامس عشر

اعداد الأهرام

رقم العدد	التاريخ
١٥١	١٨٧٩/٦/٢٦
١٥٢	١٨٧٩/٧/٣
١٥٣	١٨٧٩/٧/١٠
١٥٥	١٨٧٩/٧/٢٤
١٥٧	١٨٧٩/٨/٧
١٥٩	١٩٧٨/٨/٢١

المراجع:

- د. حمد عبدالرحيم مصطفى: مصر والمسألة المصرية ١٨٧٦ - ١٨٨٢ ، القاهرة ١٩٦٥
- جون مارلو: تاريخ النهب الاستعمارى لمصر (ترجمة د. عبدالعظيم رمضان) القاهرة
- ميخائيل شاروبيم: الرقيب او حوادث مصر الاخيرة تحقيق د. يونان لبيب رزق ، القاهرة ١٩٩٢



الأهرام

صاحب السمو والجلالة

توفيق الأول

خديو مصر وحاميها المعظم

الاسكندرية في ٢ تموز (يوليو) سنة ١٨٧٦

مصر وخديويها العزيز

«توفيق»

[illegible]

تلغراف من باريس

[illegible]

الفرمان الجليل العالي الشأن

[illegible]

[illegible]

حرر في تاسع عشر شهر شعبان المعظم سنة ١٢٨٦

من قبل صاحب العز والشرف

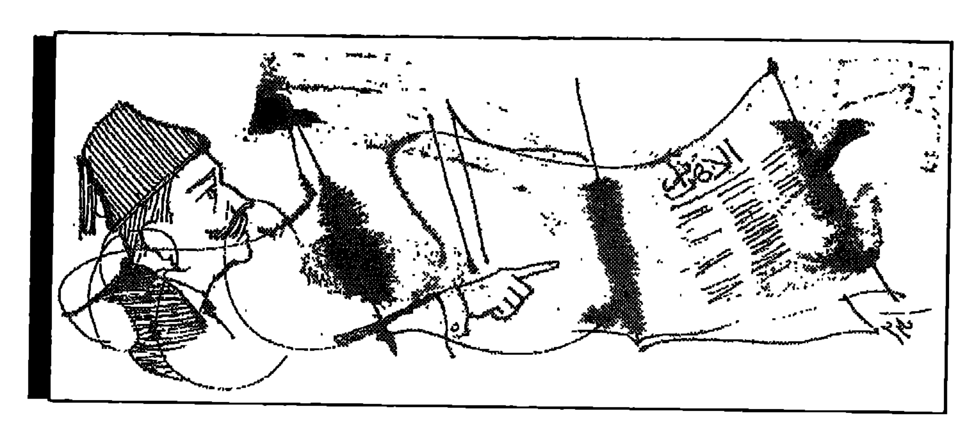
الاحتفال بجلاء الفرمان العالي الشأن

ذكرنا في الاهرام السالفة [illegible] الفرمان [illegible]

[illegible]

الفصل السادس عشر

لغز العدد ١٠٠٣ !



■ ■ الأهرام فى الأرياف الخديوية والممالك المحروسة وأوروبا وبومباى

■ ■ الأهرام يصدر جريدة يومية للمصريين فقط

■ ■ الأهرام يوميا بعد شهرين فقط من صدوره

■ ■ أصحاب الاهرام:

أننا فى قطر سعيد ينطق بلغتنا العربية الشريفة

فيه نيف وخمسة ملايين !

في يوم الخميس ٣٠ ديسمبر عام ١٨٨٠م الموافق ٢٨ محرم عام ١٢٩٨ إنتهى الصدور الأسبوعى للأهرام الذى بدأه فى ٥ أغسطس عام ١٨٧٦ أى قبل ٢٣٢ أسبوعا بالضبط احتجب خلالها مرتين نتيجة لأزمة مايو ١٨٧٩ فكان آخر أعداده الأسبوعية هو العدد رقم ٢٣٠.

وفى يوم الاثنين ٣ يناير عام ١٨٨١ أى بعد انتهاء الصدور الأسبوعى صدر العدد الأول من الأهرام اليومى وكان من المتوقع إما أن يبدأ بترقيم جديد أو يستكمل ترقيمه فيظهر العدد رقم ٢٣١ ، ولكن ما حدث كان مفاجأة فقد ظهر هذا العدد تحت رقم ١٠٠٣ مما أصبح يشكل لغزا فى تاريخ الجريدة العتيدة !

اقتضت محاولة البحث عن حل لهذا اللغز، فضلا عن البحث فى المصادر المتاحة، البحث فى اصدارات الأهرام الأخرى حتى أمكن أخيرا التوصل للحل !

فالمعلوم أنه بعد نحو شهرين من صدور الأهرام الأسبوعى أصدر الأخوان تقلا جريدة يومية تحت اسم « صدى الأهرام » وذلك فى أوائل اكتوبر عام ١٨٧٦ ، ويسجل مؤرخو الصحافة انها كانت أول جريدة يومية فى مصر .

ونتيجة لأنه لم يتم الاحتفاظ بأعداد تلك الجريدة فى أى من دور الحفظ فى مصر بما فيها دار الأهرام ذاته فان ماعثر عليه الباحثون كان قليلا ،ومتفرقا فى بعض المكتبات الخاصة ، ولم يكن منها على أى الأحوال العدد الأول ، الذى نعتقد أن صاحبى الأهرام ، حسبما تعودا فى سائر الصحف التى قاما على اصدارها، قد أثبتا فيه الدوافع التى دفعتهما الى اصدار أول صحيفة يومية .

كل ما تم العثور عليه بشأن صدور « الصدى » التنويهات المتناثرة التى جاءت عنه فى بعض أعداد الأهرام ، فضلا عن بعض الأعداد المتفرقة من الصحيفة، وهى فى تقديرنا كافية لتفسير السبب ..

يكشف هذا السبب ما كان يجىء فى رأس الصفحة الأولى من الأهرام ومقابله فى الصدى.

فقد حدد الأهرام قيمة اشتراكه فى صدر الصفحة الأولى مما تضمن طبيعة الأسواق التى ينوى غزوها وكانت فضلا عن « مصر وسائر الأرياف الخديوية » أي القاهرة وبقية القطر المصرى ، الأستانة العلية ، سورية وسائر الممالك المحروسة ، أى أملاك الدولة العثمانية ، أوربا والجزائر وتونس وأخيرا بمباى وكلكته .. أى أن الأهرام صار دوليا بمقاييس العصر .

اختلف الأمر بالنسبة للصدى الذى حدد طبيعة الأسواق التى ينوى التواجد بها ، وقد اقتصرت على « الأسكندرية والمحروسة (القاهرة) وساير الأرياف » ، أى انها كانت صحيفة محلية قابلة للتوزيع فى مصر فحسب .

حقيقة أخرى يشير اليها ما جاء فى رأس كل من الأهرام والصدى ، وهى أنه بينما أدرج الأهرام قيمة الاشتراك الخاص به فحسب ، فان الصدى طرح خيارين أمام المشتركين ، إما الاشتراك فيه فقط ، وإما الاشتراك فيه هو والأهرام بما يحمله ذلك من دلالة ..

الدلالة فى تقديرنا أن قارىء الخارج ليس أمامه الا الأهرام أما القارىء المصرى فأمامه : إما الأهرام وإما الصدى وإما كليهما !

وهذه الدلالة تبدو حاسمة بحكم أن سوق الصحيفة وقتئذ كان يحكمه المشتركون ، فلم تكن الصحافة بعد قد عرفت متعهدى البيع أو الأكشاك المنتشرة فى كل مكان.

تفصح رؤوس صحف ذلك العصر عن تلك الحقيقة فى انها عندما تحدد ثمن البيع فهى تحدد بالنسبة للاشتراك سواء لسنة أو لسته شهور ، وليس بالنسبة للنسخة .

انعكس ذلك على طبيعة عمل وكلاء الصحف والتى جمعت بين تحصيل الاشتراكات وتوصيل الصحيفة للمشتركين ، وبين القيام بدور المندوب الإخبارى فى البلدة التى يقيم بها، بمعنى آخر أن معرفة الأماكن التى ينتشر فيها هؤلاء الوكلاء تحدد البلاد التى توزع فيها الجريدة .

وبملاحظة أن وكلاء الأهرام فى مصر قد انتشروا فى مدن الوجه البحرى :الاسماعلية ، المحلة الكبيرة ، المنصورة ، طنطا، كفر الزيات ، سمنود ،رشيد ، زفتى وميت غمر ، محلة أبى على وبورسعيد ، فان ذلك يعنى أن سوق الصدى قد اقتصر على تلك البلاد .. فى البداية على الأقل !

وتتعدد الأسباب فى رأينا التى دعت صاحبى الأهرام فى بداية عهده إلى عدم المجازفة باصداره يوميا وإلى إصدار عدد إسبوعى للخارج ولمصر ، وإصدار طبعة يومية للأخيرة هى تلك التى أسماها بالصدى .

السبب الأول: أن آل تقلا رغم إصدارهم لجريدتهم من مصر فإن عينهم قد استمرت ترنو ، وبقوة ، للسوق الشامية ، فالحبل السرى لم يكن قد انقطع بعد ، ولعلهم نظروا وقتئذ لمصر باعتبارها مكانا آمنا لإصدار صحيفتهم أكثر منها سوقا لانتشارها .

الثانى : فرض عليهم ذلك إصدار الأهرام فى أول عهده أسبوعيا ، سواء لأن الصحافة العربية لم تكن قد عرفت حتى ذلك الوقت الصحف اليومية ، وإن كان الأهم من ذلك صعوبة أن تصل الصحيفة اليومية إلى الأسواق الشامية فى وقت مناسب لتكون يومية (!) ، فان هذا النوع من الصحف عندما يصل بعد بضعة أيام يكون قد فقد الجانب الأكبر من أهميته ، ولم يكن متاحا فى ذلك الوقت أن تصل جريدة من قطر إلى آخر فى يومين أو حتى ثلاثة .

ولعل ذلك الذى دفع الأهرام فى أول عهده أن يقصر وكلاءه ، وبالتالى مشتركيه،

وبتعبير آخر قراءه .. يقصرهم على الوجه البحرى فان الوصول إلى الصعيد وقتئذ كان فيما يبدو يقتضى وقتا طويلاً .

الثالث : أن قاعدة القراء التى رأى الأهرام أن يعتمد عليها فى توزيع عدده اليومى كانت من « تجار الأرياف والمشايخ والعمد » ممن إرتآهم قادرين وراغبين فى الاشتراك فى صحيفة يومية يدفع فى مقابلها مع العدد الأسبوعى ٥٥ فرنكا، بينما لو رغب في الاشتراك في العدد الاسبوعي فقط فلم يكن ليدفع أكثر من ٢٥ فرنكا .

من ثم لم يكن أمام صاحبى الأهرام الا إعارة عناية خاصة بما يهم هؤلاء فى العدد اليومى الذى صدر تحت اسم الصدى اختلف معها عن العدد الأسبوعى .

وقد لاحظ الباحثون ممن قارنوا بين الأهرام وصداه أنه بينما غلب على تحرير الأول الطابع العام فانه غلب على تحرير الثانى الطابع المحلى....

فبينما رصد هؤلاء فى الأهرام غلبة التعليق السياسى وأقوال الصحف الأجنبية التى يليها الأخبار الخارجية فالداخلية فالاعلانات ، لاحظوا بالنسبة « للصدى » أنها قد وجهت جل عنايتها للمقال والاعلان ، وهو ما أقرت به فى رأسها بقولها أنها « جريدة يومية للتجارة والحوادث البرقية والاعلانات » وقد احتلت أخبار الاقتصاد المساحة الأكبر من الأخبار الداخلية والخارجية .

ويمكن تفسير ذلك بهذا الاتجاه المتسارع بنمو الرأسمالية الزراعية المصرية التى ارتبطت بالانتاج الواسع للقطن خلال عقدي الستينات والسبعينات ، وحاجة أبناء هذه الطبقة الجديدة للإطلاع أولا بأول علي حركة الأسعار وهو ما عني به الصدى الذى خصص بابا يومياً تحت عنوان « حركة بورس (بورصة) الأسكندرية » ومن هؤلاء جاء أغلب المشتركين فى الجريدة اليومية .

الأهم من ذلك محاولة تحديد طبيعة العلاقة بين الأهرام وصداه ، وتنشأ هنا اختلافات بينة ، فالرأى السائد حتى الأن أن الصدى جريدة ضمن الجرائد التى صدرت عن الأهرام ...

قال بذلك الرأى الدكتور إبراهيم عبده فى كتابه المعروف « جريدة الأهرام - تاريخ مصر فى خمس وسبعين سنة » ثم حذا حذوه الباحثون ، ولعل الأخذ بهذا القول هو الذى صنع اللغز .. لغز العدد ١٠٠٣ .

★★★

من المعلوم أن الأزمة التى واجهها الأهرام مع إسماعيل فى ربيع عام ١٨٧٩ قد راح ضحيتها الصدى ، ومعلوم أيضا أن القائمين على الأهرام قد أصدروا جريدة يومية جديدة بعد أيام قليلة من وقف الصدى هى « الوقت » ،ومع ذلك الحدث والعثور على العدد الأخير من الصدى الصادر فى أول مايو عام ١٨٧٩ والعدد الأول من الوقت

الصادر فى ١٦ من نفس الشهر بدأت بشائر حل اللغز .

بعض الباحثين اعتبروا أن « الوقت » صحيفة جديدة أصدرها الأهرام عوضا عن «الصدى» . غير أن أصحاب الأهرام لم يقولوا بذلك مما يبدو فى أكثر من حقيقة ..

فهناك اولا ما كتبه الأهرام وهو يبلغ قراءه بصدور الوقت فيقول بالحرف الواحد أنها جريدة « اختارتها جريدة صدى الأهرام عنها نائبة ولفوائدها كافلة ولأخبارها شاملة ولمحاسنها جامعة » ، بمعنى آخر يريد الأهرام القول انه يعيد اصدار الصدى ولكن باسم مختلف !

وهناك ثانيا ذلك التشابة فى التنظيم بين الصدى والوقت ، وهو تشابه وصل فى بعض الأوقات الى درجة التطابق ، وإذا كان هناك اختلاف فى شيء فهو الاختلاف فى الموقف من الخديو اسماعيل ، فقد بالغت الوقت فى مديح الرجل على الأقل فى الفترة القصيرة المنقضية بين ظهورها وبين خلعه ، وهو عكس ماكان يفعله الصدى .

وهناك أخيرا تلك القرينة التى لاتدحض ، فانه مع ايقاف « الصدى » وكان عددها الأخير تحت رقم ٦١٧ فان « الوقت » قد صدرت وعددها الأول تحت رقم ٦١٨ .

وقد قادت هذه السابقة الى محاولة البحث فى لغز صدور العدد الأول من الأهرام اليومى تحت رقم ١٠٠٣ بنفس المنطق ، منطق البحث فى رقم العدد الأخير من جريدة الوقت ووجد أنه كان فعلا تحت رقم ١٠٠٢ !

بيد ان حل هذا اللغز اثار مشكلة على جانب كبير من الأهمية فى تاريخ الأهرام ، تلكم هى مشكلة العلاقة بين الجريدة الأم ، الأهرام ، وبين الجريدتين اليوميتين ، الصدى والوقت !

فأغلب الدراسات الصحفية التى صدرت عن تاريخ الصحافة عموما أو تاريخ الأهرام على وجه الخصوص قد نظرت للصدى والوقت باعتبارها صحفا صدرت عن الأهرام وليستا الأهرام نفسه ، وقد ترتب على تلك النظرة أن ميز هؤلاء بين حقبتين للأهرام ، حقبة الأهرام الأسبوعى التى بدأت من ٥ أغسطس عام ١٨٧٦ واستمرت لما يقرب من أربع سنوات ونصف حين صدر عدده الأخير فى ٣٠ دسمبر عام ١٨٨٠ ، وحقبة الأهرام اليومى التي بدأت من ٣ يناير عام ١٨٨١ ومستمرة حتى يومنا هذا وإلى ماشاء الله!

على ضوء استنطاق الأدلة التى بين ايدينا نقدم هنا طرحا مختلفا وهو آن حقبة الأهرام الأسبوعى لم تستمر سوى مايزيد قليلا عن شهرين ، وإلى أن صدر الصدى فى ١٠ أكتوبر عام ١٨٧٦ ، على ارجح الاحتمالات ، لأنه كان الطبعة اليومية من الأهرام وهو ما لانقول به من فراغ ..



لقد نظر آل تقلا الى الصدى والوقت باعتبارهما « الأهرام اليومى » ، أو على الأقل

رأيا ان العلاقة بينهما وبين الأهرام علاقة عضوية مما يمكن الخروج به من عديد من المؤشرات .

(١) الامتناع عن الصدور في اليوم الذى يصدر فيه الأهرام الاسبوعى وهو امتناع تغير ميعاده بتغير يوم الصدور الذى بدأ بالسبت ثم تحول الى الجمعة واستقر أخيرا على الخميس ، وهذا الامتناع كما حدث بالنسبة للصدى فقد حدث بالنسبة للوقت .

(٢) الحرص فى تسمية الجريدتين اليوميتين على التأكيد على التبعية للأهرام .. فى الأولى كان الاسم صدى « الأهرام » ، وفى الثانية جاء الاسم الوقت بخط كبير وتحتها بخط اصغر قليلا « لجريدة الأهرام » !

(٣) خلال أزمة ١٨٧٦ حين دعا مندوب ضبطية الاسكندرية سليم تقلا لتحذيره من بعض مخالفاته فان مخالفة من تلك التى إرتآها أنه قد اصدر « تلحيقا » للأهرام وهو « الصدى » بدون ترخيص ، وهذه الحادثة مع دلالتها من أن صاحب الأهرام لم ير فى الصدى جريدة جديدة ، فان رضاء السلطات باستمرارها بعد ذلك دون الحصول على الترخيص انما يعنى قبولها بوجهة نظر الرجل !

(٤) سواء فى الصدى أو فى الوقت كان يثبت على كل الأعداد فى الرأس عبارة «وكلاء الصدى هم وكلاء الأهرام» بالنسبة للأولى و«وكلاء الوقت هم وكلاء الأهرام» بالنسبة للثانية.

اهم مما كان يجيىء على رأس الصحيفتين اليوميتين ما نشره الوقت فى عدده الصادر يوم ٧ أغسطس عام ١٨٨٠ من اتجاه النية الى تعيين « وكلاء عموميين يتجولون من جهة الى أخرى فى الريف ليستطلعوا الحوادث والأخبار على حقيقتها » قد جاء تحت عنوان « إعلان من الأهرام والوقت » !

(٥) لما كانت الاعلانات القضائية تمثل المصدر الأساسى من دخل الاعلانات فى صحف ذلك العصر ، وكان التصريح بنشر مثل تلك الاعلانات يقتضى قرارا من «مجلس الاستئناف» ، وهو ما حصل عليه الأهرام بعد صدوره بأقل من عامين ، فى ٨ أبريل عام ١٨٧٨ فأنه حرص على أن تنصرف آثار ذلك القرار على جريدته اليومية، الصدى أو الوقت .. الأول فور الحصول على التصريح والذى وضع على رأسه عبارة « فى ٦ أبريل سنة ١٨٧٨ قرر مجلس الاستئناف تعيين الأهرام (وصداه) لنشر الاعلانات القضائية » ، والثانى حال صدوره .

(٦) تعاملت السلطات مع الصحيفة اليومية للأهرام من منطلق أنها جزء منها مما تبدى خلال أزمة ربيع عام ١٨٧٩ ، فالمعلوم أن المقال الذى أثار اسماعيل عن الفلاح تم نشره فى الصدى وليس فى الأهرام ولكنه عندما اصدر أوامره بالاغلاق فقد أصابت تلك الأوامر الأهرام وصداه .

صحيح أن الأول قد تمكن من النجاة بعد تعطيله لأسبوعين والثانى قتلته الأزمة ، إلا

أن ذلك لايعنى أنهما كانا جريدتين بقدر ما يعنى أن الجزاء وقع على الأهرام اليومى الذى كان يصدر باسم الصدى بحكم عنايته الشديدة بالأحوال الداخلية والتى صدر المقال فى اطارها ونجا منه الأهرام الأسبوعى الذى لم يكن متورطا في تلك الأمور بنفس القدر !

★★★

بالأخذ بهذا الطرح .. طرح أن الأهرام قد صدر يوميا بعد شهرين فحسب من صدوره ، فان القضية تتحول الي البحث عن الأسباب التى أدت إلى تخليه عن تلك الصيغة التى ارتضاها لأكثر من اربع سنوات .. من صيغة أن يصدر اسبوعيا مع تلحيق يومى إلى ضم هذا التلحيق ليصدر يوميا ، ويؤكد على طبيعة الضم بصدور أول أعداد الأهرام فى ثوبه اليومى بالرقم التالى لآخر أعداد الوقت ، وتقدم الأهرام نفسه شارحا تلك الأسباب ..

ففى عدد « الوقت » الأخير الصادر يوم ٢٨ ديسمبر عام ١٨٨٠ ودع قراءه «سائلا اياهم الأغضاء عما كان من القصور وسائلا لهم صفاء العيش وطول البقاء» وذلك فى نهاية مقال طويل شرح فيه اسباب اندماجه فى الأهرام الذى سيصدر يوميا .

بعد ذلك بيومين صدر العدد الأخير من الأهرام الاسبوعى وقد سجل فى صفحته الرابعة نفس مقال الوقت وإن كان دون وداع ..

ومن هذا المقال المنشور مرتين ، والذى وضعه احد الأخوين تقلا شرحت الصحيفة الأسباب التى دفعتها الى دمج لسانيها ليصبحا لسانا واحدا يوميا ..

اتساع قاعدة القراء كان اول تلك الأسباب وهو ماعبر عنه المقال بقوله ان « اقدام المشتركين واقبالهم على مطالعة جرائدنا وازدياد عددهم يوما عن آخر مما أحيا عندنا الهمة والجد .. والاتيان بمطلق ما يبعث على مسرة حضرات المشتركين ويغتنم مرضاتهم وميلهم » ولا مراء ان هذا الاتساع قد دفع الطمأنينة الى قلوب اصحاب الأهرام وأزال كثيرا من أسباب التوجس التى دفعتهم أولا الى اصدار الأهرام اليومى على هذا النحو .. نحو التلحيق !

وكان هذا التوجس مبررا من خلال التجربة التى خاضها سليم تقلا مع شروعه فى اصدار الصدى ، وهى القصة التى رواها جرجى زيدان فى كتابه « مشاهير الشرق » لدى ترجمته للرجل ..

فقد جرت عادة سليم لدى الشروع في اخراج احدى صحفة ان يصدر اولا العدد زيرو والذى كان يسميه « المثال » ويبعث به لوكلائه فى الأقاليم للتوزيع على من يتوسمون فيهم الرغبة فى الاشتراك ، وعندما فعل ذلك بالنسبة للصدى وطبع اربعة آلاف نسخة لم يقبلها سوى بضع عشرات ورجعت اليه بقية النسخ ، بيد أنه مع مرور الأيام تبين له أن هذا التوجس لم يعد له مايبرره .

سبب آخر ماتبينه الاخوان تقلا خلال فترة الأربع سنوات ونصف من أن سوقهم الحقيقية في مصر وليس في خارجها ، وهو ماعبروا عنه نفس المقال الذى جاء فيه : «اننا فى قطر سعيد ينطق بلغتنا العربية الشريفة فيه نيف وخمسة ملايين كان لنا أن نرى جريدتنا الوقت اليومية لاتقوم بواجب الخدمة لصغر حجمها خصوصا لقاء اقبال المشتركين وازدياد عددهم » ، ونرى أن السعادة قبل أن تكون للقطر كانت لآل تقلا الذين رأوا اتساع توزيع صحيفتهم بحكم ما كانت تؤديه من خدمات « لتجار الأرياف والعمد والمشايخ » !

من جانب ثالث فإن المقال يشي بأن أصحاب الأهرام قد وضعوا خدمة القارىء غير المصرى فى المرتبة الثانية والذى عبر فيه عن النية على الاستمرار فى اصدار الأهرام الاسبوعية الي الخارج « فقط كالعادة حرصا على ميل الطلاب وعلى مقام الجريدة » !

وفى عملية ادماج التلحيق بالأهرام الاسبوعى ليصدر يوميا وضع اصحاب الأهرام تصورهم لذلك بقولهم أن الأهرام اليومى سيتضمن « الأخبار السياسية والداخلية والمحلية ومطلق الحوادث التجارية الداخلية والخارجية وبعض الروايات والنكات الأدبية وما شاكل ذلك . ولاريب أن جريدة بحجم الأهرام ذات ستة عشر عمودا بالخط الرفيع تكفى لمثل هذه الخدمة وتكون الجريدة الأولى العربية التى ظهرت فى هذا الحجم » ، ومن هذا التصور بدأ الأهرام اليومى حياته بالعدد ١٠٠٣ !

● مراجع الفصل السادس عشر

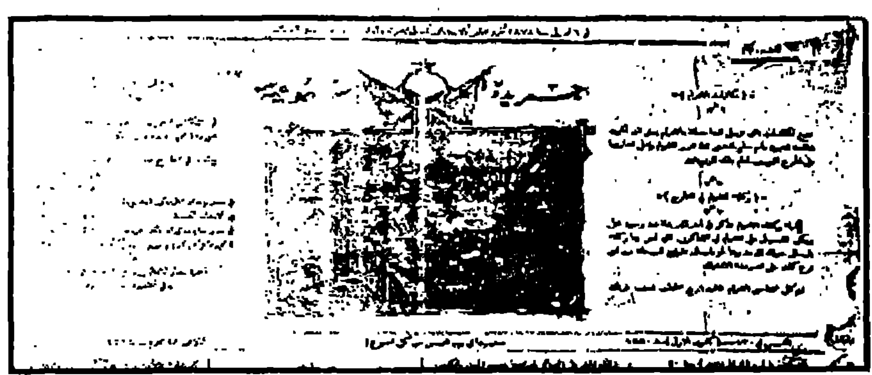
اعداد الاهرام

رقم العدد	التاريخ
٨٩	١٨٧٨/٤/١٢
١٤٦	١٨٧٩/٥/٢٢
٢٣٠	١٨٨٠/١٢/٣٠
١٠٠٣	١٨٨١/١/٣

اعداد الوقت

رقم العدد	التاريخ
١٨٨٠/٧/٣	٨٨٦
١٨٨٠/٨/٧	٩١٠
١٨٨٠/٨/٩	٩١١
١٨٨٠/٨/١٧	٩١٧
١٨٨٠/١١/٥	٩٦١
١٨٨٠/١٢/٢٨	١٠٠٢

- د. ابراهيم عبده: جريدة الاهرام - تاريخ مصر فى خمس وسبعين سنة تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ - ١٩٨١ ط ٤ القاهرة ١٩٨٢
- جرجى زيدان، تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر القاهرة ١٩٢٢
- رمزى ميخائيل: تطور الخبر فى الصحافة المصرية القاهرة ١٩٨٥



الأهرام العدد ٢٣٠ الخميس ٣٠ ديسمبر ١٨٨٠



الأهرام

LES PYRAMIDES

الأهرام العدد ١٠٠٣ الاثنين ٣ يناير ١٨٨١

الفصل السابع عشر

تداخل الأجنبيين فى بر مصر!



- ■ مكتب حاذق للأهرام فى مدينة باريز»
- ■ مطلب ألمانيا: «أن تؤوب فرنسا كاسفة البال»
- ■ مصر سكة الهند والهند كنز بريطانيا
- ■ النمسا وايطاليا غايتهما الباطنة الحسد والضغينة!
- ■ فرنسا لن تهجع حتى تنزل بانجلترا الداهية الدهماء والبلية العظمى!

تحت هذا العنوان تابع الاهرام تطورات التدخل الاوروبى فى مصر خلال السنوات الخمس التى انقضت بين بدء صدوره « ١٨٧٦ » وبين قيام الثورة المصرية المعروفة بالثورة العرابية « ١٨٨١ »، وهى السنوات التى شهدت سرعة خطى هذا التداخل على النحو الذى أدى فى نهاية الأمر الى وقوع «البر» فى ايدى قوة من هؤلاء «الاجنبيين»!

بدت هذه السرعة من انه مع صدور الاهرام كانت الازمة المالية قد بلغت ذروتها وأخذت مضاعفاتها السياسية تفرض نفسها على الساحة المصرية ، فقبل صدور الصحيفة بثلاثة شهور أنشىء صندوق الدين «مايو ١٨٧٦»، وبعد صدورها بشهرين فرضت الرقابة الثنائية الانجليزية ـ الفرنسية على ايرادات الحكومة المصرية ومصروفاتها« ! »

ولا ينقضى سوى عام الا قليلا وتترجم اعمال « تداخل الاجنبيين» الى تدخل سياسى فاقع سواء فى لجنة التحقيق أو فى تشكيل الوزارة المصرية الاولى ، والتى أسميت بالوزارة الأوروبية ، ليس فقط لاحتلال وزيرين اوروبيين لاثنين من مقاعد الوزارة الستة وانما لأنه كان لهذين الهيمنة الفعلية على الوزارة الاولى.

باختصار أصبح «تداخل الأجنبيين فى بر مصر» حقيقة واقعة كان على ساسة ذلك العصر وصحافته التعامل معها، ولم يكن الأهرام بعيدا عن هذا التعامل ، ولأسباب عديدة..

لم يكن بعيدا عنه بحكم نشأته السكندرية حيث كان الشعور بالوجود الاجنبى أكثر وطأة من أى مكان آخر ، ففضلا عن الجاليات الأوروبية الكبيرة المتمركزة فى الميناء الكبير، فقد استمر مقرا لغالبية ممثلى دول «بلاد بر» الدبلوماسيين.

لم يكن بعيدا أيضا بحكم الاهتمام الكبير الذى اولته الصحيفة منذ بداية نشأتها لمجريات الأمور الدولية ، وهو اهتمام بدا فى أشكال مختلفة فى تحريرها. سواء من تخصيص الصفحة الأولى للتلغرافات الخارجية التى كانت تصلها من سائر العواصم الاوروبية او النقل عن المجلات والصحف التى تصلها من تلك العواصم، فضلا عن متابعة الاحداث الكبيرة التى كانت أطرافها بعض القوى الاوروبية ووصل الاهتمام فى هذا الشأن الى أن كان «الاهرام» أول صحيفة عربية تقيم لها مكتبا فى عاصمة أوروبية مما ينم عن حجم الاهتمام المبكر للصحيفة بالعالم الخارجى.

يشير الى ذلك الخبر الذى نشره الاهرام فى عدده رقم ١٧٠ الصادر فى ٦ نوفمبر عام ١٨٧٩، والذى جاء فيه:

«نعلن عن اقامتنا مكتبا حاذقا فى مدينة باريز عاصمة الأمة الفرنسوية له تمام الاطلاع على ما يقع من الحوادث الكلية والجزئية.. »

لم يكن بعيدا أخيرا بحكم ارتباطات آل تقلا مع فرنسا، وهى ارتباطات أتوا بها من بر الشام فى جبل لبنان وازدادت توثقا فى بر مصر.. فى الاسكندرية!

★★★

مظاهرة الضباط التى قامت فى ٢٣ فبراير ١٨٧٩ كأحد مظاهر الرفض لسياسات «الوزارة الاوروبية» خلفت مضاعفات أدت الى تكريس هذا التدخل، فقد تألفت الوزارة الثانية فى تاريخ مصر الحديث برئاسة ولى العهد «محمد توفيق باشا»، وقد استمر الوزيران الاوروبيان فى موقعيهما بها، ولكن بصلاحيات أكبر «!» حيث أصبح لهما حق الاعتراض «الفيتو» على أى قرار لا يتوافق مع مصالح الدولتين الكبريين، فرنسا وانجلترا، مما كان يعني تكريس «تداخل الأجنبيين» الأمر الذى كان لابد وأن يثير التعليقات والهواجس أيضا «!» وهو ما نقرأه بين سطور الأهرام قبل أن نقرأه فى تلك السطور!

فى مقال احتل اغلب الصفحة الأولى من العدد الصادر فى ٢٠ مارس ١٨٧٩، أى بعد عشرة أيام من تشكيل الوزارة التوفيقية استعرضت الجريدة «تداخل أوروبا فى أحكامنا «شئوننا» وضع كاتب المقال توصيفا لموقف الدول الاوروبية من التدخل فى الشئون المصرية، وكانت فى رأيه روسيا وألمانيا والنمسا وايطاليا وانجلترا وفرنسا، وهو توصيف لم يختلف كثيرا عما طرحته الكتابات العلمية التى تناولت هذا الموضوع بعد عشرات السنين من تاريخ هذا المقال..

قام هذا التوصيف على التمييز بين موقف الدول الأربع الأولى: روسيا والمانيا وايطاليا والنمسا، والدولتين الأخيرتين، فرنسا وانجلترا.

روسيا كانت ترى أن الطريق الى استنبول يمر عبر القاهرة، وكما قال «الأهرام» انها كانت تأمل «أن يجر انكلترا الطمع الى الامتلاك «أى امتلاك مصر» فتنزع الروسية الى اتمام عملها فى العثمانية»!

ألمانيا كانت تسعى الى توظيف المسألة المصرية فى الايقاع بين لندن وباريس مما كان يشكل ركيزة اساسية لسياسات المستشار الألمانى الشهير «بسمارك» وهو ما عبرت عنه الأهرام فى موقع آخر من المقال بالقول: «وأما المانيا فتروم أن يكون بين الدولتين اللتين لهما الصالح خلاف لتؤوب فرنسا منفردة كاسفة البال فتصفو الكأس للبرنس بسمارك»!

النمسا وايطاليا يشخص «الأهرام» موقفهما على نحو طريف فى قوله : وأما أوستريا «النمسا» وايطاليا فغايتهما الظاهرة حفظ الموازنة «التوازن» وعدم العبث بالحقوق و الباطنة «الحسد والضغينة»!

وخلص الاهرام بعد هذا الاستعراض الى أن الدولتين صاحبتي «المصالح الافضل» أى انجلترا.وفرنسا فى مواجهة ذلك قد سعيتا الى الوفاق و«أصرتا على حفظ حقوقهما واختلستا الفرص وقد فازتا بالمرام»!

اما «الفوز بالمرام» الذى عنته الصحيفة فقد كانت تقصد به دخول الوزيرين الفرنسى والانجليزى فى وزارة نوبار..

يرتب الاهرام موقفه تأسيسا على هذا الفهم، وهو موقف يقوم على أن «تداخل الأجنبيين فى أحكامنا نشأ عن سوء سياستنا ولا ريب أن عدم التداخل أفضل ولكن جنينا على نفوسنا»!

وبعد أن يسلم الأهرام بأن الجناية على النفس جعلت لا محيص من هذا التدخل فان الخيار أمام مصر، إما بالتدخل من مجموع الدول المذكورة وهو ما ارتآه «يعود بالضرر علينا»، وإما باقتصار التدخل على كل من انجلترا وفرنسا وهو ما أفرد له بقية المقال.. جاء فيه:

«ان العالم على رأيين متباينين هل اتفاق الدولتين أفضل لصالح مصر أم اختلافهما فالفريق الواحد «الأول» مطلق الاعتقاد أن اختلاف الدولتين أفضل لصالح هذا البر «بر مصر» .. والقسم الآخر يعتقد غير ذلك ويرى الصالح فى الاتفاق لا فى الخلاف..».

وفى وسط هذه الحيرة التى يعبر عنها «الاهرام» عما هو أفضل لمصر .. اتفاق الدولتين أم اختلافهما، تتضارب المواقف، ويتبنى الأهرام أحد هذه المواقف المتضاربة!

كان رأى الجريدة باختصار أن «اتفاقهما أفضل لبر مصر» وهو الرأى الذى استمرت تدلل على صحته فى عدد من المقالات الرئيسية التى حرصت على أن تحتل الصفحة الأولى فى أكثر من عدد من أعدادها..

سلم الاهرام فى جانب من هذه المقالات أن «لانكلترة فى مصر صالحا غير منكر وهو مضاف الى أسباب كلية أخصها سبب.واحد مهم جدا هو كونها سكة الهند لها وأنت تدرى أن الهند كنز بريتانيا»!

دلف من ذلك الى القول ان الانجليز أمامهم للحفاظ على هذا الصالح واحد من ثلاثة: «إما ترك مصر وإما تداخلها فى أعمالها لصيانة سطوتها وإما الاستيلاء عليها» .

بعد استبعاد الاحتمال الأول لتناقضه مع تعاظم المصالح البريطانية استبعد «الاهرام» أيضا الاحتمال الثالث، احتمال استيلاء انكلترة على «بر مصر» وكان فى هذا مغرقا فى التفاؤل!

اعتمد «الاهرام» فى هذا الاستبعاد على ما اعتقده من قوة فرنسا التى لن تهجع

على حد تعبيره والتى سوف «تحرك ضدها» ـ أى ضد انجلترا ـ جميع الجهات المتطرفة «الثائية» وعضدها على ذلك دولة أمريكا التى لا تتوسم فى الانكليز الا شرا.. وتلك الطامة الكبرى «بالنسبة لانجلترا» والداهية الدهماء والبلية العظمى وبئس المصير»!!

لا يكون أمام انجلترا مع هذا، فيما اعتقده الأهرام، الا التدخل فى مصر بالاتفاق مع فرنسا.

غير أنه يلفت النظر فى أصحاب هذا الرأى أن توجساتهم من انجلترا كانت تمسك بتلابيبهم منذ هذا الوقت المبكر ، وبالمقابل كانوا أكثر اطمئنانا لموقف فرنسا..

ويذهب محرر الجريدة فى ذلك الى القول بأن سياسة فرنسا غير سياسة انجلترا، فبينما لا تسعى الأولى الى فتح البلاد «وذلك مبنى على لطف الحاسة!!»، فقد وصف الثانية بالطمع وحب الذات، أو كما قال بالحرف الواحد: «ولا يخفى أن الطمع الذى هو نتيجة محبة الذات يغشى على بصيرة صاحبه.. وقد نعتت دولة بريتانيا بمحبة الذات فأوجس الضعيف منها خوفا»!

★★★

يصل «تداخل الاجنبيين» الى ذروته الدرامية عندما تنجح حكومتا لندن وباريس فى الاطاحة بالخديو اسماعيل، وهو أمر لابد وأن يكون قد نزل على رؤوس المصريين نزول الصاعقة، سواء لأنه إجراء لم يسبق للدولة العثمانية أن أقدمت عليه بعد تولى أسرة محمد على لحكم مصر قبل نحو ثلاثة أرباع القرن «١٨٠٥ ـ١٨٧٩»، أو لما اكتسبه اسماعيل خلال الستة عشر عاما التى حكمها من احاطة نفسه بأسباب الأبهة والهيلمان، الأمر الذى كان يصعب على خيال أى مصرى أن يستوعب امكانية الاطاحة « بأفندينا ولى النعم» خاصة عندما تأتى هذه الاطاحة على أيد أوروبية!

أعقب هذا الزلزال السياسى مجموعة توابع مكنت «الاجنبيين» اكثر من رقاب المصريين، أو كان هذا على الأقل ما استشعره غالبية العاملين فى ميدان الحركة الوطنية..

توفيق الذى علق عليه رجال هذه الحركة أمالا واسعة خيب تلك الآمال بعد أن أسفر عن نواياه الاوتوقراطية حين رفض التصديق على مشروع الدستور الذى كان قد وضعه شريف باشا، الأمر الذى كان يرضى المراقبين الاجنبيين بحكم ما كان يتيحه هذا الدستور للنواب المصريين من اشراف على المالية المصرية وما يستتبع ذلك من تقلص نفوذهما.

تبع ذلك أن أمر بنفى السيد جمال الدين الافغانى بتهمة أنه «رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا»!

الاخطر من ذلك بالنسبة للاهرام جملة الاجراءات القمعية التى اتخذتها حكومة رياض تجاه الصحافة، خاصة تجاه تلك الصحف التى كان معلوما انها تتبنى اتجاه

الافغـانى، ولم يشـفـع لهـا أن اصحـابهـا كـانوا من الشـوام ، على رأس هذه الصـحف «التـجارة» و «مـصـر» اللتين كـان يحررهـمـا اديب اسحق وقد جاء صـدور «الحكم من ادارة المطبوعـات بالغائهـمـا مؤبدا» «!» فى ٣٠ نوفمبر ١٨٧٩ ، بعدهمـا ألغيت جريدة «الاسكندرية» التى كان يصدرها سليم الحموى، أعقبها «المحروسة» التى كان يحررها سليم نقاش.. وكـانت التـهـمـة الاسـاسـيـة التى وجهت لتلك الصحف هى تهمـة الهـجـوم على الدول الاجنبية.

وفى هذه الظروف آثر الاهرام الحذر وغلب على مقالاته الطابع التحليلى دونما اتخاذ مـواقف حادة يمكن أن تودى به، خاصـة وانه منذ اللحظة الأولى لخلع اسمـاعـيل انحاز للخديو الجديد ، محمد توفيق، ولم يتخل عن هذا الانحياز رغم تقلبات الرجل.

توخيا لهذا الحذر يعود «الاهرام» لتناول موضوع «تدخل الاجنبيين» فى مقال احتل للمرة الثـانيـة أغلب الصـفحـة الأولى فى عـدده الصـادر فى ١٠ يوليـو ١٨٧٩ ، تحت عنوان «حالتنا وأوروبا» وذلك بعد خلع اسماعيل بأسبوعين بالضبط!

وقد انصب تعامل الأهرام فى هذه المناسبة على التدخل الفرنسى والانجليزى لما أصبح معلوما أن هذا التدخل كان وراء خلع الخديو المعزول.

عـالجت الصـحـيـفـة فى هذا المقـال مـا أسمتـه «بالحـوادث الاخيـرة» ويبدو الحذر الذى قـررت أن تتـذرع به من خلال هذا الكم من «حسن النوايا» الذى حـفـل به المقال والذى أثبت فيما بعد انه كان «الطريق الى الجحيم»!

يتـبـدى الالتـزام بالنوايا الحـسـنة من أن الاهرام بدلا من أن يرى أن عـزل الخـديو اسمـاعـيل انما يمثل ذروة «تداخل الاجنبيين» لها ما بعدها ، فقد رآه بداية لانحسار هذا التدخل انطلاقا من فكرة أن سوء ادارة الخديو السابق هى التى صنعت التدخل.

فقد جاء فى جانب من هذا المقـال: «أن اوروبا كلها وفى مقدمـتـهـا هاتان الدولتـان «فرنسا وانجلترا» لها ملء الثقة بسمو خديوينا توفيق البر وعزيزه المعظم وكفانا فـخرا ما نشرت فى شأنه جرائد اوروبا الشهيرة».

ونظن أن صاحبى الاهرام قـد تأثرا فى اتخاذ هذا الموقف بحسن علاقتـهـمـا بالحاكم الجديد أكثر مما حكما الاعتبارات الموضوعية التى طالما حكماها فى كتاباتهما السابقة فى هذا الموضوع.

ويبسط الاهرام القضـيـة بقـوله: «ليس من غـاية لهـاتين الدولتـين فى قطرنا إلا حل مشكلة المال على وجه عادل وإحكام ادارته بموجب شرائع وقوانين لا يزايلها انصاف ولا يخامرها خلل.. ويسـتـفـاد مما ذكر أن الـدولتـين غيـر متـعنتـتين.. واتفـاقـهـمـا على مـا ذكرنا وشيك الحصول فان علة الابتـعاد فى بادىء الرأى لم تكن الا فقد الثقة أما الان فليس شىء من هذا القبيـل»!

ذهبت الاهرام الى أكثر من ذلك فى نغمتها التفاؤلية بالنسبة «لتداخل الاجنبيين » حين تحدثت عن استحالة أن تحتل إحدى الدولتين الكبريين «بر مصر» وعزت ذلك فى جانب الى أن «لكل من الدولتين» فرنسا وانكلترا رقيبة واقفة بالمرصاد، فلفرنسا ألمانيا ولانكلترا روسيا.. فالخلاف والحالة هذه من قبيل المستحيل حالا »!

وتخلص الجريدة فى مقالها الرئيسى الذى نشرته تحت عنوان «حالتنا وأوروبا » فى عددها الصادر فى ١٠ يوليو عام ١٨٧٩ الى القول بأنه لا سبيل الا الوفاق وانه لا يتم «الا بواحد من أمرين» «إما » الاستيلاء عليه «اى على القطر المصرى» بالقوة وتقسيمه الى شطرين يعطى الواحد للواحدة والثانى للثانية و «اما » الارتضاء بتركه بعد تحسين ادارته ونوال كل منهما ما لها من الحقوق المالية» وقد انحاز الاهرام الى «اما » الثانية!

★★★

تشير متابعة الاهرام خلال الفترة التى انقضت بعد عزل اسماعيل وبدايات احداث الثورة العرابية التى بلغت اهم منعطفاتها يوم ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ بمظاهرة عابدين المشهورة إلى أن الصحيفة قد اخذت فى التخلى عن قناعاتها القديمة باستحالة احتلال مصر من احدى القوتين الكبريين..

مع حدوث ذلك فيمكن الخروج بثلاثة خيوط اساسية من نسيج كتابات الاهرام حول قضية «تداخل الاجنبيين»..

الخيط «الاول» يؤكد على التزام الاهرام بموقفه الموالى للخديو خاصة وانه لم يمسه أى ضر من ذلك الذى وقع على سائر الصحف .

الخيط «الثانى» يشير الى تصاعد عداء الاهرام لانجلترا، وهو تصاعد نتج عن اهتزاز القناعات القديمة لآل تقلا من أن الانجليز لن يقدموا على احتلال مصر، ذلك أن مجمل الاخبار التى كانت ترد من الخارج وقتذاك اخذت تشير الى أن تلك القناعة لم يكن لها ما يبررها.

من بين هذه الاخبار ما نشرته الاهرام فى ٥ اغسطس عام ١٨٨١ حول اتفاق بين فرنسا وانجلترا حول تونس ومصر يؤدى الى ترك الاخيرة رهن تصرف الحكومة البريطانية، واذا كانت الاهرام قد اعتبرت تلك الاخبار من قبيل «الترهات» الا أن اصحابها قد اخذت تنتابهم الهواجس من استئثار الانجليز «ببر مصر».

منها أيضا «التلغراف» الذى نشره «الاهرام» فى ٣ سبتمبر من نفس العام عن امكانية تدخل قوات انكليزية فى مصر عند حدوث فتن عسكرية الامر الذى حول الهواجس الى شكوك قوية. فى ضوء ذلك اخذ الاهرام يتخلى عن نغمته التفاؤلية القديمة وفى التنبيه الى مخاطر الاطماع الانكليزية فى مصر عند حدوث فتن عسكرية الامر الذى حول الهواجس الى شكوك قوية.

فى ضوء ذلك أخذ الأهرام يتخلى عن نغمته التفاؤلية القديمة وفى التنبيه الى مخاطر الاطماع الانكليزية كلما واتته الفرصة لذلك..

من أطرف تلك التنبيهات الخبر الذى نشرته الجريدة تحت عنوان «اختلاس حضرموت» «!» وقد جاء فيه: « استباحت انكلترة اختلاسا جديدا هو أهم اختلاس اذ ضمت اليها حضرموت وليس بخفى أن الدولة الانكليزية تتسلط على رأسى العربية اعنى مسقاط «مسقط» وعدن، ولما كانت على ملء الثقة بأن تسلطها هذا لا يجديها نفعا دون ان تمتلك حضرموت الواقعة بين الرأسين المذكورين راعت الترصد والمراقبة.. وليس من يجهل ان انكلترة باختلاسها حضرموت قد وطدت سطوتها فى عدن ومسقاط مفتاحى البحر الاحمر والجون «الخليج» الفارسى فأمست سيدة العرب الشمالية»!

غير أن تلك الروح العدائية التى تشبعت بها الاهرام تجاه الانجليز عبرت عن نقيضها تجاه الفرنسيين مما يمثل الخيط «الثالث» من نسيج الموقف الاهرامى حتى انه كتب فى تلك الظروف يتحدث عن دولة فرنسا بانها: «مهد الانسانية ومنشأها والدولة الوحيدة التى كانت ولا تنفك منتصرة للانسانية ومفضلة الصالح العام على مصالحها ويكفيها والله ما يقوله الرأى العام فى العالم ان للانسان حزبين احداهما حزبه الخاص والثانى حزب فرنسا اذ لا يحب من بعد نفسه ووطنه الا فرنسا فكأنى بها وطن العموم»!

وبالروح المشبعة بالولاء للخديو توفيق ، رغم تقلب مواقفه، وبالعداء لانجلترا وبالحب لفرنسا ، كان على الاهرام أن يواجه المرحلة التالية من مراحل «تداخل الاجنبيين فى بر مصر».. مرحلة الثورة الوطنية ضد هذا «التداخل».

وربما لم تختلف الآراء حول موقف اهرامى بقدر ما اختلفت على هذا الموقف من الثورة العرابية، وهو موقف له قصة تستحق أن تروى!

● مراجع الفصل السابع عشر
اعداد الاهرام

رقم العدد	التاريخ
١١٩	١٨٧٨/١١/١
١٢٤	١٨٧٨/١٢/٥
١٣٩ *	١٨٧٩/٣/٢٠
١٤١*	١٨٧٩/٤/٢
١٥٣*	١٨٧٩/٧/١٠
١٥٥	١٨٧٩/٧/٢٤
١٥٩	١٨٧٩/٨/٢١
١٦٦	١٨٧٩/١٠/٩
١٧٠	١٨٧٩/١١/٦
١٧٥	١٨٧٩/١٢/٢٤

● احمد عبدالرحيم مصطفى: مصر والمسألة المصرية ١٨٧٦ ـ ١٨٨٢ القاهرة ١٩٦٥

● د. يونان لبيب رزق: تاريخ الوزارات المصرية ١٨٧٨ ـ ١٩٥٣ القاهرة ١٩٧٥

المصالح ان

فرنسا وانكلترة ومصر

[illegible] وأحكم المصالح منذ اجتمعنا القول لمحنت كان لمن [illegible] ال القسل دون ابطاله وكتو فلا باس من البحث في هذا الموضوع مانا جنتكل بما هنالك

[illegible] في الشرح قليلاً من اعمال [illegible] ورتبيلها انكلترة وتداخلها في احكام [illegible] عل ما لها من المصالح . واما بجلاء [illegible] في كيفية ذلك المصالح وما كان ويكون ويكون بعد ولكنا لم نعد في مطلوبنا ذكرنا حدود مصالح هاتين الدولتين [illegible] فالان [illegible] ان نكشف ما وراء الحجاب وندرك [illegible] المسألة لا [illegible] فنقول

[illegible] علم الجميع ان انكلترة [illegible] مصر مصالح [illegible] وهو مضاف الى اسباب كلها [illegible]

[illegible]

[illegible] ووجهتها الى تحو البلاد المصرية محافظة على ذلك المصالح [illegible] ان [illegible] ما لم [illegible] وتقدم [illegible] ان المصالح قد يكون تحت ملازمة الاشتراك وقد يكون [illegible] دون اشتراك اخر فيه ومثال الاول مصر [illegible] ومثال الثاني [illegible] وبعض جزائر الاوقيانوس . فان مصالح بريطانيا في مصر بمثابة مصالح فرنسا وكذا في [illegible] بمثابة مصالح الروسية [illegible] واما مصالحها في اوستراليا مثلاً فلا [illegible] لدول اخرى لا لفرنسا ولا [illegible] ولا الروسية ولا [illegible] ولا ايطاليا ولا النمسا [illegible] في شيء الاستيلاء على تلك القارة [illegible] صدورًا من [illegible] انكلترة [illegible] واستيلائها عليها رجاء ان [illegible] ذلك البلاد باب التمدن والتقدم . واذ [illegible] المصالح [illegible] البحث في ايها اكثر اشكالاً [illegible] الى [illegible] موضوعنا

[illegible] السلامة في [illegible] هذا القبيل [illegible] المصالح اذ ليس هنالك مزاحم [illegible] في المصالح المشتركة فانه كان ولا يزال موضوعًا لكل اشكال [illegible] ومطامع [illegible] المسألة [illegible] التي [illegible] مصالح الدول [illegible] الى [illegible] الواحدة على مراقبة الاخرى [illegible] ولكنهن [illegible] ان [illegible] ان يكون موضوعًا او هدفًا [illegible] كما لا يخفى على الحاذق . [illegible] ذكرنا ان لانكلترة مصالح [illegible] في مصر وان [illegible] من النوع الاول لا الثاني [illegible] شريكتها فيه دولة فرنسا . [illegible] ان ننتقل الى [illegible] مع مصر [illegible] فرنسا [illegible] فنقول من [illegible] ان الدولة الانكليزية لا تستطيع ان [illegible] هذا المصالح الا [illegible] من [illegible] مصر [illegible]

[illegible] الاستيلاء عليها . اما الاول [illegible] الانكليز الذين [illegible] الذات [illegible] المعدة [illegible] فلا [illegible] ولو اكرهوا على تركها . واما الثاني [illegible] الداخل المالي [illegible] في [illegible] قواعد [illegible] ولكن هنالك [illegible] . واما الثالث [illegible] المبالغ [illegible]

[illegible] ان فرنسا شريكة انكلترة في المصالح [illegible] ومتى [illegible] الى الاستيلاء على هذا [illegible] من [illegible] باعداد عسكر [illegible] البلاد فهي [illegible] عليها [illegible] وذلك [illegible] على ان [illegible] . واذا افترضنا [illegible] منهم [illegible] من [illegible] ان [illegible] لما [illegible] ولا [illegible] الى [illegible] ولى [illegible] اعني دولة فرنسا التي لا [illegible] من بعد ذلك [illegible] بريطانيا [illegible] من يجهل ان [illegible] انكلترة [illegible] جميع [illegible]

[illegible]

جميع الجهات [illegible] ومقدمة على ذلك دولة امركا التي لا [illegible] الا [illegible] . [illegible] انكلترة [illegible] اذ تركت [illegible] الى [illegible] الثلاثة [illegible] الدولة [illegible] فاذا [illegible] من رجال الانكليز من [illegible] ذلك [illegible] الان ان انكلترة لا تريد [illegible] الى الاستيلاء ولو ان البلاد [illegible] واهلها [illegible] ولا [illegible] تدرك [illegible] وعلى الحكيم ان لا [illegible] الى ما [illegible] القدم ورحم الله من قال

لا خير في [illegible]

[illegible]

واذ تقرر لنا الان ان مصالح انكلترة في مصر [illegible] بتركها البلاد ولا بالاستيلاء عليها وجب ان [illegible] في اي شيء يقوم مصالح انكلترة [illegible] مصالح مصر [illegible] يقوم به مصالح انكلترة . اقول ان مصالح انكلترة لا يقوم الا باحكام ادارة مصر وهذا المصالح [illegible] مصالح مصر . هذا ما ارى انا [illegible] ولكن لا [illegible] ان [illegible] . [illegible] فاذا [illegible] الكلام عن اعمال انكلترة وجب الانتقال الى البحث في اعمال فرنسا [illegible] في مصر

[illegible] ان [illegible] فرنسا في مصر [illegible] على ما [illegible] من [illegible] انكلترة [illegible] ان [illegible] الانكليز من [illegible] هذا [illegible] الذي [illegible] ايدي رجالة [illegible] ان بريطانيا [illegible] الاسباب [illegible]

الاهمية على ان هذا المصالح يستدعي رجال [illegible] الى اجراء سياسة تباين في بعض الوجوه سياسة انكلترة [illegible] المصالح المصريين [illegible] فرنسا اذن [illegible] بين [illegible] انكلترة [illegible] ومن دقق [illegible] ان احكام الادارة في هذا [illegible] سياسة فرنسا [illegible] ان تستولي [illegible] انكلترة [illegible] ما ذكرنا ان [illegible] ان ليس [illegible] الاثر ما لها من الحقوق الادبية [illegible] احكام الادارة [illegible] فكان علينا بعد هذه الاجابة ان نرى [illegible] مصالح مصر نفسها

لا [illegible] ان [illegible] الادارة [illegible] الى هذه الدرجة [illegible] في [illegible] ذلك [illegible] من [illegible] واما بالحقوق [illegible] الادارة [illegible] مصالح مصر لا [illegible] باحكام الادارة [illegible] في [illegible] مصر ان [illegible] ادارتها [illegible] ما زالت الى [illegible] لم يكن [illegible] الوجود [illegible]

[illegible]

[illegible] بريطانيا [illegible] الثالثة [illegible]

[illegible] الكتابة [illegible] وهذه [illegible] سياسة [illegible] الاولى [illegible] وذلك [illegible] على [illegible] ان الاستيلاء على ما [illegible] على [illegible] ان [illegible] الذي [illegible] الذات [illegible] على [illegible] مصالح [illegible] ولا [illegible] دولة بريطانيا [illegible] الذات [illegible] ذلك [illegible] في [illegible] . [illegible] في [illegible] الى الحد المرغوب . [illegible] ان نرى الادارة [illegible] المصرية [illegible] ميلاً الى فرنسا [illegible] الى انكلترة

[illegible] ما ذكرنا ان احكام الادارة [illegible] مصالح مصر ومصالح فرنسا ومصالح انكلترة . اما الاول [illegible] ذلك [illegible] واما الثانية [illegible] من [illegible] الاولى . [illegible] مصالح [illegible] ان [illegible] في [illegible] . فاذا [illegible]

[illegible] الاحكام الادارية [illegible] على ان [illegible] واحكم

الاسكندرية في ١ ايار (مايو) سنة ١٨٧٦

حالتنا واوربا

قلنا ان مسائلنا المصرية انقسمت الى سياسية ومالية وقد كانت الاولى معاولة عن الثانية ولكن سوء الطالع اوجها لزول الحالة وبعد ذلك وقال المصريين حوالها وانها الحوادث ما لم يحسب ابداً مما كان ما يكون واسبابنا فالحوادث المالية توجه وجه الانابة الى الاوائل على ازالة المشكل المالي وفي المسالة المالية . ولما كان البحث ايها يقضي علينا باطلاق عنان الفكر للبحث وينصب في مبادي المسائل والمسؤول وحقيقة المسؤول فقد كان من الواجب ان نرد في هذه المسائل حل المشكل الذي عليه معول الامر لنقول

جاء في الامثال ما معناه لا سبيل لارضاء الجميع وهو مثل حقيقي اكدته التجربة والايام اذ حادث قال الرجل او بالحري اتخذه دستوراً لحالتنا الحاضرة اخص اوائك الذين لم يتورطوا معنى في مسالك طلبة السياسة فتصوروا ان ليس من وسيلة لحل مشاكلنا دون اهتمام الدول حقوقنا وعبثها بها وبما يخسارنا ادبياً ومادياً فان لمن غايات سياسية لا بد من الحصول عليها اذا لم … قواعد … عضدت الحوادث الاخيرة اراء هذا الفريق فازدادوا تمسكاً بما ارتاى ولكن جهل حقيقة المقدمات بالاستعلام التجربة واعتبات وانا لذلك نشرح الحالة فنجلي امالنا واما علينا

ان لم نقل اننا ضيرنا ما قلنا وكررناه مراراً ولا نزال نكرره ونعود لا يستطيع الشرق ان يتخلص من تداخل الغرب في احكامه الا متى استطاع ان يحكم نفسه بنفسه . ولا يخفى على المدقق ما تحوي هذه الجملة من تخلص من هذا الكلام سؤال يتكرر . هل بلغ الشرق الى درجة البلوغ او ما زال قاصراً فلا بد له من وصي . هذا هو … ال الذي لا تكشف النفس … على تكرار امره الى المصالح فان حله من البديهيات ولكن … الى النظر في حقيقة المسائل وهو اوربا فنقول ان علة العلل في المصالح هو بحار الحركة وكرها الاتصال ولذا كان للروسية وانكلترة من الاهتمام بالمسالة الشرقية العثمانية اكثر مما لاوستريا وفرنسا ولما اكثر مما لالمانيا وايطاليا كما كان لفرنسا وانكلترة من الاهتمام بالمسالة الشرقية المصرية اكثر مما للروسية والالمانيا وما علة ذلك الا القرب الصالح او ابتعاده . والمصالح والحالة هذه اما متفقة او مختلفة كما اشرنا الى هذا في غير هذا المقام فاذاً يكون علة الخلاف واختلافنا علة الوفاق ولم نذهب عنك ان لفرنسا وانكلترة في ثغرنا المصري مصالح ومقدار نوعان مالي وسياسي . فالحالة هذه تجي الدولتين اما الى الوفاق واما الى الخلاف . ولا سبيل للوفاق الا بواحد من امرين اما الاستيلاء عليه بالقوة وتقسيمه الى شطرين يحتل الواحد للواحدة والثاني للثانية . واما الارتقاء بتركه بعد تحسين ادارته وتنال كل منهما ما لها من الحقوق المالية وسن قوانين عادلة يستنير بها ولا يتعداها فتأمن الواحدة تداخل الثانية فيه اكثر منها . واما الخلاف فلا نتيجة له الا حد الحسام

نتج ما ذكرنا اما خلاف فاصلة حد الحسام واما وفاق للاستيلاء على البر واما رتقاء البر بعد تأييد قوانين له تأذن بانكماش كل منهما عن التداخل في احكامه واما الخلاف حالاً ان نيل المسؤول لانه يدعو الى الاضرار بالدولتين ولعله يفقدهما مطلق النفوذ ويرد الدول الاخرى واسيما المانيا الى حضيض الذلة والمسكنة فتنادا شر … ويرميها بالي حرب وحشية النار ولا باس من ايراد اسباب ما ذكرنا تأييدا الما رأينا

لا يجهل ايها المطالع ان اكثر من الدولتين فرنسا وانكلترة ويزيد بانه بالمرصاد للفرنسا المانيا ولانكلترة الروسية وكذا الرقيبون تود ان تنزع منهما الى النزاع والشقاق . اما المانيا فتامن في جانبها وترتاح الى توزيع عساكرها وتخفيض نفقاتها التي اتقلت كاهلها واضرت بها وقامت لها ولا تهول النار في الحطب . واما الروسية فتتم بعد تخفيض اثقال الحماس من طرافه المسالة الشرقية ونشر اعلامها فوق اعلام جوانب اوربا وتحكم الروسيا ما ترقى الى ضمه واذ ذاك تأذن الحالة للامبراطور اسكندر بان يطلق على تلك البلاد اسم الاتحاد الروسي كما اطلق الامبراطور غليوم على باماره وسواها الاتحاد الجرماني تسميها الرواية وتقال فرنسا وانكلترة وتدقيق ابوابها ابواب السلام والراحة وتعطلت سائر ومتاعب اموالها

فالخلاف والحالة هذه من نيل المحول حالاً فان الدولتين عالمتان ما هنالك ومدركتان ان وراء الاكمة ما وراءها ويؤيد ما ذكرنا ما بدا من انكلترة ابان الانقلاب الاخير اذ نويت ان يد المانيا تشتغل فاذا انتفى الخلاف بقي لنا امرا الوفاق اما احدهما وهو الاستيلاء على البر بالاتفاق فلا تدنو استحالته عن استحالة الخلاف ويتبين ان الخلاف تحت الامكان وهذا الوفاق تحت استحالة المسالة دون روسيا وعاود فارس ثم الا الوفاق الثاني وقد نودنا به مراراً ياولاً ان ليس من غاية للدولتين في تذكرنا الا حل مشكلنا المالي على وجه عادل والحكم ادارة وجعل شرائع وقوانين لا يرتاحها اصحاب ولا يقاومها خال واحسن في ان تحورانكلترا عن الاستيلاء اما بالانتصار واما بالاستمرار فالغاية من ذلك حاصل الامر لا بواسطة الحاصل

نستفاد مما ذكرنا ان الدولتين عليهما متساويتين فارضاؤهما اذن من قبول الممكن والواقع ان يقال ان اتفاقهما على ما ذكرنا وذلك المحول فان علة الاعتماد في مبادي الراي لم تكن الا فقد الثقة اما الان فليس شيء من هذا القبيل لان اوربا كلها راي عندما تاتي الدولتان للحل الذي يسر خديوينا توفيق البر من يزه المعظم وكذلك ما تنتشر فيه شاو ومرائيه اوربا الشهيرة وقد عربنا عنها في هذا العدد جملاً بان ان تكتب بماء الذهب لاحيا الحول المصرية الى حريدة الدينا الفرنساوية الشهيرة تطلعك بمطالعة الجريدة الثانية من عددنا هذا رأيك الحكم والانتقاد

واذ تبين لنا ان غاية الدولتين حرية كان من الراجح … منها حل المشكل المالي على وجه امين عادل يضبط الدائن والمدين . اما من الحقوق الادارية فلا يخاف البر بالامام بالحال لا يستطيع اعمالها كما لا يخاف الدائن بضرورة شورى وارادة . ويغلب عندنا ان يجري ما نوهنا عنه في جملتنا المصدرة في وقت الاربعاء

وسواه من ان مأرب الدولتين تتمان ارادة في لائحة هذا الخديوي المالية في اللائحة الوطنية وبعد ذلك تتوجهان النظر الى اراء رجالها الذين كانا عضوين في اللجنة ونا ظر ين في الادارة تامل من حضرة قنصليها الجنرالين الحاضرين اعلى الامور توكد المشورة الى الحاضرين شرح ارائها ومقاصدها ونعتقد ان كل الا عيان على انكار سوء ولي الامر توفيقنا المعظم واراء رجاله الكرام وبعد هذا وذاك سرور وان الاتفاق مع عزيزنا والدول الاخرى لائحة مالية محكمة الوضع نافذة العمل ناظرة على الطارئ فلا يبقى به ذرر ولا ذاك يتم الحجة

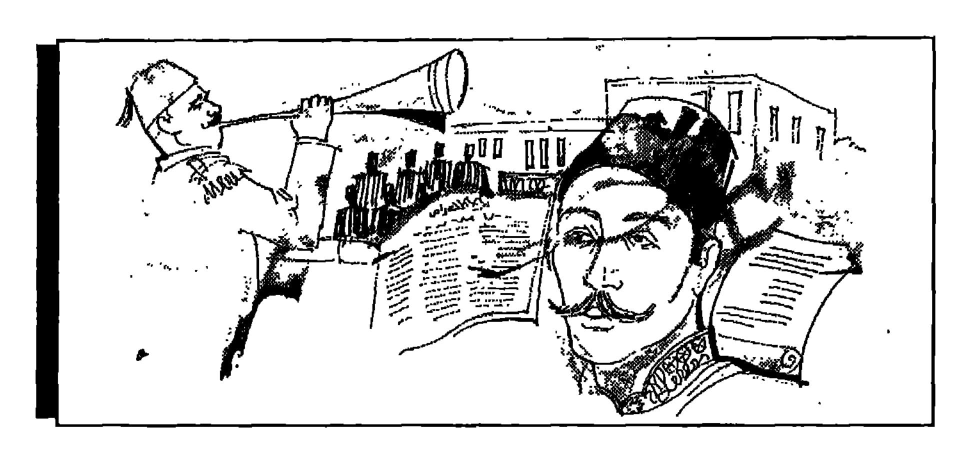
هذا وليس يخاف ان مشاكلنا الحاضرة كانت وصرمانا عديدة وليس من سبيل لازالتها الا حكمة توفيقنا ورجالنا المحنكين ثم الزمن فلا ول حاصلة والثانية في الاستطاعة فلا تقنط ايها الوطني فستري عما قليل مطلق ما قدرت وتعلم ان الله عاهدك بالتوفيق فكان اوطلك خير توفيق



أحمد عرابى بك

لفصل الثامن عشر

من «السلاملك» إلى «الفسحة»



- ■ الضباط لا ينفكون عن التجمع والتخرب والتألب
- ■ عرابى يشرب من كأس التصافى على محبة الحضرة الخديوية!
- ■ عثمان رفقى يختفى فى كيس ملابس
- ■ الأهرام بعد حادثة قصر النيل:

«الراحة مستتبة وقد مر الاضطراب مرور السحاب»!

[١٨]



شهور وثمانية ايام هى فترة «الحمل الثوري» التى انقضت بين يوم اول فبراير و٩ سبتمبر عام ١٨٨١، والتى تحولت خلالها حركة الجيش المصرى من مجرد حركة فئوية الى حركة عامة تعبر عن المطالب الوطنية.

اليوم الاول يسجل مشهدا من مشاهد الميلودراما التاريخية.. مشهد الخديو توفيق وقد وقف فى شرفة «سلاملك» سراى عابدين يصيح بأعلى صوته طالبا من جماعة «بروجى» السراى إطلاق «نوبة حضور» لضباط الحرس لمنعهم من الزحف الى ثكنات قصر النيل لتخليص عرابى ورفاقه من المحاكمة التى كانت قد دبرت له من قبل الخديو نفسه، ولم يستجب الضباط وساروا فى طريقهم لا يلوون على شئ، فعجلة التاريخ كانت قد دارت!

اليوم الثانى يسجل مشهدا آخر، هو اشهر مشاهد الثورة العرابية، مشهد المظاهرة العسكرية التى قادها أحمد عرابى الى ميدان عابدين أو «فسحة سراى عابدين» بمسميات العصر.

وإذا كانت تفاصيل ما جرى خلال تلك الشهور السبعة التى انقضت بين يوم «السلاملك» ويوم «الفسحة» قد اصبحت معروفة من مظان عديدة فإنه يبقى من شهود الحوادث صحافة العصر، ونقدم هنا شهادة «الاهرام» بكل ما لها وما عليها!

★★★

يضيف احد شهود العصر تقديم الضباط المصريين «لعريضة» الى رئيس النظار المصرى يوم ٣٠ يناير عام ١٨٨١ بأنه « مبدأ الحوادث المدلهمة»! فقد تتابعت تلك الحوادث على نحو غير متوقع خلال الايام التالية..

تشكو العريضة من عثمان باشا رفقي ناظر الجهادية (وزير الحربية) «وان سعادته يعامل ضباط العسكرية بالذل والاحتقار» (١)، وتشكو من إحالة الضباط الوطنيين، اى المصريين، الى الاستيداع، دون غيرهم من الضباط «من بنى جنسه»، تقصد الجراكسة، وتنتهى المذكرة بطلب «رفع سعادة المشار اليه من مسند نظارة الجهادية الذى لا تسمح القوانين الحرة بتوجيه هذا المسند لمثل سعادته»، وحملت العريضة توقيع احمد بك عرابي.

سببت هذه العريضة قلقا شديدا لدى الدوائر الحاكمة، رياض باشا والخديو توفيق، ويقول نفس الشاهد ان الاول «اضطرب اضطرابا شديدا وداخله من الوسوسة والخوف ما أربكه»، وأن الثانى «بالغ فى الضرر الذى يحدق بالعرش فيما لو استتب امر هذه العصابة واستفحل عملها»!

وكانت هذه هى البداية ليوم «السلاملك» يوم الثلاثاء، أول فبراير عام ١٨٨١، حين حررت ثلاثة أوامر الى ثلاثة من «امراء الجند هم على بك فهمى المشهور بالديب، امير

جند الحرس الخديو، واحمد عرابى بك أمير جند العباسية، وعبدالعال بك حلمى المعروف بأبى حشيش أميرالجند السودانى المعسكر بطرة من ضواحى مصر القاهرة، وقضت تلك الأوامر بمثول الثلاثة امام محكمة عسكرية.

بقية القصة معروفة فان المحاكمة الصورية التى عقدت لهؤلاء فى مقر ديوان الجهادية بقصر النيل وتجريد الرجال الثلاثة من رتبهم ووضعهم فى السجن انتهت الى تحرك قوات الحرس الخديوي بقيادة البكباشي محمد عبيد واقتحمت الديوان وحررت الضباط الثلاثة، وجاءت نهاية عثمان رفقى الكوميدية عندما هرب الى ورشة الترزية حيث «سره رئيسها ببعض اكياس الملابس كى لا يراه احد من الجند، وبقى هناك حتى عادت الجند الى مقرها بفسحة عابدين»!

★★★

أول اشارة عن الحادثة فى «الاهرام» عن يوم «السلاملك» او ما عرف فى التاريخ باسم «حادث قصر النيل»، جاءت فى العدد الصادر يوم الخميس ٣ فبراير، أى بعد يومين من حدوثها، وقد حرص مراسل الجريدة فى العاصمة ان ينبه الى ان البعض اعتبرها «من الحوادث المهمة وقاس وفصل وخاط عليها» وانها فى تقديره «لا توجب التشويش والاضطراب»!

وقد التزم «الاهرام» بموقف التهوين من الحادث، بل وبما اعقبها من حوادث، وهو موقف نرى انه قد انبعث من اعتبارين: الاعتبار الاول ناتج عن ولاء اصحاب الاهرام للخديو توفيق، وهو ولاء استمر طول الوقت، والثانى صادر عن الرغبة فى عدم بث الخوف فى المجتمع السكندري، وهو مجتمع شديد الحساسية بسبب الوجود الاجنبى العريض فيه، وبسبب تعدد وجوه النشاط المالى بداخله، بكل ما هو معروف من جبن رأس المال!

يتبدى هذا التهوين ليس فقط من التأخر النسبى فى نشر خبر الحادث وانما فى الصيغة التى وضع بها..

أهم ما فى هذه الصيغة ما حرص الأهرام على ابرازه من ان الحادث بسيط، وان الضباط الثلاثة توجهوا الى عابدين «وتشرفوا بحضرة الجناب العالى والنظار وأعلنوا عن خضوعهم.. وانقضت أحكام هذه الحادثة فورا كأن لم يكن شئ وسكن هيجان الأفكار واستولى الهدوء»!

ورغم ان الاهرام قد اعترف ان «سعادتلو عثمان باشا رفقى ناظر الجهادية قدم استعفاءه فقبل وخلفه حضرة سعادتلو محمود باشا سامي» (البارودي)، فانه أكد على «انصياع رجال العسكرية على حفظ القانون» وانه لن تأتى الايام بمثل هذه الحوادث وان «الراحة مستتبة وقد مر الاضطراب مرور السحاب»!

وخلال ما يقرب من اسبوعين بعد الحادث درجت سياسة الاهرام على الاستمرار فى

اشاعة الطمأنة.. اشاعتها فى نفوس الناس وفى نفوس الضباط أيضا..

فى نفوس الناس بالقول ان الضباط «تشرفوا بحضرة اميرهم وقدموا الخضوع والاحترام واستماحوا غض الطرف عما جرى واعترفوا بفضل الجناب العالي.. وهم يعلمون حق العلم ان الممالك والأمم لا تقوم الا بحفظ القوانين والشرائع ولا توطد الا بالاتحاد والوفاق».

ولا تنسى الصحيفة بعد ان تنبه الى مخاطر الانقسام والتخاصم ومن «ان الاوربيين مترصدون مراقبون حتى اذا ما تبينوا أمرا ولو طفيفا نزعوا الى التدخل».. لا تنسى التأكيد على «أن الاخبار كلها مكذوب فيها مختلقة ساقطة»!

وفى نفوس الضباط بالتأكيد على عفو الخديو عنهم فى كل مناسبة وكان لهذا التأكيد اسبابه..

فالضباط قد اعتقدوا، وكانوا محقين فى ذلك، ان توفيقا ورجاله كانوا يتربصون بهم، وينتظرون الفرصة للايقاع بهم..

عبر عن ذلك الزعيم احمد عرابى فى مذكراته التى وضعها تحت عنوان «كشف الستار عن سر الاسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية»، والتى تحدث فيها عن «دسائس الخديو ورجاله»، وعدّد ثلاث عشرة دسيسة خلال الفترة بين يوم السلاملك ويوم الفسحة!

ولعل ذلك ما دفع الاهرام الى تفنيد الاقوال التى شاعت بأن عفو الخديو موقوت وجاء به يوم ١٠ فبراير مقال طويل أنهاه بقوله «وعليه فانا لنأمل الثقة بكون العفو قد صدر عن قلب طاهر لا يخامره غش ولا يرتاب به، كيف لا ونحن نعلم ميل هذا الامير الى تحسين احوال الجندية ورعاية الوسائل اللازمة فى شأن تعزيزها ورفع عمادها وحفظ شرفها»!

لعله ايضا هو الذى دفعه الى الاحتفاء احتفاء ظاهرا بالاستقبال الذى اعده توفيق بسلاملك سراى عابدين ظهر يوم السبت ١٢ قبراير وألقى فيه خطبة أكد فيها على نفس المعني، فقد قال بالحرف الواحد فيما ننقله عن الاهرام..

«لا أخفى عنكم ما حصل لى من الاسف بأسباب الحركة التى حدثت وانقضت ومع هذا فإنى قد عفوت ولم يبق من آثارها شئ بالكلية فيلزمكم من الآن فصاعدا أن لا تشتغلوا بشئ خارج حدود وظائفكم واجتهدوا فى أداء واجباتكم العسكرية»

وقد اعتبر الاهرام هذا النطق الخديوى «كفالة تامة بالعفو عما توهم من تلك الحادثة السابقة فيكون موجبا لاطمئنان حضرات الضباط وكمال انتمائهم على انفسهم وشرفهم العسكرى»!

وينقطع الاهرام عن النشر عن الحوادث لأكثر من شهرين بعد ذلك، وعلى وجه

التحديد حتى يوم ٢٢ ابريل ، وهو انقطاع لم يعن توقف الاحداث.

★★★

لعل اهم ما حدث خلال هذين الشهرين ان جماعة الضباط قد أصبح لهم رجل داخل مجلس النظار، هو محمود سامي البارودي الذى حل محل عثمان رفقي، وقد وقف الرجل بالمرصاد لأية محاولات لايذائهم.

من ناحية اخرى فقد نشط رجال الحاشية للايقاع بالضباط المصريين، وتم خلال نفس الفترة القبض على أحد الضباط الجراكسة فى الآلاى السوداني الذى كان يقوده عبد العال بك حلمى، وهو يحرض الجنود ضد قيادتهم، وبعد التحقيق معه تبين انه قد تم تحريضه من بعض رجال السراى الذين استمروا على حد تعبير شاهد محايد «يدبرون لهم (أى للضباط) المكائد ويعملون على هلاكهم».

وفى مثل تلك الظروف كان متوقعا ان يستمر الصراع، ورغم الحرص من جانب الاهرام على الاستمرار فى عزف نغمة «التهوين» إلا انه فى متابعته للأحداث كان يكشف بين الحين والآخر عن تصاعد الأزمة..

فى العدد الصادر يوم ٢٢ ابريل نشر الاهرام «صورة امر عال بزيادة ماهيات الضباط والعساكر البرية والبحرية وصورة امر عال آخر بتشكيل قومسيون (لجنة) عسكرى للنظر فى كافة ما يلزم اجراؤه من التعديلات فى التنظيمات والقوانين العسكرية»

وقد ضمن الأهرام مع الأمرين قائمة «بالماهيات الجديدة» بكل ما تقرر فيها من زيادات ، والتقرير الذى رفعه رياض للخديوى يشرح فيه الأسباب التى دفعته الى قبول مطالب ناظر الجهادية، ولم يكن سوى محمود سامي البارودى نفسه!

ويسجل شاهد معاصر عاين تلك الأحداث ان رياض باشا وسائر الوزراء قد قبلوا هذا تحت ضغط البارودى والضباط الذين «لا ينفكون عن التجمع والتحزب والتألب، أينما صاروا، وحيثما ساروا، حتى فى الشوارع والطرقات وأمام بيوتهم وخصوصا امام دار زعيمهم احمد عرابى بك».

فى ٢٨ ابريل ينشر الأهرام خبر المأدبة التى اقيمت فى «نظارة الجهادية فى قصر النيل «ليلة الأحد السابق» على نفقة سعادتلو محمود باشا سامى « وألقى فيها «عزتلو أحمد بك عرابى» خطابا..

ورغم ما تضمنته تلك الخطبة من مناشدة للحضور « ان تشربوا معى كأس التصافى على محبة الحضرة الفخيمة الخديوية وحضرات نظارنا الكرام وجناب المراقبين الفخام »(!) إلا أن مجرد عقد المأدبة على هذا النحو وفى نفس المكان الذى حوكم فيه الضباط الثلاثة قبل اسابيع قليلة، ثم ان يكون زعيم هؤلاء هو الخطيب الرئيسى فى الحفل.. كل ذلك لم ينزل على وجه اليقين منزلا مريحا فى قلوب الخديو والوزراء.

ويسكت الأهرام ستة اسابيع اخرى كان واضحا خلالها ان المياه ما زالت تتدفق تحت الجسور فى نهر الأزمة..

يشير الى ذلك الخبر الذى نشره فى العدد ١١٢٤ الصادر يوم الخميس ٩ يونية، وقد اكد فيه ان قناصل الدول قد التقوا بالخديوى وحادثوه عن انتشار الشائعات «بخصوص حركات جديدة من الضباط بمصر مما يخل بالراحة العامة وانهم مستعدون لأن يعلنوا ذلك لدولهم حتى ترى فى الطرق المناسبة للإسكان والراحة».

ومع ان الخبر تضمن رد الخديو بأنه سيبذل كل جهده «فى إزالة كل إشكال من هذا القبيل» فإن الأهرام لم يألو جهدا فى انتهاز الفرصة للتنبيه الى ان الضباط أعلم «بالطريقة المثلى والمنهج الأقوم» والتنبيه الى تربص أوروبا «ومراقبتها حالتنا وتوقعها التفتيش على اسباب ولو طفيفة تنتحلها علة للتداخل».

بيد ان الملاحظة ان «الأهرام» قد اعطى عناية ظاهرة بعد ذلك بتتبع اخبار «عزتلو احمد بك عرابى الأفخم» على حد توصيفه له، فمرة يتحدث عن دوره فى «القومسيون العسكرى» الذى كان الخديو قد اضطر لتأليفه من ١٤ من كبار الضباط كان ثلاثة منهم من الأجانب وعشرة من الضباط المنحدرين من أصول تركية، وكان عرابى الضابط الوحيد الذى ينحدر من اصل مصرى. ومرة أخرى يتحدث عن احتفال جمعية التوفيق الخيرية بمصر «بليلة أنس وسرور» تحت رئاسة أحمدبك عرابى «احد مؤسسى الجمعية».

★★★

يوم الأحد ١٤ اغسطس عام ١٨٨١ كان علامة هامة فى الطريق بين يوم السلاملك ويوم الفسحة، ففى ذلك اليوم صدر امر عال لرئاسة النظار جاء فى سطر واحد.. قال: «بأنه بناء على ما تقرر واستحسن قد تعين سعادتلو داود باشا ناظرا للجهادية والبحرية»، وكان معنى ذلك ببساطة ابعاد البارودى عن هذا المنصب الحساس ليتولاه احد رجال الخديوى، فهو فضلا عن أنه من اصهار توفيق، فقد وصفه مراقب اجنبى وقتذاك بأنه «رجعى متطرف لا يتردد فى أن يأتى أى عمل يكون فى مصلحة العصبة الحاكمة».

صنع هذا الاجراء قلقا شديدا فى صفوف الضباط المصريين اعرب عنه الأهرام فى مقال طويل بعد ذلك بيومين تحت عنوان « الجهادية وحضرات النظار» والذى جاء فى مطلعه «أكثر العالم من الأقاويل وتضارب ظنونا فى مسألة الجهادية التى امست فى الحقيقة نقطة لتوجيه الأفكار اليها من العموم..»

وكان من المنتظر ان يستتبع هذا القلق مزيد من الأحداث، ومن الجانبين.. الناظر الجديد اصدر امرا بابعاد الفرقتين اللتين يقودهما عرابى وعبد العال حلمى الى خارج القاهرة.. احداهما الى الاسكندرية والاخرى الى دمياط، وهو الأمر الذى كُلف البارودى من قبل بوضعه موضع التنفيذ الا انه رفض ذلك الامر الذى ادى الى

استبداله بدواد باشا.

الضباط الذين كانت تساورهم الشكوك طوال الوقت من نوايا العصبة الحاكمة اخذوا في بناء الجسور مع قوى الحركة الوطنية، وفي تلك الظروف ظهر «عبد الله النديم» الذي لعب دورا ملحوظا في ذلك البناء. فقد وضع بالاتفاق مع الضباط منشورا يطلب فيه من الشعب إنابة عرابي في المطالبة بحقوقه والتحدث باسمه، واخذ يجمع التوقيعات عليه مما كان بمثابة أول «حركة توكيلات» في التاريخ المصري الحديث. وبدا ان الطرفين يندفعان بخطى سريعة للمواجهة.

★★★

لم تخفف نسمات الخريف المصري المعتدلة من سخونة الموقف المتأزم في القاهرة، كما لم تخفف منها صياغات الأهرام المعتدلة لذلك الذي يجري في العاصمة..

من بين محاولات التخفيف الاهرامية ذلك المقال الذي نشره يوم الجمعة ٢ سبتمبر قبل حادث «الفسحة» بأسبوع واحد، وقال في مطلعه «أنه ليس هناك مايوجب القلق والقلاقل فهي مسألة قديمة » وأن « الضباط ومقدمي قواد العساكر اعلنوا عن تكدرهم مما عزته اليهم بعض الجرائد من عدم الانقياد الى النظام في حين نرى انهم باذلون جهدا وعاملون بما في وسعهم لمرضاة اميرهم وولي امرهم ورجال الحكومة السنية..».

ولم تجد نغمة التهدئة اصحابها فتيلا ففي يوم الجمعة التالي وقعت الواقعة .. مظاهرة عابدين، والتي اسهبت شتى المراجع في وصفها ولكننا هنا نطالعها مع قراء الاهرام في يوم ١٠ سبتمبر عام ١٨٨١.

العنوان الذي اختارته الجريدة للمظاهرة «حادثة مصر» ساقت في جانب منه أخبارها وفي جانب آخر التعليق عليها..

فيما يتصل بالأخبار قالت انه: «في نحو الساعة الخامسة وردت العساكر الى فسحة سراي عابدين وكان قد ارسل حضرات الضباط بشير كولاري (كلمة تركية تعني المراسلة) الى جناب القناصل يعلنون فيه انه ليس لهم غاية في ايقاع ضرر بأحد من الأجنبيين والوطنيين ولكن لهم غاية واحدة تنحصر في ثلاث مسائل، اولها تغيير الوزارة واستبدالها بوزارة يؤلفها دولتلو شريف باشا. والثانية اقامة مجلس نواب، و الثالثة وجوب السير بالقانون العسكري الذي شكله القومسيون المشكل من وطنيين واجنبيين».

ويلاحظ من قراءة بقية الخبر امران.. اولهما ان المظاهرة التي يشير الخبر انها قد استمرت حتى الساعة التاسعة، اي أربع ساعات بالتمام والكمال ، قد انتهت بأن «تفرقت العساكر معلنة تمام خضوعها لسمو الخديو المعظم».

الأمر الثاني ان الخبر لم يشر من بعيد أو من قريب لطبيعة المحادثة التي دارت بين توفيق وعرابي والتي اثبتها الأخير في مذكراته وجاء فيها عبارته المشهورة: «لقد

خلقنا الله احرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا، فوالله الذى لا اله الا هو اننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم».

ويمكن ان يعزى ذلك الى ان مراسل الأهرام الذى ذكر انه كان موجودا فى «الفسحة» خلال المظاهرة، لم يكن قريبا بقدر كاف يمكنه من سماع المحادثة، وان كنا نرجح اكثر ان السبب يعود الى ما درجت عليه الصحيفة طوال الأزمة من اتباع سياسة التهدئة..

يؤكد ذلك ما جاء فى تعقيب الاهرام على «حادثة مصر» وردود فعلها فى الاسكندرية من «اضطراب مركز البورس (البورصة) حتى سقط السعر الى الحد الذى ترى».

وينهى الاهرام تعقيبه بقوله: «ان حكمة خديونا المعظم وحسن النوايا العامة ستزيل ما هنالك من الإشكال وتدفع الأوهام. ولنا ان تثبت للجميع ان السلام فى العاصمة مستول والراحة مستتبة والسكون شامل والله المسؤول بحسن الختام».

غير أن تلك الآمال لم تتحقق فقد سارت الامور فى طريقها الثورى وهو طريق لم يكن ليستريح له الأهرام على اى الأحوال. مما يشكل فصلا آخر من فصول علاقة الصحيفة بوقائع ذلك العام.. «عام الحوادث المدلهمة»!.

● **مراجع الفصل الثامن عشر**

اعداد الاهرام:

رقم العدد	التاريخ
١٠٢٧	١٨٨١/٢/٣
١٠٣١	١٨٨١/٢/٨
١٠٣٣	١٨٨١/٢/١٠
١٠٣٦	١٨٨١/٢/١٤
١٠٤٣	١٨٨١/٢/٢٢
١٠٨٩	١٨٨١/٢/٢٨
١١٢٤	١٨٨١/٦/٩
١١٢٥	١٨٨١/٦/١٠
١١٢٧	١٨٨١/٦/١٣
١١٧٧	١٨٨١ /٨/١٣
١١٧٨	١٨٨١/٨/١٦
١١٩٨	١٨٨١/٩/١٠

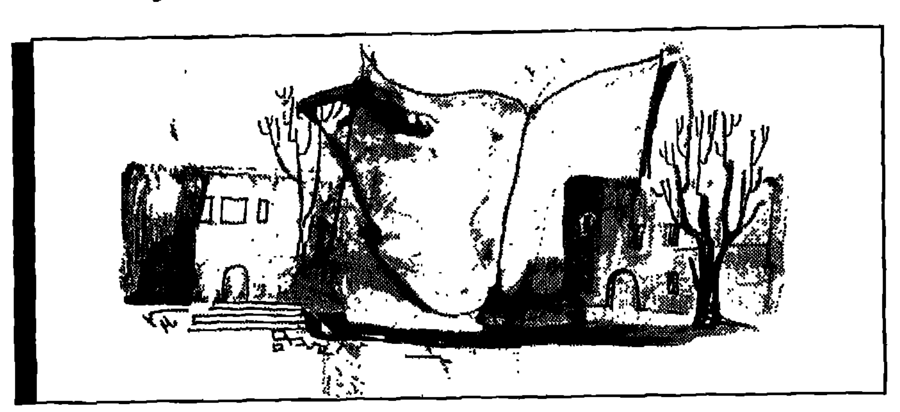
ـ أحمد عرابى: كشف الستار عن سر الاسرار فى النهضة المصرية المعروفة بالثورة العرابية جزءان القاهرة ١٩٥٣

ـ ميخائيل شاروبيم: الرقيب او حوادث مصر الأخيرة تحقيق د. يونان لبيب رزق القاهرة ١٩٩٢

الكسندر شولش: مصر للمصريين ـ أزمة مصر الاجتماعية والسياسية ١٨٧٨ ـ ١٨٨٢ ـ تعريب د. رءوف عباس حامد القاهرة ١٩٨٣

الفصل التاسع عشر

يوم حريق الأهرام!



■ ■ الاهرام والسير على حبل مشدود

■ ■ ميدان القناصل بدا «كأتون نار»!

■ ■ الهمام أحمد بك عرابى لا يبالى بالأتعاب!

■ ■ ١١ يونية بين المذبحة والشغب الدموى

■ ■ الطائف: لسان العرابيين الرسمى وترجمانهم الصحيح

«.. دائرة المسيو سرسق بشارع مطبعة الأهرام ، دائرتان للمسيو أنطون أديب بشارع مطبعة الأهرام بما فيه ادارة الأهرام ومطبعتها ، دائرة الخواجات بسترس وتوينى بشارع مطبعة الأهرام» كانت بعضا مما جاء فى بيان طويل «لأسماء المحلات التى أصيبت بالحريق فى ثغر الاسكندرية وأسماء أصحابها» فيما نشره الأهرام فى عدده رقم ١٤٢١ الصادر فى ١٤ أغسطس عام ١٨٨٢.

الحريق الذى يشير اليه الأهرام وراح ضحيته المطبعة والادارة هو الحريق الذى أشعل فى الاسكندرية فى اليوم التالى لضربها من قطع الأسطول البريطانى فى ١١ يوليو من نفس العام، وهو يشكل فصلا من فصول ذلك الصيف الدامى الذى بدأت نذره منذ مظاهرة «فسحة عابدين» فى ٩ سبتمبر عام ١٨٨١، على حد تعبير الأهرام، ولم تتحقق آمال الصحيفة، أو أصحابها، من أن الاستجابة لمطالب «الجهادية» سوف تضع حدا للأزمة..

فقد أعقب تلك الاستجابة طريق طويل من الأحداث الثورية يمكن تتبعه من خلال جملة من العلامات الرئيسية، وهى علامات معروفة فى التاريخ المصرى، بيد أنه من المطلوب التذكير بها هنا سعيا بعد ذلك الى تتبع موقف «الأهرام» منها..

العلامة رقم (١) ما تبع حادثة «الفسحة» من سقوط وزارة رياض وتأليف وزارة شريف التى فرض عليها العسكريون أولا استبقاء البارودى وزيرا للجهادية والذى قبله الرجل على مضض (!)، تبع ذلك محاولة من جانب رئيس الوزراء الجديد لابعاد الجيش عن السياسة من خلال اخراج عرابى من القاهرة الى رأس الوادى، وهى المحاولة التى أتت بعكس المطلوب منها فقد حول عرابى مسيرته الى مقره الجديد الى مظاهرة شعبية تأكدت من خلالها زعامته، الأمر الذى دعا الحكومة الى اعادته للقاهرة.

العلامة رقم (٢) تتجسد فى الخلاف الذى دار بين الزعامة الثورية من جانب وبين شريف والخديو والقوى الأوربية، التى أسفرت عن موقفها من خلال المذكرتين اللتين تقدمت بهما انجلترا وفرنسا فى ٧ و ٢٦ يناير عام ١٨٨٢، من جانب آخر، حول صلاحيات مجلس النواب الذى شرع فى تكوينه، وما إذا كان من حق هذا المجلس الإشراف على شئون مصر المالية أم يحرم من هذا الحق، وهو الخلاف الذى أدى الى استقالة شريف.

العلامة رقم (٣) تبدت فى تشكيل وزارة محمود سامى البارودى فى ٤ فبراير عام ١٨٨٢ الذى ارتآه المؤرخون «انتصارا لإرادة الثورة» ليس فقط لما كان معلوما من مساندة الرجل للتيار الثورى، وانما الأهم من ذلك لتولى عرابى «وزارة الجهادية» فى الوزارة الجديدة، الأمر الذى استتبعه السيطرة الفعلية من هؤلاء على أداة الحكم.

العلامة رقم (٤) فيما عرف «بمؤامرة الجراكسة»، فقد اتهم كبار ضباطهم بالتآمر

على اغتيال زعماء الثورة، وقدموا لمحاكمة عسكرية حكمت بنفى اربعين منهم الى أقاصى السودان، وأدى رفض الخديو التصديق على تلك الأحكام بإيعاز من القنصلين الانجليزى والفرنسى، الى استحكام الأزمة بين الطرفين، وسعى كل منهما الى التخلص من الآخر، ومع تدخل النواب ورجال الدين تمت تسوية الأزمة، ولكن بدأ ما يمكن توصيفه بمرحلة التربص بين توفيق والثوار.

العلامة رقم (٥) والأخيرة تبدت فى الوضع الشاذ الذى أعقب استقالة وزارة البارودى فى ٢٥مايو عام ١٨٨٢ نتيجة لمذكرة مشتركة ثالثة طالبت بهذه الاستقالة وبابعاد عرابى عن الجهادية (الحربية)، فقد بقيت مصر بعد هذه الاستقالة ٢٦ يوما، وحتى ٢١ يونيه بدون وزارة، واستمر يشرف على تصريف الأمور فيها وكلاء الوزارات وعلى الحفاظ على الأمن أحمد عرابى من خلال موقعه الذى احتفظ به وزيرا للجهادية.

وفى تلك الأيام التى قاربت من الأربعة أسابيع شهدت مصر أحداثا جساما، نرى قبل الاقتراب منها تقليب صفحات الأهرام للتعرف على موقفه من تتابع الأحداث خلال الشهور السابقة.

★★★

السير على حبل مشدود أصدق توصيف يمكن أن يخرج به أى قارىء مدقق لأعداد الأهرام خلال ما يناهز الشهور التسعة الممتدة بين ٩ سبتمبرعام ١٨٨١ و ٥ يونيه من العام التالى حين اختار الاخوان تقلا ايقاف صدور الجريدة حتى تنجلى الأمور، وهذه قصة سوف نعرض لها فى موقع آخر من ذلك الفصل .

صنع هذا «الحبل المشدود» رغبة ظاهرة من جانب الجريدة فى الابقاء على ولائها للخديو توفيق، سواء للعلاقة التى ربطته بآل تقلا منذ آواخر عصر أبيه، أو لاعتبارهم اياه ممثلا للسلطة الشرعية، ولم يكن لديهم من أسباب الثورة عليه تلك التى كانت لدى المصريين الذين شاركوا فى الثورة، وفى استرضاء القوة الثورية بقيادة «أحمد بك عرابى» التى كانت تكسب أرضا كل يوم.

وبينما استمرت رغبة الأهرام فى الولاء للخديو ظاهرة قبل الأحداث الثورية، وفى خضمها، ثم بعدها، فان المأزق الحقيقى الذى وقعت فيه الصحيفه بدا فى محاولتها بناء علاقة جيدة مع قيادة الثورة، وهى فى هذا اتبعت سياسات عديدة..

الترحيب بحكومة شريف باشا التى جاءت بناء على المطالب التى تقدم بها العرابيون يوم الفسحة.

وعندما تطورت الأمور وتولى «صاحب العزّة أحمد بك عرابى» وكالة نظارة الجهادية أبدت عدم شكها «بأن هذه النظارة ستنال بحضرات سعادتلو ناظرها «البارودى» ووكيلها ما يجعلها قدوة فى النظام»!

وبعد أن بدأ عرابى فى ممارسة مهام منصبه فى الوزارة جاء تعليق الأهرام بأن ذلك

جاء «بمثابة اعطاء القوس لباريها » (!)، وذلك بعد تقديم وصف للاستقبال الحافل الذى لقيه عرابى فى الوزارة.

ويقدم الخبر الذى نشره الأهرام فى ١٤ يناير عام ١٨٨٢ نموذجا للموقف الاسترضائى الذى اتخذه من الزعامة الثورية.. جاء تحت عنوان «الجهادية» ما نصه «نرى سعادة الهمام محمود باشا سامى يشتغل فى ادارة نظارته حق الشغل وكفاه انه حزوم لايعرف التردد وهى صفة من أفضل معدات الادارة ونرى نظارته آخذة فى الاقتصاد المحكم ورؤساء الآلايات عاملين تحت رياسة الهمام أحمد بك عرابى بتكميل الآلايات الجديدة غير مبالين بالأتعاب» !

ووصل الأمر بالاخوين تقلا فى اتباع هذه السياسة الى درجة أنهما خرجا عن بعض تقاليد الأهرام حين أفردا جانبا من الصفحة الأولى من العدد رقم ١٣٤٣ لنشر نص ترجمة «المقابلة التى تمت بين سعادتلو عرابى بك ناظر الجهادية ومراسل جريدة الطان».

من جانب آخر وحرصا من الأهرام على عدم التورط فى نشر أخبار الأزمات المتلاحقة فقد كان يصوغها بشكل يتجنب معه اتخاذ أى موقف (!) وتتعدد الأمثلة..

عن الخلاف الذى نشب بين عرابى ورئيس مجلس النواب سلطان باشا، عندما تنشر جريدة التايمز اللندنية خبرا مؤداه أن الأول قد أوسع الأخير تهديدا «ويده على قبضة السيف اشارة الى مايحل بالنواب ان خالفوا الحزب الجهادى (العسكرى)» ، يصف الأهرام ذلك «بالاختلاقات التى لم تكن لتخطرعلى بال».

يبدو ذلك بشكل أوضح فى التعليقات على «مؤامرة الجراكسة» التى كانت مصدرا للخلاف بين الخديو ووزارة البارودى، أو وزارة الثورة، الذى بدأ فى شكل من الحياد البارد .. بل والبارد جدا.

أول خبر نشره الأهرام عن المؤامرة وضعها فيها فى مرتبة الأقاويل والشائعات !

يصمت بعد ذلك لنحو أسبوع بينما مصر كلها مشغولة بأخبارها، وفى نهاية ذلك الأسبوع يسوق خبرا مقتضبا بأن المجلس العسكرى سيصدر الحكم على «١٣شخصا بنزع الرتب عنهم ونفيهم جميعا»، ويصمت مرة اخرى لأكثر من اسبوعين ليقول: «شاغل الجمهور وموضوع أحاديثهم حكم المجلس العسكرى وتنفيذه وقد تشعبت الأقاويل وتنوعت دروبا فبتنا لانفرق بين الصحيح منها وغيره»!

من جانب أخير فانه مع كل هذا الحذر لم يغفل الأهرام التعبير عن ولائه للخديو فى سياق تقديمه لأخبار عرابى كأن يقول وهو يسوق خبر تعيين الرجل وكيلا للجهادية: «اقتبل (استقبل) سمو الخديو أمس سعادة أحمد بك عرابى وكيل الجهادية فشكر للجناب العالى التفاته بتقليده هذه الوظيفة»(!)

وبينما كان يعلم الجميع أن موقف توفيق من الحكم العسكرى الذى صدر فى قضية

مؤامرة الجراكسة كان سببا فى أسوأ نزاع مع حكومة الثورة، الأمر الذى أدى الى استقالة البارودى تطلع الأهرام علينا بقولها: «أننا لم نكن لنشك بفضل سموه الذى له حق التلطيف ولابما لوزارتنا السامية من حسن السريرة وعليه فاننا نعتبر أن هذه المسألة أمست فى حكم الماضى»!

بيد أن كل ذلك لم يجد الأهرام نفعا فالثورات لها منطق آخر .

★★★

يقوم منطق الثورات فى العادة على أن «من ليس معنا فهو علينا» ومن ثم فان سياسة السير على الحبال المشدودة عمرها قصير مهما بلغت مهارة السائرين ..

وقد بدأ الثوار بصناعة «من معنا»، وقد قدم عبدالله النديم أكثر صور هؤلاء بروزا، والذى كان على صلة وثيقة بأحمد عرابى شخصيا، وتشير المراجع الى أن الأخير كان هو الذى أشار على النديم بالكف عن الاستمرار فى اصدار «التنكيت والتبكيت» ذات الطابع الهزلى وانه هو الذى اختار للصحيفة الجديدة التى أصدرها النديم اسم «الطائف» تيمنا «بالبلدة الموجودة بهذا الاسم فى الحجاز»، وتفاؤلا بأنها ستطوف البلاد الاسلامية، وتسجل أحد المصادر المعاصرة أن الطائف كانت «لسان العرابيين الرسمى وترجمانهم الصحيح»!

تبعوا ذلك بأن رفضوا "من علينا"، وقد دفع ثمن تلك السياسات بالأساس الصحفيون الشوام على اعتبار أنه كانت لهم اليد الطولى فى إصدار الصحف الأهلية فى ذلك الوقت.

لم يفرق الثوار فى ذلك بين الصحفيين من أصحاب التوجهات الوطنية الذين عانوا من السياسات الاستبدادية لرياض باشا فى مستهل عهد توفيق وبين غيرهم ..

فقد شجع تطور الأمور على النحو الذى أدى الى اسقاط رياض فى ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ الى عودة رجل مثل أديب اسحق، صاحب جريدة التجارة الشهيرة التى كانت لسانا لجماعة الأفغانى، وشروعه فى اصدار جريدة أخرى باسم «مصر»، غير أن العرابيين لم يستريحوا لما اعتبروه اعتدالا فى سياساتها الأمر الذى دفعه الى الكف عن الكتابة فيها ثم توقف صدور الصحيفة بعد بضعة أشهر من صدورها.

وكان من الطبيعى أن يعانى «الأهرام» من تلك السياسات رغم كل ماتذرع به من أسباب الحرص، فقد نالت الجريدة خلال أسبوع واحد، بين يومى ١٧ و ٢٢ أبريل عام ١٨٨٢ انذارين، ولأسباب لم تخف بواعثها على صاحبى الأهرام..

الانذار الأول تعلل بأن الأهرام قد نقل من جريدة فرنسية خبرا عن المؤامرة على عرابى وقد طالبت ادارة المطبوعات الجريدة «بضرورة تحرى الأمر حتى يثبت صدقه أوكذبه وأنه لايسوغ للصحيفة نشر كل ما يقع تحت يدها من أخبار».

الانذار الثانى الذى أجبر الأهرام على نشره فى صدر صفحته الأولى فى عدده رقم ١٣٧٧ بتاريخ ٢٤ أبريل عام ١٨٨٢ كان لأغرب سبب يمكن أن تنذر بسببه جريدة .. انها «نشرت خبرا يتعلق بفصل عزت افندى من خدمة المالية وقد تضمنت هذه الجملة من الكلام مالا يليق نشره مع جهلكم بحقيقة الحال»!

والواضح أن السلطات الثورية قد استهدفت من وراء ذلك بعث رسالة الى أصحاب الأهرام بأن يحملوا أمتعتهم ويرحلوا، وقد زاد من وضوح تلك الرسالة عمليات الاغلاق التى كانت قد أصابت عددا من الصحف الشامية خلال الأسابيع القليلة السابقة، وقد فهم الاخوان تقلا الرسالة!

فهما من جانب اكتفيا بنشر الانذارات دون أى تعقيب، وهما من جانب آخر قد توقفا عن اصدار الأهرام بعد العدد رقم ١٤١١ الصادر فى ٥ يونيه عام ١٨٨٢ (!)

★★★

امتنع الأهرام عن الصدور لنحو شهرين، وحتى يوم أول أغسطس من نفس العام، وقد شهدت تلك الفترة، على قصرها حدثين من أهم أحداث الثورة العرابية.. الحادثة الأولى التى جرت يوم ١١ يونية والثانية بعد ذلك بشهر بالضبط ..يوم ١١ يوليو.

حادثة ١١ يونية أسماها البريطانيون بالمذبحةMassacre ، ثم تبعهم فى ذلك آخرون فتبنوا التسمية والتى ترجموها أحيانا أخرى بالمجزرة وثالثة بالمقتلة (!)

وقد افترض هؤلاء أنه لابد وأن يكون وراء ماجرى بالاسكندرية فى ذلك اليوم لون من المؤامرة، الأمر الذى دعا خصوم عرابى الى اتهامه بتدبيرها، ودفع أنصاره الى اتهام رجال الخديو مرة والانجليز مرة أخرى .

ولم يضع كثيرون فى حسبانهم أن «المناخ العام» الذى ساد مصر وقتذاك كان يمكن أن يفضى الى مثل هذه الحادثة، والتى وصفها أحد الكتاب الأمريكيين «بالشغب الدموى Bloody riot » والذى نراه وصفا أدق.

يقدم أحد المعاصرين توصيفا لهذا المناخ فيقول : «وكان منذ قدمت سفن حرب الدولتين (انجلترا وفرنسا) قد أخذ الأجانب يفدون عليها أفواجا أفواجا وهم فرحون بها مطمئنون كأنهم لايخشون بجوارها جائرا فكبر ذلك على العامة والسوقة من أهل الاسكندرية وحسبوه اهانة لهم وإذلالا وظنوا أن الأجانب انما يريدون بأهل البلاد الشر فأظهروا التغيظ وبدت منهم دلائل الشر وأغلظوا فى مخاطبة الأجانب فكان إذا كلم الواحد منهم أجنبيا هز له الرأس وأسبل الجفن توعدا وتهديدا فأحس الأجانب بما وراء ذلك وخافوا شر العاقبة فأخذوا فى التأهب والاستعداد وأكثروا من شراء البنادق والبارود واستخدام بعض عظمائهم بعض الأقوياء من أسافل اليونان وزعر الطليان»!

لم يكن غريبا مع ذلك ما حدث فى ذلك اليوم والذى فجره الحادث المشهور بالمشاجرة التى جرت بين المالطى والمكارى المصرى، والذى انعكس بدوره على الأهرام..

فإذا كان الاخوان تقلا قد توقفا عن اصدار الصحيفة قبل الحادث بنحو اسبوع فانه عجل برحيلهما فى أعقابه ضمن ألوف من الناس، خاصة من الأجانب الذين استقلوا ما توافر لهم من سبل النقل البحرى مغادرين البلاد، ورغم أن العديد من المصادر تشير الى أن صاحبى الأهرام قدتركا الاسكندرية عائدين الى جبل لبنان فى أعقاب وقف اصدار الصحيفة الا أن بشارة تقلا يشير فى كتاباته فى الأهرام فى أعقاب إعادة إصدارها فى أول أغسطس أنه كان موجودا وقت شغب الاسكندرية الدموى والذى أسماه بالمجزرة.

من ناحية أخرى فقد تبنى الأهرام موقف خصوم الثورة باتهام عرابى بتدبير الحادثة، فتحت عنوان «مجزرة ١١ يونيو» فى عدده الصادر فى ٧ أغسطس قال : «ان العاصى (يقصد عرابى) وأخاه محمود البارودى بعثا بهذه المأمورية حسن موسى العقاد ونديم ولدينا براهين عديدة تؤيد حجتنا هذه ..»، غير أن هذا القول قد جاء بعد ضرب الاسكندرية وعودة أصحاب الأهرام وانسحاب الثوار من الميناء بكل تأثيرات ذلك على تغير موقف آل تقلا، أوبشارة الذى كان قد سبق أخاه فى العودة.

أثناء تغيب الأهرام أيضا حدثت واقعة ضرب الاسكندرية فى ١١ يوليو وما استتبعها فى اليوم التالى من إحراق المدينة من جانب بعض الضباط العرابيين، حيث تجمع المصادر على اتهام «سليمان سامى» حكمدار الآلاى السادس، والذى اعترف بالفعل بانه قد أصدر الأوامر بذلك، وقد علل البعض هذا العمل بأن من بدأ فى احراق المدينة كان ما أصابها من قذائف الأسطول البريطانى وبأن الاستمرار فى العملية من جانب العرابيين انما جاء تنفيذا لسياسة «احراق الأرض» التى كان قد اتبعها الروس فى مواجهة تقدم نابليون نحو موسكو قبل ذلك بسبعين عامابالضبط !

على أى الأحوال وكيفما كانت الأسباب وراء الحريق فان آثاره كانت محدودة فى المناطق الشعبية، بحيث يمكن توصيفه بحريق من الدرجة الأولى ،وفى المناطق الأوروبية تصاعدت درجات هذا الحريق الى الدرجة الثانية والثالثة، وقد دخلت منطقة وجود الأهرام قرب ميدان القناصل فى أخطر هذه الدرجات .. الدرجة الثالثة !

يؤكد ذلك مشاهدات أحد رجال حاشية الخديو، أحمد شفيق، والذى قال بالحرف الواحد فى مذكراته، عن يوم الحريق :

«.. وما زلنا نسير بين هذه المناظر المؤلمة حتى دخلنا المدينة فى وسط لهب الحرائق التى كانت مشتعلة فى الأحياء المهمة، وكانت فظيعة لاسيما فى شارع شريف وميدان المنشية (القناصل) الذى بدا لنا كأتون نار. وما كنا نتصور اننا سنجتاز هذا الميدان دون أن نصبح طعاما للنيران» .

ولم يكن مقدرا أن تنجو مطبعة الأهرام وأدارته من هذا الأتون، وكان على بشارة بك تقلا بعد عودته الى الاسكندرية فى أعقاب جلاء الجيش المصرى واحتلال البريطانيين

لها أن يتعامل مع هذا الواقع الجديد .. خرائب الجريدة.

وكان من المحتم أن تترك تلك الأوضاع أثرها ليس على نفسية الرجل فحسب وانما الأهم من ذلك على سياسات الأهرام خلال ما يقرب من شهر ونصف الشهر منذ عودته وحتى دخول قوات الجنرال ولسلي الى القاهرة، وهي سياسات استمرت محل جدل شديد بين المعنيين بتاريخ الحركة الوطنية على وجه العموم، وتاريخ الصحافة المصرية على وجه الخصوص، وتاريخ الأهرام على وجه الأخص، الأمر الذى يستحق افراد حلقة لتلك الأيام الأربعة والأربعين بين أول أغسطس و١٣ سبتمبر عام ١٨٨٢، وربما بعد ذلك بقليل!

● مراجع الفصل التاسع عشر

اعداد الاهرام

رقم العدد	التاريخ
١٢٩٢	٥ يناير عام ١٨٨٢
١٢٩٣	٧ يناير عام ١٨٨٢
١٢٩٤	٩ يناير عام ١٨٨٢
١٢٩٩	١٤ يناير عام ١٨٨٢
١٣٠٢	١٨ يناير عام ١٨٨٢
١٣١١	٢٨ يناير عام ١٨٨٢
١٣٢٩	٢٣ يناير عام ١٨٨٢
١٣٤٢	٢٣ فبراير عام ١٨٨٢
١٣٤٣	١١ مارس عام ١٨٨٢
١٣٥٥	٢٨ مارس عام ١٨٨٢
١٣٦٧	١٣ ابريل عام ١٨٨٢
١٣٦٨	١٤ ابريل عام ١٨٨٢
١٣٧٣	١٩ ابريل عام ١٨٨٢
١٣٧٧	٢٤ ابريل عام ١٨٨٢
١٣٨٧	٥ مايو عام ١٨٨٢
١٣٨٩	٨ مايو عام ١٨٨٢
١٤١١	٥ يونية عام ١٨٨٢
١٤١٦	٧ أغسطس عام١٨٨٢
١٤٢١	١٤ أغسطس عام ١٨٨٢
١٤٢٢	١٨ أغسطس عام ١٨٨٢
١٢٤١	١٤ أغسطس عام ١٨٨٢
١٤٢٤	٢١ أغسطس عام ١٨٨٢

١٤٢٧	٢٤ أغسطس عام ١٨٨٢
١٤٣٣	٣٠ أغسطس عام ١٨٨٢

....

- أحمد شفيق: مذكراتى فى نصف قرن جـ١ ، القاهرة ١٩٣٤ .

- ميخائيل شاروبيم: الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ج ٤ القاهرة ١٨٩٩

- تيودور روذشتين: تاريخ المسألة المصرية ١٨٧٥ - ١٩١٠ ترجمة عبدالهادى العبادى، محمد بدران القاهرة ١٩٢٣

- عبدالمنعم ابراهيم الدسوقى الجميعى: الثورة العرابية - بحوث ودراسات وثائقية القاهرة ١٩٨٢

- عبدالمنعم ابراهيم الدسوقى الجميعى: عبدالله النديم - ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية القاهرة ١٩٨٠

سمير محمد طه: أحمد عرابى ودوره فى الحياة السياسية المصرية، القاهرة ١٩٨٦

- Cromer: Modern Egypt Vol I Laudor 1908

Wright, L.C. United States policy toward Egypt 1835 - 1914

الفصل العشرون

الحرب.. حول الشرعية..



■■ الأهرام يتم توزيعه من بيت مدير التحرير الكائن على البحر

■■ الثوار:

توفيق باشا فى قفص الأنجليز وقد انفصل عن حزب الأمة

■■ توفيق:

عرابى إجترأ على أفعال سيئة نفرت جميع الدول من أهل القطر

■■ الاهرام:

اذكروا الأيام الجميلة التى لزمكم فيها التوفيق من يوم تبوأ سمو الخديوى توفيق

بعد ٤٨ ساعة فقط من الشغب الدموى الذى انفجر فى الاسكندرية يوم ١١ يونية عام ١٨٨٢ توجه الخديو توفيق اليها مصحوبا «برجال المعية (الحاشية) وأغلب قناصل الدول الجنرال والمراقبان الماليان » تذرعا بحجة «تطمين خواطر الاوربيين بالثغر».

ومنذئذ انقسمت البلاد الى معسكرين .. الثوار الذين شمل معسكرهم سائر أنحاء البلاد، والذين سارت علاقتهم مع الخديو من سيئ الى أسوأ حتى انتهت الى وصمه بالخيانة والعمالة للانجليز، ومعسكر توفيق الذى تمترس بالاسكندرية واتهم العرابيين بالتمرد والعصيان، بكل ما يعنيه ذلك من خروج عن الشرعية.

وإذا كان هذا الانقسام قد بدأ مكتوما فى أول الامر إلا أنه خلال الشهر التالى، وبالتحديد منذ اليوم الثانى لقصف الاسطول البريطانى للإسكندرية، ١٢ يوليو، كشف كل جانب عن نواياه..

الثوار بأن أرسلوا قوة الى سراى مصطفى باشا التى كان يقيم بها الخديو تمهيدا للقبض عليه وإعادته الى القاهرة، الأمر الذى دعا توفيق وحاشيته الى الخروج الى قصر رأس التين حيث كان الأميرال سيمور، قائد الاسطول الانجليزى وعدد من بحارته واقفين فى انتظاره وأوصلوه الى السلاملك بعد تأدية التحية العسكرية!

الخديو الذى أصدر أمرا لعرابى فى ٢٠ يوليو جاء فيه: «ان خروجك من الاسكندرية بعد القتال الذى جرى فيها، من غير ان يصدر لك أمر بذلك، واستصحابك الجند الى كفر الدوار، بعد ان خربت الخطوط الحديدية، وعطلت البريد وأسلاك التلغراف ..كل ذلك دعانى الى اقالتك من وظيفتك فأنت معزول منذ الآن بمقتضى هذا الأمر من نظارة الجهادية والبحرية »!

وبينما كانت تجرى المعارك الحربية بين الثوار والانجليز كانت هناك معركة اخرى من نوع خاص تجرى بين عرابى والخديو، وهى معركة مختلفة، فقد كان موضوعها الأساسى «الشرعية» وهى المعركة التى نتابعها هنا سواء لقلة ما هو معلوم عنها، أو لدور «الاهرام» فيها، وهو دور لم يلق العناية الكافية لسبب أو لآخر!

★★★

السلاح الرئيسى فى أيدى العرابيين كان اتهام الخديو «بالخيانة»، الأمر الذى بلغ ذروته بقرار الجمعية الوطنية التى انعقدت فى ديوان الداخلية يوم ٢٩ يوليو والذى جاء فيه: «وجوب توقيف أوامر الخديو وما يصدر من نظاره الموجودين معه فى الاسكندرية كائنة ما كانت لأى جهة من الجهات وعدم تنفيذها حيث أن الخديو خرج عن قواعد الشرع الشريف والقانون المنيف»!

صحف الثورة نشطت فى نفس الاتجاه، خاصة صحيفة «الطائف» التى كان يحررها

عبد الله النديم، والتى وضعت قائمة بالخونة على رأسها توفيق «بعد أن يئس كل مصرى من عودته لحظيرة الوطنية، بعد أن اعتز بالانجليز وخلع طاعة السلطان وباع الأمة لأعدائها».

من هذه الصحف أيضا «السفير» التى أصدرها حسن الشمسى بتشجيع من القيادة الثورية، والتى شنت بدورها حملة على الخديو كان مما جاء فيها «ان توفيق باشا فى قفص الانجليز وقد انفصل عن حزب الامة وانضم الى عدوها ولذلك صار مبغوضا من جميع الأهالى»!

وقد ملكت القيادة الثورية الكثير من أسباب النجاح فى معركتها لضرب صورة توفيق فى الوجدان الوطنى لجموع المصريين..كانت تملك اولا انحياز غالبية المصريين اليها، من خلال تصديها الشجاع للتدخل الأوربى الذى تحول الى تدخل عسكرى..

كانت تملك ثانيا السيطرة على كل «بر مصر» باستثناء الاسكندرية التى هرب اليها الخديو، ورغم ما حدث من رفضه اللجوء الى الاسطول البريطانى إلا أنه من الناحية الواقعية قد احتمى بمظلتهم، وهو الأمر الذى أعطى لتهمة الخيانة قدرا من المصداقية.

كانت تملك أخيرا أدوات السلطة الامر الذى مكنها من الترويج لحملتها ضد توفيق سواء من خلال الصحف التى شجعت على اصدارها، بل انها اعتبرت «الطائف» ناطقة بلسانها، أو من خلال الخطباء الذين انبثوا فى طوال مصر وعرضها يدعون للثورة على الخديو، وإذا كان النديم أكثر هؤلاء شهرة إلا أنه لم يكن وحيدا فى هذا الميدان.

وكان على توفيق أن يرد، ولم يكن الاهرام بعيدا عن محاولة الرد الخديوية..



فى بداية الامر اتسم رد الخديو بقدر كبير من الشحوب، فلم يكن يملك أدوات الرد.

كان توفيق بعد ضرب الاسكندرية معزولا عن بقية مصر، بما فيها عاصمة ملكه، وكان الثغر قد تحول فى تلك الشهور الى بقايا مدينة لم يزد عدد سكانها على عشرين ألفا (كان عدد المصريين وقتذاك خمسة ملايين) بعد أن نزح الاجانب منها فى «الخروج الكبير» عبر مياه البحر المتوسط بعد الشغب الدموى ليوم ١١ يونيو، وبعد ان نزح المصريون منها فى «الدخول الكبير» الى العاصمة وسائر الأقاليم المصرية بعد ضرب الاسطول البريطانى للميناء والحريق الذى شب فيه يوم ١١ يوليو.

وفى وسط هذه العزلة كانت أدواته فى الرد على الثوار محدودة للغاية، وكان عليه ان يبحث عن وسيلة أكثر فعالية، وفى تلك الظروف عاد «بشارة تقلا» من الأراضى السورية التى قد كان قد خرج اليها مع سليم فى أعقاب الشغب الدموى، وبعد أن أوقف صدور الاهرام فى ٥ يونيو عام ١٨٨٢.

وتحوط بهذه العودة علامة استفهام كبيرة.. هل عاد الرجل من تلقاء ذاته أم بناء

على دعوة وصلته من توفيق؟

فى تقديرنا أن بشارة قد عاد باتفاق مع الخديو الأمر الذى ترجحه دلالات عديدة..من بين تلك الدلالات أن الخطر الذى كان قد هرب منه صاحبا الاهرام كان ما زال متربصا ، فالميناء قد تحول الى خرائب، والثوار قد نجحوا فى منع وصول المياه العذبة إليه بعد أن أوقفوا جريان ترعة المحمودية، والقوة الثورية لم تكن بعد قد تعرضت للمخاطر الجسيمة التى تعرضت لها بعد نزول القوات الانجليزية فى بورسعيد.

من بينها أيضا أن أحد الاخوين فقط جاء الى الاسكندرية، وهو بشارة، مما يشير الى التحسب للخطر، ثم أن الاخ الاصغر الذى وصل كان الاقرب الى توفيق، سواء بحكم انه هو الذى تدخل لانقاذه عندما حبسه اسماعيل فى عام ١٨٧٩، أو بحكم انه كان مراسل الاهرام فى القاهرة ونجح فى أن يعقد مع الخديو أوثق العلاقات التى تجعله يقبل المخاطرة، على الاقل ليرد الجميل لصديقه الجالس على العرش المهتز!

من بينها كذلك انه فور وصوله الى الاسكندرية أعاد اصدار الاهرام فى أول اغسطس دون اى استعداد صحفى حقيقى، فقد صدر العدد الاول فى شكل شديد البدائية، فى ورقة واحدة (صفحتين)، وببنط مختلف، وقد استمر فى الصدور على هذا النحو حتى تمكن بشارة من تشغيل إحدى آلات الطباعة التى تعرضت للحريق وأخذ فى اصدار الصحيفة عن مطبعة الاهرام بعد أكثر من اسبوعين من اعادة إصدارها، ولابد انه كان وراء هذه العجلة فى عودة الصدور رغبة قوية من جانب توفيق فى استخدام الاهرام فى الحرب حول الشرعية.

فضلا عن كل ذلك فان مقومات توزيع الصحيفة كانت غير متوافرة بالمرة الامر الذى يشى به هذا الاعلان الطريف الذى جاء فى العدد ١٤٢٢ الصادر فى ١٨ اغسطس ١٨٨٢.. قال: «ان عدم وجود الخدمة (العاملين) الكافية فى الادارة توجبنا ان ندعو المشتركين الموجودين فى ثغرنا الى تسلم الجرنال من مكتب الجريدة وهو فى المحل الارضى من البيت سكننا الكائن على البحر بالقرب من مطبعة بناسون»!

ومما يؤكد رجحان ان تكون عودة بشارة تقلا للاسكندرية قد تمت باتفاق مع الخديو أن «الطائف» الناطقة بلسان الثورة قد أصدرت ملحقا خاصا تحت عنوان «سليم وبشارة تقلا وتوفيق باشا» هاجمتهم فيه ووصفتهم بأنهم مأجورون!

غير أن هذا الترجيح يتحول الى يقين من متابعة أعداد الاهرام بعد اعادة صدوره وحتى يوم ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢.. يوم إستسلام عرابى للانجليز..

★★★

تحول الاهرام منذ ان أعيد صدوره فى أول أغسطس عام ١٨٨٢ الى نشرة معادية للحركة الثورية، ليس فقط انطلاقا من انحيازه لتوفيق، وانما ايضا لما كان قد اصابه على ايديها خلال الشهور السابقة.. انذارات ثم وقف وأخيرا حرق، ويقينا فان اصحابه

لم يروا أنهم قد فعلوا ما يستحقون عليه كل ذلك، فهم كانوا قد بذلوا جهودهم لاسترضاء الثوار، لكن دون جدوى، ولعله يكون مفهوما على ضوء كل ذلك روح الرغبة فى الثأر التى تملكتهم، أو تملكت الاخ الذى سبق الى الوصول، والتى نضحت فى سائر اعداد الصحيفة خلال تلك الفترة.

وقد تبنى الأهرام سياسات توفيق بشكل كامل، وهى سياسات تعددت وجوهها، الأمر الذى أصبح فيما بعد عبئا على تاريخ الجريدة (!)

من بين هذه الوجوه السعى الدائب من جانب بشارة تقلا الى شق صف الثوار وتأليبهم بعضهم على بعض، والأمثلة حفلت بها أعداد الصحيفة خلال تلك الفترة الحاسمة من التاريخ المصرى.

العدد ١٤١٦ الصادر فى ٧ أغسطس جاء فيه: «بلغنا أن أحمد بك رفعت يستخدمه عرابى فى انشاء (وضع) الأوامر التركية التى يستند عليها العاصى أمام الأهلين مدعيا أنه يحارب بأمر خليفة المؤمنين..» ثم يطلب من الضابط أن يترك مثل هذا ويلحق بمعسكر الخديو.

العدد ١٤٢٣ الصادر فى ١٩ اغسطس يخاطب فيه المصريين ويتساءل: «الى متى تتبعون الظالم العاصى.. ارجعوا هداكم الله واتقوا ربكم وأطيعوا أولياء الأمور منكم فانهم بأمر الله يحكمون وهم أدرى منكم بمصالحكم»!

العدد ١٤٣٩ يخاطب فيه «نبهاء القوم وعمد البلاد ويحذرهم من ان يغتروا بجهل عرابى وأعوانه بل تبصروا فى عواقب الأمور واعلموا ان البلاد محكوم عليها بوفاء الدين آجلا أو عاجلا وان الحق يعلو ولا يعلى عليه».. حق الخديوى طبعا!

وجه آخر تمثل فى تبنى وجهة النظر الخديوية بتوصيف الحملة العسكرية البريطانية بأنها مجرد «تجريدة لتأديب العاصى عرابى» وانها سوف تجلو عن البلاد بمجرد تأديتها لمهمتها، وقد احتل هذا الجانب مساحات واسعة من أهرام أغسطس وسبتمبر عام ١٨٨٢.

في العدد الصادر يوم الاثنين ٢١ أغسطس وتحت عنوان «مقاصد بريطانيا» يؤكد صاحب الاهرام «ان الدولة البريطانية لا مقصد لها فى الحرب الحالة الا رجوع الحالة لما كانت عليه قبل ظهور عصيان عرابى وسترينا الأيام حقيقة ذلك» (!)

أوقع من هذا عدد اليوم التالى الذى خصصت صفحته الأولى لتلك القضية، وقد تضمنت هذه الصفحة مقالا افتتاحيا تحت عنوان «انكلترة ومصر» تؤكد انها، أى انكلترة «لم تزل على مبدأها الوحيد لا تقصد غاية شخصية انما ترغب ارجاع نظام البلاد وتأييد سلطة الحضرة الخديوية» كما يتضمن ملخص الخطاب الذى ألقاه جلادستون رئيس الوزراء فى مجلس العموم يرد فيه على التساؤل عما اذا كانت بلاده تنوى احتلال مصر الى أجل غير محدود: «بأن ذلك الفكر لم يخطر لنا قط ببال وان

أمرا كهذا مخالف لمبادىء ومقاصد الحكومة الانكليزية ومضاد لتعهداتنا أمام أوروبا ».

انطلاقا من هذا.. ان انجلترا لم تأت الا لتأييد سلطة «الحضرة الخديوية» تنشر الأهرام ديكرتو (مرسوم) خديوى يعلن فيه التصريح «لحضرة الأميرال وقومندان عموم القوات البريتانية.. بالاستيلاء على كافة النقط التى يرون لزوم اتخاذها لحركاتهم الحربية ضد العصاة، وان كل مخالفة لتلك الارادة الخديوية تعرض مرتكبيها لأشد العقوبات»!

★★★

الأهم من كل ذلك كان دور الأهرام كلسان لتوفيق فى «حرب الشرعية» والتى مرت بمرحلتين..

المرحلة الأولى تجريد عرابى من شرعيته القانونية، وهى الشرعية التى استمدها من أن مناصبه التى تولاها «بارادة سنية خديوية» ارتأى توفيق ان يحرمه منها بإرادة سنية أخرى.

صدرت تلك الارادة الأخيرة يوم ٧ اغسطس عام ١٨٨٢ ونشرها الأهرام فى صدر صفحته الأولى تحت عنوان «صورة ارادة سنية صادرة من الحضرة الفخيمة الخديوية الي كافة أهالى القطر المصرى» وجاء فيها:

«نحن خديو مصر نعلن أن أحمد عرابى باشا قد اجترأ على أفعال سيئة عادت على القطر المصرى والناس بالخسائر ونفرت جميع الدول من أهله وبناء على ذلك صار يعد عاصيا مستحقا للمعاقبة الشديدة شرعا وقانونا... نكرر الانذار للناس عامة والجند خاصة بأن كل من اتبع هذا العاصى واستمر فى عصابته فهو آثم عند الله ولا عذر له لدينا»!

واذا كنا لا ندري ما إذا كان بشارة تقلا قد شارك في صياغة هذه «الارادة» أم لا، بيد أن ما نطالعه أن الأهرام قد تبنى بعد ذلك توصيف عرابى بالعاصى، أى التوصيف الذى جاء فى تلك الارادة.

نطالع أيضا بعد ذلك بسبعة عشر يوما وفى أهرام ٢٤ أغسطس «ارادة» أخرى يطلب فيها توفيق من «علماء وذوات وعمد ومشائخ البلاد ووجهائها وتجارها الذين نتوسم فيهم الخشية والسكينة والاخلاص الحقيقى لجانب الحكومة أن يمتثلوا لأوامرنا هذه وينظروها بعين النصيحة المحضة لصالحهم وصالح القطر ويلزموا العامة باتباعها».

نطالع أخيرا هذه الحملة التى شنها الأهرام لتحسين صورة توفيق وان كنا لا نعتقد أنها كانت على غير قناعة محرر الصحيفة وقتئذ.. «بشارة باشا تقلا»...

تحت عنوان «اعقل وتوكل» جاء المقال الافتتاحى لأهرام ٢٣ أغسطس، وكان من

بين ما تضمنه مخاطبة المصريين بالقول : «أذكروا تلك الأ يام الجميلة التى لزمكم فيها التوفيق من يوم تبوأ سمو الخديو توفيق أريكة الخديوية. أذكروا أيام الرخاء والبركة والعدل والاستقامة والحرية...» ولعل بشارة كان يعبر بذلك عن بعض ما فى مكنون نفسه لا مكنون المصريين!

فى العدد رقم ١٤٤١ الصادر فى ٩ سبتمبر، قبل موقعة التل الكبير بأربعة أيام فحسب ، يجىء المقال الافتتاحى تحت عنوان «سمو توفيق باشا الأول خديو مصر» وقد تضمن من أسباب المديح وتلمس الأعذار للخديو على استعانته بالانجليز ما لم يتضمنه أى مقال سابق..

بيد أن هذه المرحلة على كل ما تضمنته قد أثبتت قصورا، فلعل توفيق ومعه الأهرام لم يتنبها فى البداية الى أن الشرعية القانونية تفقد الجانب الأهم من أسباب فاعليتها فى مواجهة الشرعية الثورية!

من ثم أخذ جميع من فى معسكر الخديوى يبحثون عن حرمان الثوار من الجانب الاهم من شرعيتهم، وكانت الشرعية الدينية التى يملكها الخليفة العثمانى وحده، وفى هذا الصدد بذلت جهود سواء من جانب الخديوى أو جانب الانجليز ليصدر السلطان بيانا يعلن فيه عن عصيان عرابى، وهو ما تردد فيه الباب العالى طويلا على اعتبار أن عرابى يدافع عن الاسلام من خلال مواجهته لقوة أوروبية معتدية.

وتشير متابعة «الأهرام» الى الأهمية التى كان يعول عليها معسكر الخديوى فى إصدار البيان السلطانى..

تحت عنوان البشرى يقول أهرام ٩ أغسطس: «أفادت أخبار دار الخلافة الخصوصية أن الحضرة السلطانية قبلت شروط انكلترة كلها وتوقع اليوم على اعلانها ان عرابى عاص»!

غير أن البشرى لم تتحقق وبدا القلق ممسكا بتلابيب معسكر الخديوى الأمر الذى عبر عنه الأهرام الصادر فى ٢٤ أغسطس تحت عنوان «العثمانية ومصر» كان مما جاء فيه المطالبة «بالاسراع الاسراع فهو لازم جدا»!

وجاء الفرج لرجال هذا المعسكر عن طريق لندن وليس عن طريق عاصمة الدولة العلية، ففى ٢٨ أغسطس عام ١٨٨٢ وبالبنط الكبير نشر الأهرام «نص البياننامة (البيان) السلطانية المعلنة عن عصيان عرابى ولكن «نقلا عن التيمس»!

وبعد مقدمة طويلة عن تطور الأوضاع انتهى البيان المذكور الى القول «أن الحضرة السلطانية تؤيد وتثبت سلطة وامتيازات الحضرة الخديوية وتحكم بعصيان عرابى وقد أصدرنا هذه البياننامة داعين الجميع للخضوع لارادتنا الشاهانية»!

وتجمع المصادر التاريخية أنه كان لهذه الارادة الشاهانية وقع الكارثة على زعامة

الثورة، حتى انها قد حاولت بكل الوسائل منع تسرب اخبارها الي صفوف المحاربين فى هذا التوقيت الحرج، بيد أنه من جانب آخر فقد نشط رجال الخديو على توصيل اخبارها بكل الوسائل للقوات المصرية المتمترسة عند التل الكبير.

واذا كانت القوات الغازية قد استعانت فضلا عن حسن التجهيز بقوة المال الذى اغدقته علي القبائل البدوية في مناطق القتال، فانها قد استعانت أيضا بالمنشور السلطاني الذى اضعف كثيرا من معنويات الرجال الذين لم يكونوا على استعداد للحرب تحت راية «عاص على دولة الخلافة» الأمر الذى أدي في النهاية الى قصور الصمود الثورى فى التل الكبير وفرار عرابى الى القاهرة فيما نشرته الأهرام في عددها الصادر يوم ١٥ سبتمبر تحت عنوان «البشرى الكبرى» وجاء فيها « أن الجيش الانكليزى قبض على العاصي عرابى»!

وكان على مصر أن تدفع ثمن هذه «البشري الكبرى» ومن الغريب أن الأهرام أيضا دفع جانبا من هذا الثمن!

● مراجع الفصل العشرون

اعداد الاهرام

رقم العدد	التاريخ
١٤١٦	٧ اغسطس عام ١٨٨٢
١٤١٧	٨ اغسطس عام ١٨٨٢
١٤٢١	١٤ اغسطس عام ١٨٨٢
١٤٢٢	١٨ اغسطس عام ١٨٨٢
١٤٢٤	٢١ اغسطس عام ١٨٨٢
١٤١٥	٢٢ اغسطس عام ١٨٨٢
١٤٢٦	٢٣ اغسطس عام ١٨٨٢
١٤٢٧	٢٤ اغسطس عام ١٨٨٢
١٤٢٨	٢٥ اغسطس عام ١٨٨٢
١٤٢٩	٢٦ اغسطس عام ١٨٨٢
١٤٢٠	٢٨ اغسطس عام ١٨٨٢
١٤٣٩	٧ سبتمبر عام ١٨٨٢
١٤٤١	٩ سبتمبر عام ١٨٨٢
١٤٤٦	١٥ سبتمبر عام ١٨٨٢

احمد شفيق، مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ، القاهرة ١٩٣٤ .

د. سمير محمد طه، احمد عرابى ودوره فى الحياة السياسية المصرية ، القاهرة ١٩٨٦

د. سامى عزيز، الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الانجليزى القاهرة ١٩٦٨

د. لطيفة سالم، صحافة الثورة العرابية ـ فصل فى كتاب مصر للمصريين مائة عام على الثورة العرابية، اصدار مركز الدراسات السياسية الاهرام ١٩٨١.

الفصل الحادى والعشرون

محاكمة الدقائق الخمسة!



■ ■ توفيق:

اغلال حديديه لعرابى والسير أمام عربة حضرة الخديوية

■ ■ بريطانيا:

صناعة الشهداء سياسة مرفوضة

■ ■ عرابى:

يطلب المحكمة «والاطمئنان على أخوتى المسجونين»

■ ■ الأهرام:

جزيرة سيلان مستعمرة مصرية عاصية!

الى القاعة الكبيرة فى نظارة الأشغال التى كان يشغلها مجلس النواب بالقاهرة والتى تم اعدادها سريعا لتكون قاعة للمحكمة، وفى تمام الساعة التاسعة من صباح يوم الأحد ٣ ديسمبر عام ١٨٨٢ دخل اعضاء المحكمة العسكرية التى كانت قد شكلت قبل ذلك بأكثر من شهرين بمرسوم خديو للحكم فى «الدعاوى على كل من ارتكب جريمة العصيان أو التعدى على السلطة الخديوية او الاهانة للذات الخديوية»!

كان اول من دخل، وفقا لوصف مدير تحرير الأهرام، بشارة تقلا، الذى كان حاضرا الجلسة: «حضرة سعادتلو رؤوف باشا (رئيس المحكمة) وحضرات الأعضاء.. وجميعهم بالملابس الرسمية والنياشين الفاخرة، فجلس ثلاثة عن يمين سعادة الرئيس وثلاثة عن يساره، وكان فى الجهة اليمنى حضرة السير تشارلس ويلسون وبعض الانجليز ومن الجهة اليسرى كتاب اسرار قنصلاتو انجلترا الجنرالية.. » وبدأت أشهر محاكمة فى تاريخ مصر خلال القرن التاسع عشر بعد محاكمة الفرنسيين لسليمان الحلبى قاتل كليبر، قبل ذلك بأكثر من ثمانين عاما ،تلكم هى محاكمة زعيم الثورة احمد عرابى باشا.

ويصف عدد الأهرام فى اليوم التالى.. العدد ١٥١١ الصادر يوم الاثنين ٤ ديسمبر عام ١٨٨٢ ما جرى فى تلك المحاكمة فيقول: «ولما انتظم المقام امر حضرة الرئيس بإحضار عرابى فتوجه ضابط وأتى به يخفره عسكريان ببنادقهم فدخل القاعة وهو اصفر اللون وجلس فخاطبه سعادة الرئيس قائلا: احمد باشا عرابى فانتصب، فقال الرئيس: اوضحت بمجلس التحقيق انك عصيت وحملت السلاح ضد الحضرة الخديوية فهل تعترف أنت بذلك؟

«فلما انتهى حضرة الرئيس جلس عرابى ووقف المسيوبرودلى محاميه وقال باللغة الفرنسوية ان موكلى يعترف بارتكاب العصيان وانا المحامى عنه اصدق على ذلك واليكم اعلانا موقعا منه بهذا الشأن، فأخذ كاتب المجلس هذا الاعلان العربى العبارة وتلاه على الحضور: {اننى اعترف بعصيانى ضد الحضرة الخديوية واقر بذلك موافقة لرأى المحامى عنى - التوقيع: احمد عرابى المصرى}، فعند ذلك انتصب سعادة الرئيس وقال ان الحكم سيتم بعد الظهر».

ويعلق مدير تحرير الأهرام على ما رآه قائلا: «وهكذا انفضت الجلسة التى لم تستغرق من الوقت الا خمسة دقائق، تلك هى المحاكمة التى طنطنت الجرائد بأحكامها وقال بعضهم أنها ستستغرق شهرا أو شهورا فهى لم تستغرق من الزمن الا دقائق خمسة.

وإذا كان «الأهرام» قد عبر عن دهشته التى لم تلبث أن تحولت إلى استهجان فيما

تكشف عنه اعداده التالية، فلابد وان غالبية المصريين قد اعتراهم بدورهم الكثير من اسباب الدهشة وان لم يشاركوا الاهرام استهجانه!، ولنبدأ القصة من اولها..

★★★

بعد مضى وقت قصير من القبض على «احمد عرابى» وزعماء الثورة أخذ يتبلور تياران حول مصير الرجل واخوانه..

التيار (الاول) ساد فى الدوائر الخديوية، وهو التيار الذى غلبت عليه نوازع الانتقام والتى تبدت بعد ايام قليلة من القاء الرجل وصحبه فى السجن..

فبعد اربعة ايام فقط امر الخديو باخلاء منزل عرابى بحجة النية على تحويله الى مستشفى للجرحى!

فى نفس الوقت تم تحويل مبنى الدائرة السنية الى سجن والذى خصصت حجرات دوره العلوى «للمذنبين من الدرجة الاولى» وكان منهم عرابى بالطبع، والذين عانوا من الحبس الانفرادى، فضلا عن ان خدم واغوات الخديوى قاموا بتفتيشه اربع مرات «بصورة غير لائقة» على حد ما جاء فى خطاب منه الى محاميه.

وكان من المتوقع على ضوء التطورات السابقة ان ينضم «الاهرام» إلى هذا التيار فيما عبر عنه منذ اللحظة الأولى..

يقترح الأهرام فى ٢٠ سبتمبر ١٨٨٢ بمناسبة عودة «الحضرة الفخيمة الخديوية مع حضرة النظار الكبار الى العاصمة ان يغل عرابى والسامرى (الاسم الذى أطلقه الأهرام على البارودى) وبقية إخونهم بالحديد ويمشوا امام عربة الحضرة الخديوية الى مقامه الاسنى فيراهم اهل العاصمة عموما وتطيب قلوب المخلصين للحضرة الخديوية..»!

بمناسبة نقل عرابى من قشلاق عابدين الى سجن الدائرة السنية يطلع الأهرام على قرائه يوم ٦ اكتوبر واصفا عملية النقل وكيف أنه « كان محاطا بالعساكر الانكليزية مسوقا ذليلا حقيرا..»

التيار (الثانى) ساد فى الدوائر الانجليزية وكان يقوم على العمل على توفير ما اسموه «محاكمة عادلة» او على حد تعبير الاهرام «محاكمة انصافية» لعرابى وبقية الثوار..

والفكرة الشائعة انه قد تزعم هذا التيار المستر ولفرد سكاون بلنت Blunt قطب حزب الأحرار، وهو الحزب الذى تم فى عهد احدى وزاراته احتلال مصر، وان الرجل قد نجح منذ زيارته الى القاهرة فى شتاء عام ١٨٨١ فى عقد علاقات وثيقة مع قيادة الحركة الوطنية، خاصة عرابى ومحمد عبده، وانه منذئذ كان يعبر عن وجهة نظر تلك الحركة فى الدوائر البريطانية حتى ان زعيمها اسماه «بصديق العرابيين».

الفكرة الشائعة ايضا ان الرجل قد انبرى بعد ضرب الثورة لتوفير محاكمة عادلة

لزعمائها من خلال تكليف محامين انجليز للدفاع عنهم، ونجح فعلا فى تكليف اثنين من هؤلاء هما برودلى ونابيير.

ماليس شائعا موقف الحكومة البريطانية من مساعى المستر بلنت وما إذا كانت تلك المساعى قد تمت بمعزل عن دوائر الخارجية فى لندن..

تشير الدراسات الحديثة ان المستر بلنت كان وثيق الصلة بتلك الدوائر وان مساعيه قد تمت بتنسيق معها وهو ما تتعدد الأدلة عليه ربما يكون أهمها الانذار الذى بعث به اللورد جرانفيل، وزير الخارجية البريطانية للحكومة المصرية عندما تباطأت فى قبول المحامين الانجليز المكلفين بالدفاع عن عرابى، وقد جاء فيه بالحرف الواحد:

«ليس هذا أوان ظهور الحكومة المصرية بمظهر المعارضة والممانعة وان استمرارها فى الاعتراض يعرضها للخطر، وهو خطر لن تقتصر آثاره على الوزارة وحدها بل سيمتد لمركز الخديوى نفسه. وإذا لم تستجب الحكومة المصرية لمطلب الحكومة الانجليزية فى غضون ثمانية ايام من تقديم هذا الانذار فعليها أن تتحمل ما يترتب على ذلك»!

وفيما أثبتته الأحداث فقد كان وراء هذا الموقف البريطانى اسباب سياسية وليس الادعاء بتوفير «المحاكمة العادلة»..

السبب الاول ان بريطانيا فى تعاملها مع زعماء ثورات البلاد التى احتلتها لم تكن على استعداد لصناعة «الشهداء» الذين يبقون أحياء فى ضمائر اممهم ونماذج تثير مخيلاتها الوطنية ، كانت هذه التعاملات تفضل اللجوء الى وسيلة اخرى، تلكم هى وسيلة ضرب الصورة البطولية .. ولآخر ملمح!

السبب الثانى أن مجريات تلك المحاكمة أتاحت الفرصة للبريطانيين لتوصيل الرسالة الأولى للنخبة الحاكمة فى مصر.. تقول هذه الرسالة ان الذى اصبح يحكم فى مصر هى دوائر الهوايتهول وليس دوائر عابدين. ووصلت الرسالة بأسرع مما كان يعتقد اى شخص بمن فيهم مدير تحرير الأهرام الذى استمر يتابع من القاهرة ما يحدث!

★★★

تحت عنوان «المستر بلنت وأضاليله » يتهم الأهرام الرجل بأنه اخذ «اخيرا فى دس الدسائس وبعث بمحام انجليزى فأتى العاصمة ليحامى عن عرابى» ثم يخاطبه بالقول: «بأى وجه تتقدم لهذه المحاماة الا تعلم أن لنا قانونا وبموجبه نجرى ايسمح قانونكم العسكرى بأن يكون للمجرم فى المجلس العسكرى محام. فكفاك ياحضرة المستر بلنت ما اتيت من مضار»!

بعد ذلك بخمسة ايام، وفى العدد الصادر فى ١٦ اكتوبر عام ١٨٨٢ ، يعود الاهرام لنفس المسألة حين يقول ان «بلنت الانكليزى كان فى نيته ان يأتى قطرنا للمحاماة عن عرابى ولكن الحكومة لم تأذن له بذلك وقيل انها اصدرت الأمر بالقبض عليه لو أتى

ولكن حضرته لم يقنط بل أرسل محامى انكليزى وزوده بما يعلم من الترهات»!

والواضح ان بشارة تقلا الذى كان مقيما فى القاهرة طوال الوقت كان وثيق الاتصال بدوائر عابدين ويعبر عن مواقفها لأنه ما ان وصل الانذار البريطانى إلى تلك الدوائر حتى انبرى للهجوم على المؤسسات الانكليزية التى دافعت عن فكرة التدخل لتوفير «محاكمة انصافية» للمقبوض عليهم.

يهاجم الاهرام الصحافة الانجليزية لنشرها مايفيد أن الحكومة المصرية تسىء معاملة المحبوسين ويرى انه «افتراء مبين» ويتساءل «أين كانت هذه الجرائد يوم معاملة العصاة للمحبوسين الأبرياء»!؟

بعد ذلك باربعة أيام يعود للهجوم ولكن على البرلمان الانجليزى هذه المرة الذى بحث قضية المحاكمة ويتهمه بأنه قد «نسى ايرلندا وأهل الزولوس (قبائل الزولو فى جنوب افريقيا) وغفل عن افغانستان ووجه النظر إلى مصر واختص منها مسألة محاكمة عصاة أتوا البلاد ببلايا ورزايا عديدة»!

فى نفس الظروف وبعد أن طال الوقت فى التحقيقات نتيجة لتدخل المحامين الانجليز، وهو التدخل الذى تطلب وقتا لترجمة الكثير من اوراق القضية، يعرب الأهرام عن برمه وشكوكه، وهو ماعبر عنه بالقول: «اننا نتوقع بفروغ صبر افتتاح ابواب المجلس الحربى لنقف على مايكنه المستقبل من العجائب والغرائب، فقد سأم العالم الانتظار»!

★★★

العجائب والغرائب التى كان يتوقعها الأهرام كشف عنها بعد ذلك المحامى البريطانى الذى تولى مهمة الدفاع عن عرابى المستر برودلى فى كتاب نشره فى لندن بعد عامين من المحاكمة تحت عنوان «كيف دافعنا عن عرابى وصحبه

How We defended Arabi and his friends

والقصة مليئة بالتفاصيل وإن كان يعنينا منها هنا ثلاثة جوانب..

الجانب الأول متمثل فيما قدمه المحامون الانجليز من دفوع لهيئة التحقيق فندوا خلالها أغلب التهم التى وجهت لقادة الثورة، وكانت عشرة بدءا من حادثة محاكمة قصر النيل وحتى «الاحاطة بسراى الخديو» فى الاسكندرية بهدف الاضرار به.

وفى تلك الاثناء تم التلويح للحكومة الخديوية بأن الباب العالى لن يقبل حكما بالاعدام، وهو مالاتقبله حكومة لندن ايضا لرجل عسكرى وقع فى اسر قواتها، وان محاكمة طويلة سوف تؤدى إلى «نشر غسيل السياسة القذر» فى مصر.

الجانب الثانى بدا فى ذلك التنسيق الظاهر بين ممثلى الحكومة البريطانية فى المحاكمة، المستر برودلى، والمستر بلنت، واللورد دفرين، السفير البريطانى فى

استنبول، الذى كان قد وصل وقتئذ إلى القاهرة مكلفا بمهمة محددة من وزارة الخارجية البريطانية.. مهمة النظر فى ترتيب الامور المصرية بعد توقف ماأسماه البريطانيون «بالاضطرابات الاخيرة» وإن كان المسمى الدقيق لتلك المهمة «وضع السياسات البريطانية فى مصر بعد احتلالها».

وقد وصف برودلى اللورد دفرين بأنه كان يملك يدا من حديد فى قفاز من المخمل ويعترف بأنه قد استخدم هذه اليد الحديدية مع الحكومة المصرية لاملاء السياسات البريطانية فى القضية، كما أملاها فى غيرها!

وتأسيسا على هذين الجانبين جاء الجانب الثالث متمثلا فى التوصل إلى ماأسماه برودلى بالتسوية Compromise، وكانت كما ذكرها فى كتابه بالنص:

«تسحب كل الاتهامات الموجهة ضد الباشوات: عرابى ومحمود سامى طلبة وعلى فهمى وعبد العال ويعقوب سامى ومحمود فهمى، فيما عدا العصيان البسيط، ويستدعى هؤلاء للمثول امام المحكمة العسكرية للاعتراف بهذه التهمة، وأن تصدر عقوبة الاعدام مصحوبة بمرسوم معدل للعقوبة إلى النفى من مصر يقرأ فورا، ويفقد المسجونون رتبهم واملاكهم بمقتضى مراسيم لاحقة، ولاتصادر أملاك زوجاتهم، وأن يتعهد المسجونون بالتوجه إلى أيه جهة من الممتلكات البريطانية المحددة لهم، ويبقون فيها حتى يسمح لهم بمغادرتها».

يقول المستر برودلى أنه كان مطلوب لنجاح التسوية الحفاظ على سريتها، وأنه أبلغ عرابى عن طبيعتها فى لقاء منفرد معه فى محبسه يوم ٢٩ نوفمبر، والحوار الذى أورده الرجل فى كتابه يعطى بلا شك صورة زاهية للزعيم المصرى.

فهو من جانب كان يفضل المحاكمة لأنها كانت سوف تعطيه الفرصة أن يواجه متهميه وجها لوجه، وهو من جانب ثانى اهتم بمصير من اسماهم «اخوتى المسجونين» وطمأنه برودلى بأنهم سيكون لهم نفس النصيب من الرأفة، وعندما تساءل الزعيم المصرى: «هل سبق أن عاملت انجلترا عدوا مهزوما بهذه الصورة» جاءت اجابة برودلى أن نابليون قد لقى نفس المعاملة، وانتهى اللقاء بقبول عرابى بالتسوية معلقا على مسألة تجريده من النياشين والاملاك بقوله: «بالنسبة للنياشين لايعنينى أن افقدها فلم اسع لها أبدا، و أما أملاكى فليس لى شيء سوى ماخلفه أبى وهو يكاد يفى لنا بالزاد»!

المهم بالنسبة للأهرام فى هذه التسوية أن كل أطرافها حافظوا على سريتها، رغم قولة برودلى بصعوبة الحفاظ على السر فى الشرق، وهو حفاظ بدا فى دهشة بشارة تقلا من سير المحاكمة مما كشف عن جهله تماما بما تم الاتفاق عليه رغم قربه الشديد من

دوائر القصر، وهى الدهشة التى استمرت تعتريه بعد صدور الحكم، ثم فى تعليقه على القضية برمتها بعد ذلك.

★★★

فى نفس العدد رقم ١٥١١ من الاهرام الصادر فى ٤ ديسمبر عام ١٨٨٢ والذى ساق خبر المحاكمة جاء خبر الحكم الذى صدر فى نفس اليوم، ونترك لمدير تحرير الجريدة رواية ماحدث.. قال:

«ولما كانت الساعة الثالثة بعد الظهر رجعنا إلى محل المجلس ووفد العالم (الحضور) حتى بلغ عددهم نحو مائتين بينهم قليل جدا من الوطنيين، وحضر فى هذه الحفلة (!) دولتلو نوبار باشا».

ويستطرد فيصف دخول هيئة المحكمة واحضار احمد عرابى الذى خاطبه رئيس المحكمة بقوله: «بناء على اعترافك بالعصيان واقرارك بحملك السلاح ضد الحضرة الخديوية لم يكن للمجلس إلا أن يصدر الحكم عليك ولقد أصدره باتفاق الآراء ويقضى على من أتى العصيان بالاعدام فالمجلس قضى بقتلك».

واستكمالا لتنفيذ بنود «التسوية» اعقب « سعادتلو رؤوف باشا » النطق بالحكم بالقول: «اننا لما رفعنا هذا الحكم إلى الحضرة الخديوية التى هى منبع الجودة والرحمة رأت أن تستبدل القصاص المذكور بقصاص آخر»، ثم ناول كاتب الجلسة أمرا خديويا نص على استبدال القصاص بنفى أحمد عرابى من «جميع ارض مصر وملحقات الحكومة المصرية وإذا رجع إلى أرض مصر فلا يعامل بالعفو بل يقتل»!

ونترك لبشارة تقلا التعبير عن انذهاله، والتوصيف من عنده، قال: «انصرف الحضور والذهول متول والأفكار مختلفة والآراء متباينة ونكتفى الآن بأن نخاطب مستر بلنت بقولنا له طب نفسا وقر عينا .. فقد انقضى الامر على ماتتمنى وتروم»!

ويلحق الرجل وصفه للمحاكمة بتقرير فى اليوم التالى يصفها فيه «بالغريبة» ويتحدث عن «التأثير والانذهال الذى اصاب اهل العاصمة» وانهم سيزدادون انذهالا لما يعلموا ان محاكمة ستجرى اليوم التالى لاربعة من رؤساء العصيان هم محمود البارودى وطلبة عصمت وعبد العال حشيش ومحمود فهمي، ولاينسى فى هذه المناسبة أن يعقب ساخرا من أن انتظار ثلاث أيام لحين محاكمة المجموعة الجديدة سببه «وجوب وقت كاف لاستراحة هيئة المحكمة»!

ويشير إلى انه اصبح من المعلوم مقدما الحكم الذى سيصدر على هؤلاء وعلى اربعة آخرين سيقدمون للمحاكمة فى اليوم التالى وأن هؤلاء الثمانية تقرر نفيهم مع «رئيسهم عرابى إلى جزيرة بالقرب من كلكته وهى منفى المجرمين السياسيين وسيذهبون اليها مع عائلاتهم»، ولم ينس فى هذه المناسبة أن يختم تقريره بتعليق لاذع حينما قال أن هؤلاء «سيؤلفون هناك مستعمرة مصرية عاصية»!

ولم يكن لمثل هذه الاحتجاجات أى تأثير على السير فى مجريات القضية وفقا «للتسوية» التى عقدت وإلى نهايتها حيث تلقى جميع زعماء الثورة الحكم نفسه وتهيأوا لمغادرة الوطن.

وقد اتخذت كل الاحتياطات لاتمام سفر عرابى وبقية زعماء الثورة من السويس بسرية «بحيث لايكون مجتمعا بالمحطة أحد ولاأحد يقرب نحو الوابور ولا العربية الذين هم بهاولا أحد يقابلهم ولايكلمهم مطلقا وبذل كل الجهد فى هذه الاجراءات حتى لايترتب عليها شوشرة ولاتجمع ناس من أصله» وفقا للتعليمات التى صدرت من الخديوى للمسئولين فى السويس.

وفى ٩ يناير عام ١٨٨٣ دخلت الباخرة المقلة للثوار المصريين إلى ميناء كولمبو عاصمة جزيرة سيلان أو سرنديب كما كانت تسمى وقتذاك، التى تقرر نفيهم اليها. وفى الجزيرة التى اطلق عليها البعض توصيف «جنة آدم»، قضى الرجل نحو تسعة عشر عاما كانت الاحداث خلالها تتوالى على ارض الكنانة، طويت خلالها صفحة من تاريخها لتفتح صفحات اخرى مليئة بالأحداث كان الأهرام فى قلبها!

● مراجع الفصل الحادى والعشرون

اعداد الاهرام

رقم العدد	التاريخ
١٤٥٠	١٨٨٢/٩/٢٠
١٤٥٩	١٨٨٢/٩/٣٠
١٤٦٤	١٨٨٢/١٠/٦
١٤٦٦	١٨٨٢/١٠/٩
١٤٦٨	١٨٨٢/١٠/١١
١٤٦٩	١٨٨٢/١٠/١٢
١٤٧٠	١٨٨٢/١٠/١٣
١٤٨١	١٨٨٢/١٠/١٤
١٤٧٢	١٨٨٢/١٠/١٦
١٤٧٥	١٨٨٢/١٠/١٩
١٤٧٩	١٨٨٢/١٠/٢٧
١٤٨١	١٨٨٢/١٠/٣٠
١٤٩٧	١٨٨٢/١١/١٧
١٥٠٤	١٨٨٢/١١/٢٥
١٥٠٥	١٨٨٢/١١/٢٧
١٥٠٩	١٨٨٢/١٢/١
١٥١١	١٨٨٢/١٢/٤
١٥١٢	١٨٨٢/١٢/٥
١٥١٣	١٨٨٢/١٢/٦
١٥١٥	١٨٨٢/١٢/٨
١٥١٩	١٨٨٢/١٢/١٣

● احمد شفيق ، مذكراتى فى نصف قرن ج ١، القاهرة ١٩٣٤
● سمير محمد طه ، احمد عرابى ودوره فى الحياة السياسية المصرية القاهرة ١٩٨٦
● مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام؛ مصر للمصريين ـ مائة عام على الثورة العرابية القاهرة ١٩٨١

Blunt Wilfrid Scawen; Secret History of the English Occupation of Egypt London 1907
Broadly, A.M. How we defended Arabi and his friends London 1884

ديوان الحياة المعاصرة

كشاف تحليلى

للأعلام والبلدان والموضوعات

- ☐ مرتب ترتيب قاموسى
- ☐ روعى ان الكلمة هى الوحدة فى الترتيب ثم الحرف الذى يليها
- ☐ (ال) التعريف تغفل ترتيبا مع بقائها رسما وتحسب اذا كانت من بنية الكلمة
- ☐ الالف الممدودة تحسب ألفين
- ☐ واو العطف تحسب فى الترتيب
- ☐ الاسماء العربية تكتب كما هى الا ذات الكنية فتقلب
- ☐ الاسماء الافرنجية تلقب باسم العائلة
- ☐ لم تذكر الالقاب الا للضرورة لعدم ذكر باقى الاسم
- ☐ عدم التعرض للهوامش

إعـداد :

كمال محمد على

(أ)

(ب)

(د)

(ش)

(ف)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

المحتويات

رقم الايداع بدار الكتب المصرية
١٩٩٥/٢٣٢٢

الترقيم الدولى
I. S. B. N
977 - 13 - 0129 - 2

مطابع الأهرام بكورنيش النيل

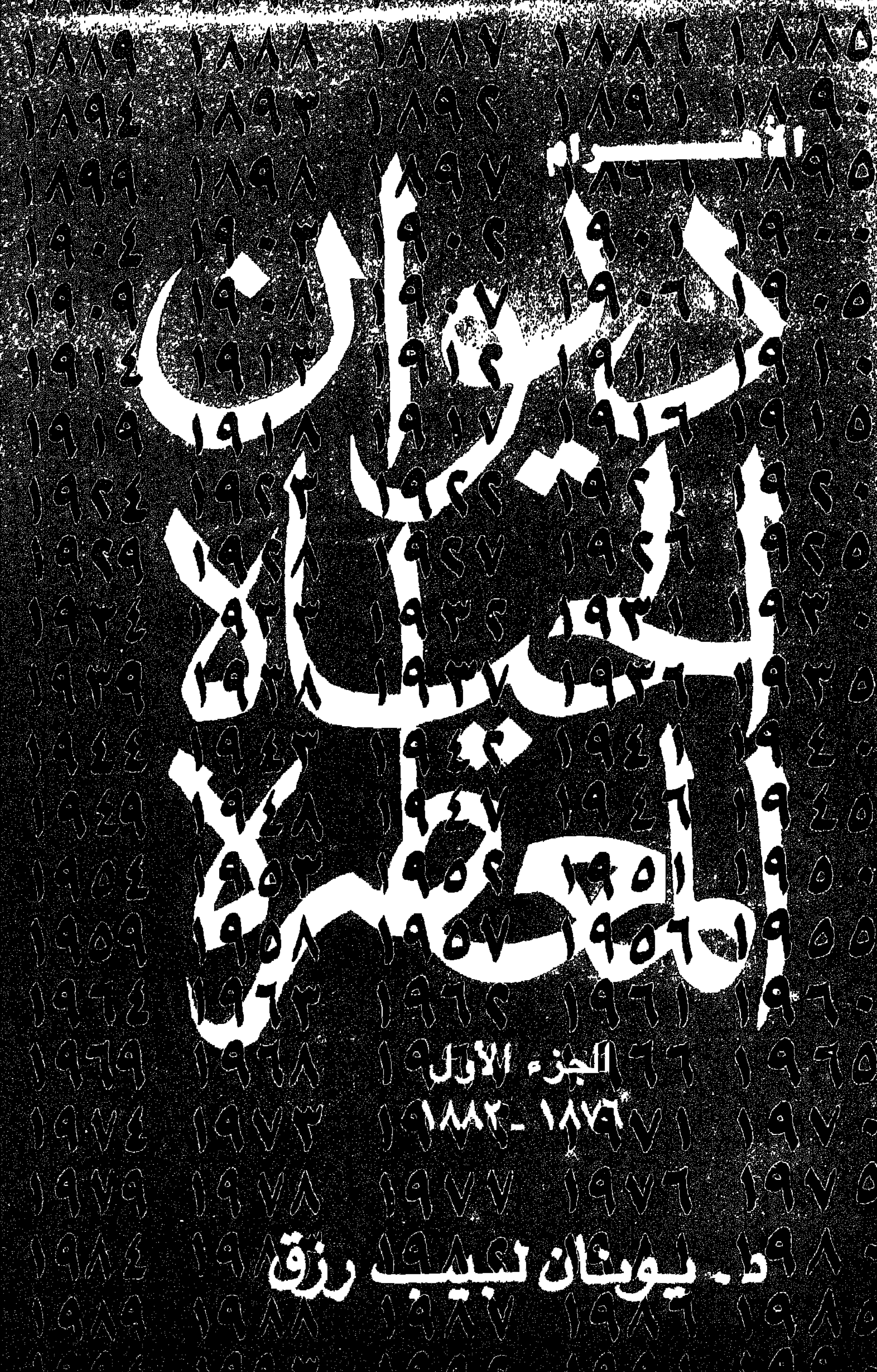
هذا الكتاب :

يضم هذا الكتاب الجزء الأول من « ديوان الحياة المعاصرة » ويشمل الـ ٢١ حلقة الأولى التى نشرت فى الأهرام خلال النصف الثانى من عام ١٩٩٣ تحت هذا العنوان ، والتى تعالج الفترة بين صدور الجريدة (١٨٧٦) وانتهاء الثورة العرابية (١٨٨٢) .

ولم تصدر الرغبة فى نشر هذا العمل من كاتب الديوان «الدكتور يونان لبيب رزق» من حرص فقط على توفيرها للقراء، وإنما صدرت عن رغبة فى أن يتم ذلك فى شكل مدروس باثبات بعض المقالات ذات الأهمية التاريخية فضلا عن الاحالة لأهم المراجع وتوفير للكشاف.

وينوى «مركز تاريخ الأهرام» على إصدار بقية أعماله فى كتب أخرى يتوخى فيها إتباع رغبة القارىء والكشف عن تلك «الجوانب المغفلة» فى التاريخ المصرى المعاصر.

مطابع الأهرام بكورنيش النيل


مركز تاريخ الأهرام
الأهرام
ديوان الحياة المعاصرة
الجزء الأول
١٨٧٦ - ١٨٨٢
د. يونان لبيب رزق

● الغلاف والرسوم الداخلية : مكـــرم حـنـين ●

● الاشـــراف الفـــنى : سـمير صبحى ●

مقدمة

على قدر معلوماتنا نستطيع القول ان هذا العمل يمثل تجربة غير مألوفة فى الكتابة التاريخية، الامر الذى يقودنا الى القول أنها يمكن ان تضيف الى التجريب فى الفنون مثل المسرح والسينما، تجربتنا فى هذا الميدان.. ميدان الكتابة التاريخية. والتجريب فيما نتصوره هو طرح الرؤى الجديدة التى تقدم للفكر الانسانى لونا غير معهود فى فرع ما من فروع العلم او الادب أو الفن، وهو قد يصيب وقد يخيب!

صحيح أن هذا الكتاب يحمل من المنهج العلمي بضعا من أركانه.. المادة العلمية الاصيلة، إخضاع هذه المادة للتحليل وفقا لمدرسة أو أكثر من مدارس التحليل التاريخى، ولكنه يختلف مع هذا المنهج فى مناح أخرى.

فقد جرت العادة فى الكتابات العلمية على الاعتماد على الدوريات كمصدر من مصادر البحث ولكن لم تجر العادة أن تكون هذه الدوريات المصدر المحورى لعمل ما، ناهيك أن يعتمد هذا المصدر على دورية واحدة مهما بلغ من أهميتها.

جرت العادة أيضا على التمسك بالوحدة الموضوعية للدراسة فلا تتداخل المواضيع أو تختلط، أو اخضاع فترة من الفترات الزمنية ذات التأثير فى المجرى العام لتاريخ أمة من الامم، ووضعها موضع الدراسة دون الاستغراق فى موضوع بعينه منها.

أما ما تقدمه هذه الدراسة فهو شئ مختلف .. متابعة للتاريخ المصرى من خلال جريدة واحدة هى جريدة الاهرام، وفى تقديرنا أنها تلبى للقارئ المصرى، بل والعربى، ما قد لا تكون الدراسات الاكاديمية قد نجحت فى تقديمه!

فالمعلوم ان ظهور الصحافة قد أدى الى القضاء على تلك المرحلة من الكتابة التاريخية المعروفة بالكتابة الاخبارية chronicle، وهى الكتابة التى تقوم على تتبع الاخبار وفقا لتسلسلها الزمنى، وهو ما حدث فى مصر.

يشهد بذلك باحث امريكى (*) حين تحدث عن ميخائيل شاروبيم صاحب كتاب «الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث» واسماعيل سرهنك صاحب كتاب «حقائق الاخبار فى دول البحار» باعتبارهم آخر الكتاب الاخباريين chroniclers، والرجلان كانا من كتاب الربع الاخير من القرن التاسع عشر .. والذى ظهرت فى مستهله الصحافة الاهلية على رأسها الاهرام (١٨٧٥-١٨٧٦).

بمعنى آخر ان الصحافة قد احتلت مكان التاريخ الاخبارى بحكم ما كانت تفعله من تسجيل لشتى الاخبار السياسية والاحوال الاجتماعية، وسائر الاحداث اليومية.

(*)انظر : جاك كرابس جونيور: كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر - دراسة فى التحول الوطنى (ترجمة - دكتور عبد الوهاب بكر) القاهرة ١٩٩٣

وقد صنع هذا الاحتلال من الناحية الواقعية شكلا من اشكال غياب المادة العلمية الاخبارية، فلم تعد هذه المادة متاحة بين دفتي كتاب، كما كان الامر من قبل، بل أضحت ضمن مجلدات كبيرة محفوظة في دور الكتب، وتحت أسوأ الظروف في كثير من الاوقات.

ومن ثم يأتي هذا العمل ليحقق أهدافا متعددة:

☐ أن يكون سجلا لأهم الموضوعات التي حفلت بها الاهرام باعتبارها اعرق الصحف العربية (١١٨ سنة).

☐ أن يقدم رؤية بانورامية للعمل ليس من خلال قراءة الصحيفة، فهو ما يستطيعه أي باحث مبتدئ دون ان يكون متخصصا في الدراسة التاريخية وانما من خلال استقرائها ، الامر الذي يصنع ملامح حقبة ضمن حقب متعددة صنعت عمر الجريدة الطويل.

☐ وهو في هذه الرؤية يعني بموضوعات يصعب ان تدرج ضمن دراسات، كبيرة أو صغيرة.. اعلانات أول زمن، مستغربات ومستظرفات، ليالي الانس.. تقدم نماذجا لمثل هذه الموضوعات، ولكنها في نهاية الامر تصنع خطوطا من لوحة يؤدي افتقادها الى نقص ظاهر في استكمال القسمات، قد لا تعيه الا عين خبير!

☐ وهو في هذه الرؤية ايضا قد مزج بين تاريخ الصحيفة والتاريخ المصري، فالاهرام منذ ان صدر يوميا في بداية عام ١٨٨١ كان قد نضا الجانب الاكبر من ثوبه الشامي وارتبط مصيره ارتباطا وثيقا بالوطن المصري رغم الاصول السورية لاصحابه، الامر الذي تؤكده كل الموضوعات بعد العدد ١٠٠٣.. العدد اليومي الاول.

ومع ان فصول هذا الكتاب قد صدرت على شكل حلقات في اهرام يوم الخميس، بدءا من ١٥ يوليو عام ١٩٩٣،وتم ترجمة أغلبها في الاهرام الويكلي فإن اصدارها في كتاب قد اقتضى بعض الاضافات التي لا يسمح بها الحيز المتاح في الصحيفة اليومية.

فقد اضيف الى كل فصل بعض المراجع التي استخدمت في كتابته ، هذا فضلا عن اعداد الاهرام التي تمت الاستعانة بها ، بهدف تقديمها للقارئ الذي يبغي المزيد.

تم في نفس الوقت الحاق بعض صفحات الاهرام أو الصور المستخرجة من أرشيفه، ذات الصلة بالطبع بالموضوع ، وقد تم انتقاء تلك المادة العلمية تبعا لأهميتها واستشعارا بأنه قد يصعب على القارئ المهتم العثور عليها بسهولة.

هذا مع عناية خاصة بكشاف للأعلام والأماكن، فقد ارتأينا أن مثل هذا العمل البانورامي لا يكفي لضبطه، سواء العناوين الرئيسية أو الفرعية للفصول .

ويقدم هذا العمل الجزء الأول من الديوان نأمل بعده أن نلحقه بأجزاء وأجزاء..

والله من وراء القصد..

كاتب الديوان